٢٢٩-٣٠

الميزان في تفسير القرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

الثامن

منشورات
جماعة المدرسين في الحوزة العلمية
في قم المقدسة

شبكة الفكر
alfeker.net

الميزان

في

تفسير القرآن

١٦

الميزان

في

تفسير القرآن

كتاب علمي ، فـني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تـأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

المجلد السادس عشر

منشورات
جماعة المدرسين في الحوزة العلمية
في قم المقدسة

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف
قدس سرّه

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة القصص مكية ، وهي ثمان وثمانون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . طسٓمٓ ــ ١ . تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ــ ٢ . نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ــ ٣ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ــ ٤ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ــ ٥ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ــ ٦ . وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلاٰ تَخَافِي وَلاٰ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ٧ . فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ــ ٨ . وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ ــ ٩ . وَأَصْبَحَ

فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ــ ١٠. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ــ ١١. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ــ ١٢. فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ــ ١٣. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ــ ١٤.

(بيان)

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون يستضعفهم فراعنة قريش وطغاتها واليوم يوم شدة وعسرة وفتنة بأن الله سيمنّ عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكّن لهم ويري طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم فربّاه في حجر عدو، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجّاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثم ردّه إليهم رسولاً منه بسلطان مبين حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين.

وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان ووعد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم برده إلى معاد.

وانتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزّل كتاباً من عنده للدعوة الحقة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى

والجواب عنه ، وتعللهم عن الإيمان بقولهم : إن نتّبع الهدى معك نتخطف من أرضنا والجواب عنه وفيه التمثل بقصة قارون وخسفه .

والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها ، وما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده .

قوله تعالى : « طسم تلك آيات الكتاب المبين » تقدم الكلام فيه في نظائره .

قوله تعالى : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » « من » للتبعيض و « بالحق » متعلق بقوله : « نتلو » أي نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا وبوحي منا من غير أن يداخل في إلقائه الشياطين ، ويمكن أن يكون متعلقاً بنبأ أي حال كون النبأ الذي نتلوه عليك متلبساً بالحق لا مرية فيه .

وقوله : « لقوم يؤمنون » اللام فيه للتعليل وهو متعلق بقوله: « نتلو » أي نتلو عليك من نبأهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا .

ومحصّل المعنى : نتلو عليك بعض نبأ موسى وفرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك وهم طائفة أذلاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش وطغاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به وبرسوله وتحمّلوا كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحق وإنجاء بني إسرائيل وإعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم وقد علا فرعون وأنشب فيهم مخالب قهره وأحاط بهم بجوره .

أنشأه والجو ذلك الجو المظلم الذي لا مطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده اليهم بسلطان فأنجا به بني إسرائيل وأفنى بيده فرعون وجنوده وجعلهم أحاديث وأحلاماً .

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم ويرمز له ولهم بقوله: « لقوم يؤمنون » أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل باولئك ويمن على هؤلاء المستضعفين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين حذو ما صنع ببني إسرائيل .

قوله تعالى : « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم » الخ ، العلو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار ، والشيع جمع شيعة وهي

الفرقة ، قال في المجمع : الشيع : الفرق وكل فرقة شيعة وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضاً . انتهى . وكأن المراد بجعل أهل الأرض – وكأنهم أهل مصر واللام للعهد – فرقاً إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة وتقوية السلطة ، واستحياء النساء إبقاء حياتهن.

ومحصل المعنى : أن فرعون علا في الأرض وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعاً وفرقاً مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء وبذلك ضعّف عامة قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته .

وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباه وإخوته وأشخصهم هناك فسكنوها وتناسلوا بها حتى بلغوا الالوف .

وكان فرعون هذا وهو ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام يعاملهم معاملة الاسراء الأرقاء ويزيد في تضعيفهم حتى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم واستبقاء نسائهم وكان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور وفيه فناء القوم .

والسبب في ذلك أنه كان من المفسدين في الأرض فإن الخلقة العامة التي أوجدت الإنسان لم يفرق في بسط الوجود بين شعب وشعب من الشعوب الإنسانية ثم جهز الكل بما يهديهم إلى حياة اجتماعية بالتمتع من أمتعة الحياة الأرضية ولكل ما يعادل قيمته في المجتمع وما يساوي زنته في التعاون .

هذا هو الإصلاح الذي يهتف به الصنع والإيجاد ، والتعدّي عن ذلك بتحرير قوم وتعبيد آخرين وتمتيع شعب بما لا يستحقونه وتحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الذي يسوق الإنسانية إلى البيد والهلاك .

وفي الآية تصوير الظرف الذي ولد فيه موسى عليه السلام وقد أحدقت الأسباب المبيدة لبني إسرائيل على إفنائه .

قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض إلى قوله – ما كانوا يحذرون » الأصل في معنى المن – على ما يستفاد من كلام الراغب – الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منا ، والمنّة النعمة الثقيلة ومنّ عليه مناً أي أثقله بالنعمة . قال : ويقال

ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا » أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم والثاني بالقول كقوله : « يمنون عليك أن أسلموا » وهو مستقبح إلا عند كفران النعمة . انتهى ملخصاً .

وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرون فيه ، وعن الخليل أن المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام أجري مجرى فعال . فقيل : تمكن وتمسكن نحو تمنزل انتهى .

وقوله : « ونريد أن نمن » الخ الأنسب أن يكون حالاً من « طائفة » والتقدير يستضعف طائفة منهم ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا الخ وقيل : معطوف على قوله : « إن فرعون علا في الأرض » والأول أظهر ، و « نريد » على أي حال لحكاية الحال الماضية .

وقوله : « ونجعلهم أئمة » عطف تفسير على قوله : « نمنّ » وكذا مـا بعده من الجمل المتعاقبة .

والمعنى : أن الظرف كان ظرف علو فرعون ، وتفريقه بين الناس واستضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم والحال أنـّا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين،ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم ونمكن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرون فيه ويملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوءهم فيه ويقرهم عليه،ونري فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره وجنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم ومالهم وسنتهم كما قالوا في موسى وأخيه لما أرسلا اليهم : « يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » طه : ٦٣ .

والآية تصور ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضى على بني اسرائيل أن لا يعيش منهم متنفس ولا يبقى منهم نافخ نار وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملأ أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتى يقضي عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر وفي باطنه الارادة الإلهية تعلقت بأن تنجيهم منهم وتحول ثقل النعمة من آل فرعون

الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وتبدل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم والله يحكم لا معقب لحكمه .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » إلى آخر الآية ، الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله : « بأن ربك أوحى لها » الزلزال : ٥ ، وقوله : «وأوحى ربك إلى النحل» النحل : ٦٨ ، وقوله في أم موسى: « وأوحينا إلى أم موسى » الآية أو بنحو آخر كما في الأنبياء والرسل ، وفي غيره تعالى كما في قوله : « إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الأنعام : ١٢١ ، والإلقاء الطرح ، واليم البحر والنهر الكبير .

وقوله : « وأوحينا إلى أم موسى » في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير وحبلت أم موسى به — والحال هذه الحال من الشدة والحدة — ووضعته وأوحينا اليها الخ .

والمعنى · وقلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته : أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه — أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه — فألقيه في البحر وهو النيل على ما وردت به الرواية ولا تخافي عليه القتل ولا تحزني لفقده ومفارقته إياك إنا رادوه اليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون وبني إسرائيل .

فقوله : « إنا رادوه اليك » تعليل للنهي في قوله : « ولا تحزني » كما يشهد به أيضاً قوله بعد : « فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن » والفرق بين الخوف والحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع والحزن في مكروه قطعي الوقوع .

قوله تعالى: « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » الإلتقاط إصابة الشيء وأخذه من غير طلب ، ومنه اللقطة واللام في قوله : «ليكون لهم عدواً وحزناً» للعاقبة — على ما قيل — والحزن بفتحتين والحزن بالضم فالسكون بمعني واحد كالسَقَم والسُقم ، والمراد بالحزن سبب الحزن فاطلاق الحزن عليه مبالغة في سببيته لحزنهم .

والخاطئين اسم فاعل من خطئ يخطأ خطأً كعلم يعلم علماً كما أن المخطئ اسم فاعل من أخطأ يخطئ إخطاءً ، والفرق بين الخاطئ والمخطئ على ما ذكره الراغب أن الخاطئ يطلق على من أراد فعلاً لا يحسنه ففعله قال تعالى : « إن قتلهم كان خطأً كبيراً » ، وقال : « وإن كنا لخاطئين » ، والمخطئ يستعمل فيمن أراد فعلاً يحسنه فوقع منه غيره واسم مصدره الخطأ بفتحتين ، قال تعالى : « ومن قتل مؤمناً خطأً » النساء : ٩٢ ، والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة . انتهى ملخصاً .

فقوله : « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل وموسى تحذراً من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك وتركوا موسى حيث التقطوه وربوه في حجورهم وكان هو الذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم .

والمعنى : فأصابه آل فرعون وأخذوه من اليم وكان غاية ذلك أن يكون لهم عدواً وسبب حزن إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء وترك موسى : أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه ويجدّون في تربيته .

وبذلك يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله ان ربي عدوهم على أيديهم ليس بسديد .

قوله تعالى : « وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » شفاعة من امرأة فرعون وقد كانت عنده حينما جاؤا اليه بموسى – وهو طفل ملتقط من اليم – تخاطب فرعون بقوله : « قرّة عين لي ولك » أي هو قرّة عين لنا « لا تقتلوه » وإنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب ومباشر وآمر ومأمور .

وإنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل وتضمه اليها ، قال تعالى فيما من به على موسى عليه‌السلام : « وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » طه . ٣٩ .

وقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » قالته لما رأت في وجهه من آثار الجلال وسيماء الجذبة الإلهية ، وفي قولها : « أو نتخذه ولداً » دلالة على أنهما كانا فاقدين للإبن .

وقوله : « وهم لا يشعرون » جملة حالية أي قالت ما قالت وشفعت له وصرفت عنه القتل والقوم لا يشعرون ماذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته ؟

قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » الإبداء بالشيء إظهاره ، والربط على الشيء شدّه وهو كناية عن التثبيت .

والمراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه وخلوّه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوّشة وأوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها .

وذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها وسبب فراغ قلبها الربط على قلبها وسبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى اليها : « لا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه اليك » الخ .

وقوله : « إن كادت لتبدي به لولا » الخ ، « إن » مخففة من الثقيلة أي إنها قربت من أن تظهر الأمر وتفشي السر لولا أن ثبّتنا قلبها بالربط عليه ، وقوله : «لتكون من المؤمنين» أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

والمجموع أعني قوله : «إن كادت لتبدي به» إلى آخر الآية في مقام البيان لقوله: «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» ومحصل معنى الآية وصار قلب أم موسى بسبب وحينا خالياً من الخوف والحزن المؤدّيين إلى إظهار الأمر ، لولا أن ثبّتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه .

وبما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جمل الآية كقول بعضهم في «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » أي صفراً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون ، وقول آخرين : أي فارغاً من الوحي الذي أوحي اليها

بالنسيان ، وما قيل : أي فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغاً له . فإنها جميعاً وجوه لا يحتمل شيئاً منها السياق .

ونظير ذلك في الضعف قولهم : إن جواب لولا محذوف والتقدير لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته وأظهرته ، والوجه في تقديرهم ذلك ما قيل : إن لولا شبيهة بأدوات الشرط فلها الصدر ولا يتقدم جوابها عليها . وقد تقدمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » يوسف : ٢٤ .

قوله تعالى : « وقالت لاخته قصّيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون» قال في المجمع : القص اتباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنه يتبع فيه الثاني الأول . وقال : ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أي عن بعد . انتهى .

والمعنى : وقالت أم موسى لاخته اتّبعي أثر موسى حتى ترين إلى مَ يؤل أمره فرأته عن بُعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لا يشعرون بأنها تقصّه وتراقبه .

قوله تعالى : «وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » التحريم في الآية تكويني لا تشريعي ومعناه جعله بحيث لا يقبل ثدي مرضع ويمتنع من ارتضاعها .

وقوله : « من قبل » أي من قبل حضورها هناك ومجيئها اليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل .

وقوله : « فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون » تفريع على ما تقدّمه غير أن السياق يدلّ على أن هناك حذفاً كأنه قيل : وحرّمنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجيء اخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت اخته ورأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون: هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون ؟

قوله تعالى : « فرددناه إلى امه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق ، والمحصل أنها قالت : هل أدلّكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلّتهم على امه فسلّموه اليها فرددناه إلى امه بنظم هذه الأسباب .

وقوله: « كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم» الخ، تعليل للرد والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق وكانت مؤمنة وإنما أُريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق .

والمراد بوعد الله مطلق الوعد الالهي بدليل قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولا تطمئن اليها نفوسهم، ومحصله أن توقع بمشاهدة حقية هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق .

وربما يقال : إن المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقه : « إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين » ولا يلائمه قوله بعد : « ولكن » الخ على ما تقدم.

قوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشتد عند ذلك قواه ويكون في الغالب في الثمان عشرة ، والاستواء الاعتدال والاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الانسان في أمر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد ، وقد تقدم الكلام في معنى الحكم والعلم وإيتائهما ومعنى الاحسان في مواضع من الكتاب .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض » قال : يوسف وولده .

أقول : لعل المراد بنو إسرائيل ، وإلا فظهور الآية في خلافه غير خفي .

وفي معاني الأخبار بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول: إن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال : أنتم المستضعفون بعدي. قال المفضل : فقلت له : ما معنى ذلك ؟ قال: معناه أنكم الأئمة بعدي إن الله عز وجل يقول : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة .

أقول : والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة وبهذه الرواية يظهر أنها جميعاً من قبيل الجري والانطباق .

وفي نهج البلاغة : لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها وتلا عقيب ذلك « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى » إلى آخر الآية حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: إنه لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظنهن وذلك أنه كان لما بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون : إنه يولد فينا رجل يقال له : موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك : لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المحابس .

فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت اليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: يذبح الساعة فعطف الله عز وجل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى : ما لك قد اصفر لونك ؟ فقالت أخاف أن يذبح ولدي فقالت: لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه وهو قول الله : « وألقيت عليك محبة مني » .

فأحبته القبطية الموكلة بها وأنزل الله على أم موسى التابوت ، ونوديت ضعيه في التابوت فألقيه في اليم وهو البحر « ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فوضعته في التابوت وأطبقته عليه وألقته في النيل .

وكان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره – ومعه آسية امرأته – إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فاخذ التابوت ورفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال : هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون محبة شديدة وكذلك في قلب آسية .

وأراد فرعون أن يقتله فقالت آسية : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون أنه موسى .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه » الخ ، عن النبي ﷺ : والذي يحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه .

وفي المعاني بإسناده عن محمد بن نعمان الأحول عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل: «فلما بلغ أشدّه واستوى» قال : أشدّه ثمان عشرة سنة «واستوى» التحى .

* * *

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ــ ١٥ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ــ ١٦ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ــ ١٧ . فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ــ ١٨ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِٱلْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ــ ١٩ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ ــ ٢٠ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ـ ٢١ .

(بيان)

فصل ثان من قصة موسى عليه‌السلام فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشدّه فأدّى إلى خروجه من مصر وقصده مدين .

قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » الخ ، لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر ، وأنه كان يعيش عند فرعون ، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة وأنه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ويؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى » على ما سيجيء من الاستظهار .

وحين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق وتخلو الشوارع والأزقة من المارة كالظهيرة وأواسط الليل .

وقوله : « فوجد فيها رجلين يقتتلان » أي يتنازعان ويتضاربان ، وقوله : « هذا من شيعته وهذا من عدوه » حكاية حال تمثل به الواقعة ، ومعناه : أن أحدهما كان إسرائيلياً من متّبعيه في دينه ـ فإن بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلا الإسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون ـ والآخر قبطياً عدواً له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ، ومن الشاهد أيضاً على كون هذا الرجل قبطياً قوله في موضع آخر يخاطب ربه : « ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ .

وقوله : « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه » الإستغاثة : الاستنصار من الغوث بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي .

وقوله : « فوكزه موسى فقضى عليه » ضميرا « وكزه » و « عليه » للذي من عدوه والوكز ـ على ما ذكره الراغب وغيره ـ الطعن والدفع والضرب بجمع الكف ،

والقضاء هو الحكم والقضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته ، والمعنى : فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات ، وكان قتل خطأ ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبّر بالقتل .

وقوله : « قال هـذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » الإشارة بهذا إلى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى إلى موت القبطي وقد نسبه نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال : « هذا من عمل الشيطان » و « من » ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية ، والمعنى : هذا الذي وقع من المعاداة والاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذي أوقع العداوة والبغضاء بينهما وأغرى على الاقتتـال حتى أدى ذلك إلى مداخلة موسى وقتل القبطي بيـده فأوقعه ذلك في خطر عظيم وقد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفيّة مكتومة وأن القبط سيثورون عليه وأشرافهم وملاؤهم وعلى رأسهم فرعون سينتقمون منه ومن كل من تسبب إلى ذلك أشد الانتقام .

فعند ذلك تنبه عليه‌السلام أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطأ إلى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلا إلى الحق والصواب فقضي أن ذلك منسوب إلى الشيطان .

وفعله ذاك وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائيلي دفعاً لكافر ظـالم ، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهيّة فأدى ذلك إلى خروجهما من الجنة .

فقوله : « هذا من عمل الشيطان » انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدي إلى قتل القبطي ووقوعه في عظيم الخطر وندم منه على ذلك ، وقوله : « إنـه عدو مضلّ مبين » إشارة منه إلى أن فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان وإن لم يكن من المعصية التي فيهـا إثم ومؤاخذة بل خطأ محضاً لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين ، فكان ذلك منه نوعاً من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة ولذا لمـا اعترض عليه فرعون بقوله : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت

من الكافرين » أجابه بقوله : « فعلتها إذاً وأنا من الضالين » الشعراء : ٢٠ .

قوله تعالى: «قال ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم» اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة ، ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولة في قوله : «فاغفر لي» هو إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملأه ، كما يظهر من قوله تعالى : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم » طه : ٤٠ .

وهذا الاعتراف بالظلم وسؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم وزوجه المحكي في قوله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »، الأعراف : ٢٣ .

قوله تعالى : « قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : الباء في قوله : « بما أنعمت » للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت علي ، لك علي أن لا أكون معيناً للمجرمين فيكون عهداً منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى : أقسم بما أنعمت علي لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، وقيل : القسم استعطافي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني ، والمعنى أقسمك أن تعطف علي وتعصمني فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

والوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله : « بما أنعمت علي » – على ما ذكروه – إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون وردّه إلى أمه ، وإما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي وغفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، والمعنى أقسم بحفظك إياي أو أقسم بمغفرتك لي ، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو .

وقوله : « فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : المراد بالمجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدّت إعانته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأوقعت إعانته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب الموقع في الجرم مجرماً .

وقيل : المراد بالمجرمين فرعون وقومه والمعنى : أقسم بانعامك علي لأتوبن فلن

أكون معيناً لفرعون وقومه بصحبتهم وملازمتهم وتكثير سوادهم كما كنت أفعله إلى هذا اليوم .

ورد هذا الوجه الثاني بأنه لا يناسب المقام .

والحق أن قوله : « رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » عهد من موسى عليه السلام أن لا يعين مجرماً على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه ، والمراد بالنعمة وقد أطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى : « فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » النساء : ٦٩ .

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » الفاتحة : ٧ ، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سترة عليه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيلي الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطي جرماً حتى يتوب عليه السلام منه كيف ؟ وهو عليه السلام من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته ، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان اليهم بالإغواء حيث قال : « إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً » مريم : ٥١ .

وقد نص تعالى أيضاً آنفاً بأنه آتاه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه .

وقد كرر « قال » ثلاثاً حيث قيل : « قال هذا من عمل الشيطان » « قال رب إني ظلمت نفسي » « قال رب بما أنعمت علي » وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجملة الاولى قضاء منه وحكم، والجملة الثانية استغفار ودعاء، والجملة الثالثة عهد والتزام.

قوله تعالى : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين » تقييد « أصبح » بقوله : « في المدينة » دليل على أنه بقي في المدينة ولم يرجع إلى قصر فرعون ، والاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح ، والغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد .

والمعنى : فأصبح موسى في المدينة – ولم يرجع إلى بلاط فرعون – والحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلي الذي استنصره على القبطي بالأمس يستغيث به رافعاً صوته على قبطي آخر قال موسى للإسرائيلي توبيخاً وتأنيباً: إنك لغويّ مبين لا تسلك سبيل الرشد والصواب لأنه كان يخاصم ويقتتل قوماً ليس في مخاصمتهم والمقاومة عليهم إلا الشر كل الشر .

قوله تعالى : « فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » إلى آخر الآية ، ذكر جل المفسرين أن ضمير « قال » للاسرائيلي الذي كان يستصرخه وذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله : « إنك لغويّ مبين » فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال : « يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » الخ ، فعلم القبطي عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسى وعزموا على قتله .

وما ذكروه في محله لشهادة السياق بذلك فلا يعبأ بما قيل: إن القائل هو القبطي دون الاسرائيلي، هذا ومعنى باقي الآية ظاهر. وفي قوله : « أن يبطش بالذي هو عدو لهما » تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعاً إسرائيليين ، وفيه أيضاً تأييد أن القائل : « يا موسى أتريد » الخ ، الاسرائيلي دون القبطي لأن سياقه سياق اللوم والشكوى .

قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » الخ ، الائتمار المشاورة ، والنصيحة خلاف الخيانة .

والظاهر كون قوله : « من أقصى المدينة » قيداً لقوله : « جاء » فسياق القصة يعطي أن الائتمار كان عند فرعون وبأمر منه ، وأن هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصر فرعون في أقصى المدينة وخارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من المدينة .

وهذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فخرج منها خائفاً يترقب قـال رب نجّني من القوم الظالمين » فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطي خطأ جرماً لنفسه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي قال : فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه مـا يتكلم به موسى عليه السلام من التوحيد حتى همّ به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى والآخر يقول بقول فرعون فاستغاثه الذي من شيعته فجاء موسى فوكز صاحب فرعون فقضى عليه وتوارى في المدينة .

فلما كان الغد جاء آخر فتشبّث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ فخلّى عن صاحبه وهرب .

وفي العيون بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى . قال : فأخبرني عن قول الله : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هـذا من عمل الشيطان » قال الرضا عليه السلام : إن موسى عليه السلام دخل مدينـة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هـذا من شيعته وهذا من عدوه فقضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات ، قال : هذا من عمل الشيطان يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله « إنه » يعني الشيطان « عدوّ مضلّ مبين » .

قال المأمون : فمـا معنى قول موسى : « رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » ؟ قال : يقول : وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فاغفر لي أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال موسى : رب بما أنعمت عليّ من القوة حتى قتلت رجلاً بوكزة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل اجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى .

فأصبح موسى عليه السلام في المدينـــة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قال له موسى إنك لغوي مبين قاتلت رجلاً بالأمس وتقاتل هـذا اليوم لأؤدبنك وأراد أن يبطش به فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما وهو من شيعته قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ومـا تريد أن تكون من المصلحين . قال المأمون : جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن .

* * *

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ــ ٢٢. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ــ ٢٣ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ــ ٢٤ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ــ ٢٥ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ــ ٢٦ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ــ ٢٧ .

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ــ ٢٨ .

(بيان)

فصل ثالث من قصته عليه السلام يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله القبطي خوفاً من فرعون وتزوّجه هناك بابنة شيخ كبير لم يسمّ في القرآن لكن تذكر روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث إلى مدين .

قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » قال في المجمع : تلقاء الشيء حذاؤه ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه . وقال : سواء السبيل وسط الطريق انتهى .

ومدين – على ما في مراصد الاطلاع – مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينها ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام انتهى ، ويقال : إنه كان بينها وبين مصر مسيرة ثمان وكانت خارجة من سلطان فرعون ولذا توجه اليها .

والمعنى : ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال : أرجو من ربي أن يهديني وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه والخروج منه إلى غيره .

والسياق – كما ترى – يعطي أنه عليه السلام كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة اليها فترجى أن يهديه ربه .

قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » الخ الذود الحبس والمنع ، والمراد بقوله : « تذودان » أنهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله : « يسقون » سقيهم أغنامهم ومواشيهم ، والرعاء جمع الراعي وهو الذي يرعى الغنم .

والمعنى : ولما ورد موسى ماء مدين وجد على المـــاء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسراً عنهما – حيث وجدهما تذودان الغنم وليس على غنمهما رجل – : ما شأنكما؟ قالتا لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم وأبونا شيخ كبير – لا يقدر أن يتصدي بنفسه أمر السقي ولذا تصدينا الأمر .

قوله تعالى : « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل وقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » فهم عليه‌السلام من كلامهما أن تأخرهما في السقي نوع تعفف وتحجب منهما وتعد من الناس عليهما فبادر إلى ذلك وسقى لهما .

وقوله : « ثم تولى إلى الظل وقال رب إني لمــا أنزلت إليّ من خير فقير » أي انصرف إلى الظل ليستريح فيه والحر شديد وقال ما قال ، وقد حمل الأكثرون قوله : « ربّ إني لما أنزلت » الخ على سؤال طعام يسدّ به الجوع ، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله « ما أنزلت إليّ » القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلي والهرب من فرعون بقصد مدين وسقي غنم شعيب واللام في « لما أنزلت » بمعنى إلى وإظهار الفقر الى هــذه القوة التي أنزلها الله اليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر الى شيء من الطعــــام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة .

ويظهر منه أنه عليه‌السلام كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ولا يريده وإن كان مما يقتضيه طبعه البشري إلا ابتغاء مرضاة ربه وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة فهو القائل لما وكز القبطي : رب بمــا أنعمت علي فلن اكون ظهيراً للمجرمين ثم القائل لما خرج من مصر خائفاً يترقب : « رب نجني من القوم الظالمين » ثم القائل لما أخذ في السلوك : « عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ثم القائل لما سقى وتولى الى الظل : « رب إني لمــا أنزلت الى من خير فقير » ثم القائل لما آجر نفسه شعيباً وعقد على بنته : « والله على ما نقول وكيل » .

وما نقل عن بعضهم ان اللام في « لما أنزلت » للتعليل ، وكذا قول بعضهم إن المراد بالخير خير الدين وهو النجاة من الظالمين بعيد مما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء » الى آخر الآية . ضمير إحداهما للمرأتين ، وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها ، وقوله : « ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا ، وقوله : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف » الخ يلوّح الى ان شعيباً استفسره حاله فقص عليه قصته فطيّب نفسه بأنه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين .

وعند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجّى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد مدين ، وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى فكفاه رزق عشر سنين ووهب له زوجاً يسكن اليها .

قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم .

وقوله : « إن خير من استأجرت » الخ ، في مقام التعليل لقوله : « استأجره » وهو من وضع السبب موضع المسبب والتقدير استأجره لأنه قوي أمين وخير من استأجرت هو القوي الأمين .

وفي حكمها بأنه قوي أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته وكذا من ظهور عفته في تكليمها وسقي أغنامها ثم في صحبته لها عندما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته .

ومن هنا يظهر أن هذه القائلة : « يا أبت استأجره » الخ ، هي التي جاءته وأخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وذهب اليه جمع من المفسرين .

قوله تعالى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج » الخ، عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثماني سنين أو عشراً

قبال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بعقد قاطع ومن الدليل عدم تعيّن المعقودة في كلامه عليه السلام .

فقوله : « إحدى ابنتي هاتين » دليل على حضورهما إذ ذاك ، وقوله : « على أن تأجرني ثماني حجج » أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيراً لي ثماني حجج ، والحجج جمع حجة والمراد بها السنة بعناية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام ، وبه يظهر أن حج البيت – وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام – كان معمولاً به عندهم .

وقوله : « فإن أتممت عشراً فمن عندك » أي فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك وباختيار منك من غير أن تكون ملزماً من عندي .

وقوله : « وما أريد أن أشق عليك » إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة وأنه عمل غير موصوف بالمشقة وأنه مخدوم صالح .

وقوله : « ستجدني إن شاء الله من الصالحين » أي إني من الصالحين وستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجدان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم .

قوله تعالى : « قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل » الضمير لموسى عليه السلام .

وقوله : « ذلك بيني وبينك » أي ذلك الذي ذكرته وقررته من المشارطة والمعاهدة وعرضته عليّ ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن نخالف ما شارطناه ، وقوله : « أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ » بيان للأجل المردد المضروب في كلام شعيب عليه السلام وهو قوله : « ثماني حجج وإن أتممت عشراً فمن عندك » أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو عليّ وتلزمني بالزيادة وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشراً فليس لك أن تعدو عليّ بالمنع من الزيادة .

وقوله : « والله على ما نقول وكيل » توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينهما اليه لو اختلفا ، ولذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة والقضاء كليهما اليه تعالى ، وهذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا اليه ابنه فيما يحكيه الله : « فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » يوسف : ٦٦ .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب من مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم تخفضه أرض وترفعه أخرى حتى انتهى الى أرض مدين .

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها أمة من النــاس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخـــذ دلوهما فقال لهما : قدّما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس .

ثم تولى موسى الى الشجرة فجلس تحتها وقال : « ربّ إني لمـا أنزلت إليّ من خير فقير » فروي أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شق تمرة فلما رجعتا إلى أبيهما قال : ما أعجلكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا . فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فروي أن موسى عليه السلام قـــال لها : وجهني إلى الطريق وامشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء ، فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

قــال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك فروي أنــه قضى أتمها لأن الأنبياء عليهم السلام لا تأخذ الا بالفضل والتمام .

أقول : وروى ما في معناه القمي في تفسيره .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام : « ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير » قال : سأل الطعام .

أقول : وروى العياشي عن حفص عنه عليه السلام مثله ، ولفظه إنمــا عنى الطعام

وأيضاً عن ليث عن أبي جعفر عليه السلام مثله ، وفي نهج البلاغة مثله ولفظه والله ما سأله إلا خبزاً يأكله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير قال : إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر .

وفي تفسير القمي قال : قالت إحدى بنات شعيب : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين،فقال لها شعيب عليه السلام :أما قوته فقد عرّفتنيه أنه يستقي الدلو وحده فبم عرفت أمانته ؟ فقالت : إنه لما قال لي : تأخري عني ودليني على الطريق فأنا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته .

أقول : وروى مثله في المجمع عن علي عليه السلام .

وفي المجمع وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رسائل أيتهما التي قالت : إن أبي يدعوك ؟ قال : التي تزوج بها . قيل : فأي الأجلين قضى ؟ قال : أوفاهما وأبعدهما عشر سنين . قيل : فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه ؟ قال : قبل أن ينقضي . قيل له : فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك ؟ قال : إن موسى علم أنه سيتم له شرطه . قيل : كيف ؟ قال : علم أنه سيبقى حتى يفي .

أقول : وروى قضاء عشر سنين في الدر المنثور عن النبي ﷺ بعدة طرق .

وفي تفسير العياشي وقال الحلبي : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت أكان يحج قبل أن يبعث النبي ﷺ ؟ قال : نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوج : « على أن تأجرني ثماني حجج » ولم يقل ثماني سنين.

* * *

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

ناراً قالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِنَ النّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ـ ٢٩ . فَلَمّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ
ٱلْوادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسىٰ إِنِّي أَنا اللهُ
رَبُّ ٱلْعالَمِينَ ـ ٣٠ . وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ
وَلّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْآمِنِينَ ـ ٣١ . أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ـ ٣٢ . قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ
مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ـ ٣٣ . وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ـ ٣٤ .
قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما
بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ ٱتَّبَعَكُما ٱلْغالِبُونَ ـ ٣٥ . فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسىٰ بِآياتِنا
بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا إِلّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهٰذا فِي آبائِنَا
ٱلْأَوَّلِينَ ـ ٣٦ . وَقالَ مُوسىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِٱلْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ
وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ ـ ٣٧ . وَقالَ
فِرْعَوْنُ يا أَيُّها ٱلْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا
هامانُ عَلَى الطِّينِ فَٱجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي

لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ـــ ٣٨ . وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ـــ ٣٩ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ـــ ٤٠ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ـــ ٤١ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ـــ ٤٢ .

(بيان)

فصل آخر من قصة موسى عليه السلام وقد أودع فيه إجمال قصته من حين سار بأهله من مدين قاصداً لمصر وبعثته بالرسالة إلى فرعون وملئه لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليمّ وتنتهي القصة إلى إيتائه الكتاب وكأنه هو العمدة في سرد القصة .

قوله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً » الخ ، المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب عليه السلام والمروي أنه قضى أطول الأجلين ، والإيناس الإبصار والرؤية ، والجذوة من النار القطعة منها ، والاصطلاء الاستدفاء .

والسياق يشهد أن الأمر كان بالليل وكانت ليلة شديدة البرد وقد ضلّوا الطريق فرأى من جانب الطور وقد أشرفوا عليه ناراً فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها ، وقد وقع في القصة من سورة طه موضع قوله : « لعلي آتيكم منها بخبر » الخ قوله : « لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » طه : ١٠ ، وهو أدلّ على كونهم ضلوا الطريق .

وكذا في قوله خطاباً لأهله : « امكثوا » الخ ، شهادة على أنه كان معها من يصحّ

معه خطاب [١] الجمع .

قوله تعالى : « فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » الخ قال في المفردات : شاطىء الوادي جانبه ، وقال : أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً وجمعه أودية انتهى والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها .

والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر وهو صفة الشاطيء ولا يعبؤ بما قاله بعضهم : إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم .

والبقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطىء الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها ، ومباركتها لتشرفها بالتقريب والتكليم الإلهي وقد أمر بخلع نعليه فيهـــا لتقدسها كما قال تعالى في القصة من سورة طه : « فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » طه : ١٢ .

ولا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدءً للنداء والتكليم بوجه غير أن الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائماً بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجاباً احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه منمعنى الاحتجاب وهو على كل شيء محيط، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » الشورى : ٥١ .

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل : إن الشجرة كانت محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به .

وكذا ما قيل : إن هـذا التكليم أعلى منازل الأنبياء عليهم السلام أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة ومبلغ . وذلك أنـه كان كلاماً من وراء حجاب والحجاب واسطة وظاهر آية الشورى المذكورة آنفاً أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ .

---

(١) وفي التوراة الحاضرة أنه حمل معـه الى مصر امرأته وبنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابـع آية ٢٠) .

وقوله : « أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » أن فيه تفسيرية ، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحدانية الربوبية النافية لمطلق الشرك إذ كونه رباً للعالمين جميعاً – والرب هو المالك المدبر لملكه الذي يستحق العبادة من مملوكيه – لا يدع شيئاً من العالمين يكون مربوباً لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه .

ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الاصول الثلاثة أعني التوحيد والنبوة والمعاد إذ قال: « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية » الآيات طه : ١٤ – ١٦ .

قوله تعالى : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » تقدم تفسيره في سورة النمل .

قوله تعالى : « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » بتقدير القول أي قيل له: أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، وفي هذا الخطاب تأمين له ، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سورة النمل : « يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون » النمل : ١٠ وأنه تأمين معناه إنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء .

قوله تعالى : « اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه ، والمراد بالسوء – على ما قيل – البرص .

والظاهر أن في هذا التقييد تعريضاً لما في التوراة الحاضرة في هذا [١] الموضع من القصة : ثم قال له الرب أيضاً : ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج .

قوله تعالى : « واضمم اليك جناحك من الرهب » إلى آخر الآية ، الرهب بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضم فالسكون الخوف ، والجناح قيل : المراد به اليد وقيل : العضد .

---

(١) سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٦ .

قيل : المراد بضم الجناح اليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف .

وقيل : إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي وهما جناحاه فقيل له : اضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها .

والوجهان – كما ترى – مبنيان على كون الجملة أعني قوله : « واضمم » الخ ، من تتمة قوله : « أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » وهذا لا يلائم تخلل قوله : « اسلك يدك في جيبك » الخ ، بين الجملتين بالفصل من غير عطف .

وقيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه والحثّ على الجد في أمر الرسالة لئلا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال .

ولا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرّج بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي ﷺ من التواضع للمؤمنين بقوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ على بعض المعاني .

قوله تعالى : « قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » إشارة إلى قتله القبطي بالوكز وكان يخاف أن يقتلوه قصاصاً .

قوله تعالى : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذّبون » قال في المجمع : يقال : فلان رد، لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره . انتهى .

وقوله : « إني أخاف أن يكذّبون » تعليل لسؤاله إرسال هارون معه ، والسياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب ولا يستطيع بيان حجته للكنة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه ومن الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله: « قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون » الشعراء : ١٣ .

فمحصّل المعنى : أن أخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معيناً لي يبيّن

صدقي في دعواي إذا خاصموني إني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواي.

قوله تعالى : « قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » شدّ عضده بأخيه كناية عن تقويته بـه ، وعدم الوصول اليهما كناية عن عـدم التسلط عليهما بالقتل ونحوه كأن الطائفتين يتسابقان وإحداهما متقدمة دائماً والاخرى لا تدركهم بالوصول اليهم فضلاً أن يسبقوهم .

والمعنى : قال سنقوّيك ونعينك بأخيك هارون ونجعل لكما سلطة وغلبـة عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التي نظهركما بها . ثم قال : « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » وهو بيان لقوله : « ونجعل لكما سلطاناً » الخ ، يوضح أن هـذا السلطان يشملهما ومن اتبعهما من الناس .

وقد ظهر بذلك أن السلطان بمعنى القهر والغلبة وقيل : هو بمعنى الحجة والأولى حينئذ أن يكون قوله : « بآياتنا » متعلقاً بقوله : «الغالبون» لا بقوله : « فلا يصلون اليكما » وقد ذكروا في الآية وجوهاً أُخر لا جدوى في التعرض لها .

قوله تعالى : « فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هـذا إلا سحر مفترى » الخ ، أي سحر موصوف بأنـه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر ميميّ وصف به السحر مبالغة .

والإشارة في قوله : « ما هـذا إلا سحر مفترى » إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحراً مختلقاً افتعله فنسبه إلى الله كذباً .

والإشارة في قوله: « وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » إلى ما جاء به من الدعوة وأقام عليها حجة الآيات، وأما احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار إسم الإشارة على أنهم كانوا يدّعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله : « فلنأتينـّك بسحر مثله » طه : ٥٨ ، على أن عدم معهودية السحر وعدم مسبوقيته بالمثل لا ينفعهم شيئاً حتى يدّعوه .

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات ، ويناسبه ما حكي في الآية التالية من قول موسى : « ربي أعلم بمن جاء بالهدى » الخ .

قوله تعالى : « وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار » الخ ، مقتضى السياق كونه جواباً من موسى عن قولهم : « وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » في رد دعوى موسى ، وهو جواب مبني على التحدي كأنه يقول : إن ربي – وهو رب العالمين له الخلق والأمر – هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار وهو الذي أرسلني رسولاً جائياً بالهدى ـ وهو دين التوحيد ـ ووعدني أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار ، والحجة على ذلك الآيات البينات التي آتانيها من عنده .

فقوله : « ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده » يريد به نفسه والمراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها .

وقوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم : « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » الزمر : ٧٤ ، وإما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله : « قال موسى لقومه استعينوا الله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » الأعراف : ١٢٨ ، وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة ، والثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليله بقوله : « إنه لا يفلح الظالمون » .

وفي قوله : « إنه لا يفلح الظالمون » تعريض لفرعون وقومه وفيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي اليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني .

قال بعض المفسرين : والوجه في عطف قوله : « وقال موسى ربي أعلم » الخ ، على قولهم : « ما هذا إلا سحر مفترى » الخ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميز صحيحهما من الفاسد . انتهى . وما قدمناه من كون قول موسى عليه‌السلام مسوقاً لرد قولهم أوفق للسياق .

قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » إلى آخر الآية ، فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقة المؤيدة بالآيات المعجزة يريد أنه لم يتبين له حقية ما يدعو اليه موسى ولا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من

عند الله وأنه ما علم لهم من إله غيره .

فقوله : « ما علمت لكم من إله غيري » سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكي في موضع آخر : « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » المؤمن : ٢٩ .

فمحصل المعنى : أنه ظهر للملأ أنه لم يتضح له من دعوة موسى وآياته أن هناك إلهاً هو رب العالمين ولا حصل له علم بأن هنـــاك إلهاً غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يطـّلع إلى إله موسى .

وبذلك يظهر أن قوله : « مـا علمت لكم من إله غيري » من قبيل قصر القلب فقد كان موسى عليه السلام يثبت الالوهية لله سبحانه وينفيها عن غيره وهو ينفيها عنه تعالى ويثبتها لنفسه ، وأما سائر الآلهة التي كان يعبدها هو وقومه فلا تعرض لها .

وقوله : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » المراد بالإيقـاد على الطين تأجيج النـار عليه لصنعة الآجر المستعمل في الأبنية ، والصرح البناء العـالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتخاذ الآجر وبناء قصر عال منه .

وقوله : « لعلي أطـّلع إلى إله موسى » نسب الإله إلى موسى بعنـاية أنه هو الذي يدعو اليه ، والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمة والتقدير: اجعل لي صرحاً أصعد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلي أطـّلع إلى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطـّلع اليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس وإضلالهم .

ويمكن أن يكون المراد أن يبني له رصداً يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول أو حقـّية ما يصفه موسى عليه السلام ، ويؤيد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر: « يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطـّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » المؤمن : ٣٧ .

وقوله : « وإني لأظنه من الكاذبين » ترقّ منه من الجهل الذي يدل عليه قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » إلى الظن بعدم الوجود وقد كان كاذباً في قوله هذا ولا يقوله إلا تمويهاً وتعمية على الناس وقد خاطبه موسى بقوله : « لقد علمت مـا أنزل

هؤلاء إلا رب السماوات والأرض » أسرى : ١٠٢ .

وذكر بعضهم أن قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله : « قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات والأرض » يونس : ١٨ ، وأنت خبير بأنه لا يلائم ذيل الآية .

قوله تعالى : « واستكبر هو وجنوده في الأرض وظنوا أنهم الينا لا يرجعون » أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع وذلك أنهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

قوله تعالى : « فأخذناه وجنوده » الخ النبذ الطرح ، واليم البحر والباقي ظاهر. وفي الآية من الاستهانة بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون » الدعوة إلى النار هي الدعوة الى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي لكونها هي التي تتصور لهم يوم القيامة ناراً يعذّبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازاً من باب إطلاق المسبب وإرادة سببه .

ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار ، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الإضلال الإبتدائي في شيء .

وقيل : المراد بجعلهم أئمة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حد قوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » الزخرف : ١٩ .

وفيه أن الآية التالية على ما سيجيء من معناها لا تلائمه . على أن كون الجعل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلم .

وقوله : « ويوم القيامة لا ينصرون » أي لا تنالهم شفاعة من ناصر .

قوله تعالى : « وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » بيان للازم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتّبعيهم وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم .

فالآية في معنى قوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » العنكبوت : ١٣ وقوله : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ ، وتنكير اللعنة للدلالة على تفخيمها واستمرارها .

وكذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر ويشمئز عنهم النفوس ويفر منهم الناس ولا يدنو منهم أحد وهو معنى القبح وقد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئاً كثيراً في كلامه .

(بحث روائي)

في المجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأبطأهما .

أقول : وروى ما في معناه بالإسناد عن أبي ذر عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن مقسم قال : لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقلت له : أي الأجلين قضى موسى ؟ الأول أو الآخر ؟ قال : الآخر .

وفي المجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرأى ناراً « قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً » .

وعن كتاب طب الأئمة بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في حديث قال : وقال الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام : « وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » يعني من غير برص .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدّقني » قال الراوي : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فكم مكث موسى عليه السلام غائباً عن أمه حتى ردّه الله عز وجل عليها ؟ قال : ثلاثة أيام .

قال : فقلت : فكان هارون أخا موسى عليهما السلام لأبيه وأمه ؟ قال : نعم أما تسمع الله عز وجل يقول : « يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ؟ فقلت :

فأيهما كان أكثر سناً ؟ قال : هارون . قلت : فكان الوحي ينزل عليهما جميعاً ؟ قال : كان الوحي ينزل على موسى وموسى يوحيه إلى هارون .

فقلت له : أخبرني عن الأحكام والقضاء والأمر والنهي كان ذلك اليهما ؟ قال : كان موسى الذي يناجي ربه ويكتب العلم ويقضي بين بني إسرائيل وهارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة . قلت : فأيهما مات قبل صاحبه ؟ قال : مات هارون قبل موسى وماتا جميعاً في التيه . قلت : فكان لموسى ولد ؟ قال : لا كان الولد لهارون والذرية له .

أقول : وآخر الرواية لا يوافق روايات أخر تدل على أنه كان له ولد ، وفي التوراة الحاضرة أيضاً دلالة على ذلك .

في جوامع الجامع في قوله تعالى : « واستكبر هو وجنوده » قال عليه‌السلام فيما حكاه عن ربه عز وجل : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار .

وفي الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : قال : إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان قال الله تبارك وتعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس يقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم . قال : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل .

(كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام)
في فصول

١ ـ **منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي** : كان عليه‌السلام أحد الخمسة أولي العزم الذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » الأحزاب : ٧ ، وقال : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً الذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ .

ولقد امتنّ الله سبحانه عليه وعلى أخيه في قوله : « ولقـــد مننّا على موسى وهارون » الصافات : ١١٤ وسلّم عليهما في قوله : « سلام على موسى وهارون » الصافات : ١٢٠ .

وأثنى على موسى عليه السلام بأجمل الثناء في قوله: « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجياً » مريم : ٥٢ ، وقال : « وكان عند الله وجيهاً » الأحزاب : ٦٩ ، وقال : « وكلّم الله موسى تكليماً » النساء : ١٦٤ .

وذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعـام الآية ٨٤ — ٨٨ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين وأنـــه فضّلهم على العالمين واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم . وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم .

فاجتمع بذلك له عليه السلام معنى الإخلاص والتقريب والوجاهة والإحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والإنعام وقد مرّ البحث عن معاني هـــذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب وكذا البحث عن معنى النبوة والرسالة والتكليم .

وذكر الكتاب النازل عليه وهو التوراة فوصفها بأنها إمام ورحمـــة (سورة الأحقاف : ١٢) وبأنها فرقان وضياء وذكر (الأنبياء : ٤٨) وبأن فيها هدى ونور (المائدة : ٤٤) وقال : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء » الأعراف : ١٤٥ .

غير أنه تعـالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرّفوها واختلفوا فيها . وقصة بختنصّر وفتحه فلسطين ثانياً وهدمه الهيكل وإحراقه التوراة وحشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة وثمان وثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة وثمان وثلاثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانياً وكتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ وقد تقدمت الإشارة اليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح عليه السلام .

٢ — قصص موسى عليه السلام في القرآن : هو عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في

القرآن الكريم فقــد ذكر اسمه – على ما عدُّوه – في مائة وستة وستين موضعاً من كلامه تعالى،وأشير إلى قصته إجمالا أو تفصيلاً في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات ، وقــد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته البــاهرة كصيرورة عصاه ثعبــاناً ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، وفلق البحر ، وإنزال المنّ والسلوى، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، وإحياء الموتى ، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك .

وقد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه عليه السلام من دون استيفائها في كل مــا دقّ وجلّ بل بالاقتصار على فصول منها يهمُّ ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على مــا هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء وأممهم .

وهــذه الفصول التي فيها كليات قصصه هي : أنه تولـّد بمصر في بيت إسرائيلي حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون وجعلت أمه إياه في تابوت وألقته في البحر وأخذ فرعون إياه ثم ردّه إلى أمه للإرضاع والتربيــة ونشأ في بيت فرعون .

ثم بلغ أشدّه وقتل القبطي وهرب من مصر إلى مدين خوفاً من فرعون وملـئه أن يقتلوه قصاصاً .

ثم مكث في مدين عند شعيب النبي عليه السلام وتزوّج إحدى بنتيه .

ثم لما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً وقــد ضلّوا الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم وذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلمــا أتاها ناداه الله من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلـّمه واجتباه وآتاه معجزة العصا واليد البيضاء في تسع آيات واختاره للرسالة إلى فرعون وملئه وإنجاء بني إسرائيل وأمره بالذهاب اليه .

فأتى فرعون ودعاه إلى كلمة الحق وأن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم وأراه آية العصا واليد البيضاء فأبى وعارضه بسحر السحرة وقد جاؤا بسحر عظيم من ثعابين وحيات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فالقي السحرة ساجدين قالوا آمنّا برب العالمين رب موسى وهارون وأصرّ فرعون على جحوده وهدّد السحرة ولم يؤمن.

فلم يزل موسى عليه السلام يدعوه وملأه ويريهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات وهم يصرُّون على استكبارهم ، وكلما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون .

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلاً فساروا حتى بلغوا ساحل البحر فعقّبهم فرعون بجنوده فلما تراءى الفريقان قال أصحاب موسى أنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فامر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر وأتبعهم فرعون وجنوده حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم .

ولما أنجاهم الله من فرعون وجنوده وأخرجهم إلى البر ولا ماء فيه ولا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المنّ والسلوى وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم فشربوا منها وأكلوا منها وظلّلهم الغمام .

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختار قومه سبعين رجلاً ليسمعوا تكليمه تعالى إياه فسمعوا ثم قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى، ولما تمّ الميقات أنزل الله عليه التوراة وأخبره أن السامري قد أضلّ قومه بعده فعبدوا العجل .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً فأحرق العجل ونسفه في اليم وطرد السامري وقال له : اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وأما القوم فامروا أن يتوبوا ويقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم .

ثم إنهم ملّوا المن والسلوى وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فامروا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فحرمها الله عليهم وابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة .

ومن قصص موسى عليه السلام ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع فتاه الى

مجمع البحرين للقاء العبد الصالح وصحبته حتى فارقه .

٣ – منزلة هارون عليه السلام عند الله وموقفه العبودي : أشركه الله تعالى مع موسى عليهما السلام في سورة الصافات في المن وإيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم وفي التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده المؤمنين (الصافات : ١١٤ – ١٢٢) وعده مرسلاً (طه : ٤٧) ونبياً (مريم : ٥٣) وأنه ممن أنعم عليهم (مريم : ٥٨) وأشركه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان والصلاح والفضل والاجتباء والهداية (الأنعام : ٨٤ – ٨٨) .

وفي دعاء موسى ليلة الطور : « واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً » طه : ٣٥ .

وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده .

ولم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات وقال لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً وقد عبدوا العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

٤ – قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة : قصصه عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهي : سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته وما أوحي اليه من الشرائع والأحكام .

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة .

ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين

قبل أن يسير بأهله وذلك حين كان يرعى غنم يثرون (١) حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فناداه الله وكلمه بما كلمه وأرسله إلى فرعون لانجاء بني اسرائيل (٢) .

ومنها ما ذكرت أن فرعون الذي أرسل اليه موسى غير فرعون الذي أخذ موسى وربّاه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطي خوفاً من القصاص (٣) .

ومنها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتى الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى عليه السلام معجزة (٤) .

ومنها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسى عليهما السلام وذلك أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا (موسى) الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ؟ فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الشعب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها .

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل فصبغه عجلاً مسبوكاً فقالوا أهذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر (٥) .

وفي الآيات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه عليه السلام غير خفية على المتدبر فيها .

وهناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصة قتل القبطي أن

---

(١) تسمى التوراة أبا زوجة موسى يثرون كاهن مديان .
(٢) الاصحاح الثالثة من سفر الخروج .
(٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثاني . الآية ٢٣ .
(٤) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج .
(٥) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

المتضاربين ثانياً كانا جميعاً إسرائيليين [١]

وأيضاً وقع فيها أن الذي ألقى العصا فتلقفت حيات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى [٢] .

وأيضاً لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلاً للميقات ونزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده .

وأيضاً فيها أن الألواح التي كانت مع موسى لما نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما لوحا الشهادة [٣] . إلى غير ذلك من الاختلافات .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ـ ٤٣ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ـ ٤٤ . وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ـ ٤٥ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ـ ٤٦ . وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً

---

(١) الاصحاح الثاني من سفر الخروج .

(٢) الاصحاح السابع من سفر الخروج .

(٣) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ـــ ٤٧ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ
عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ـــ ٤٨ .
قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ـــ ٤٩ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ـــ ٥٠ . وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ـــ ٥١ .
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ـــ ٥٢ . وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ـــ ٥٣ .
أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ـــ ٥٤ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا
لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ـــ ٥٥ .
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ـــ ٥٦ .

(بيان)

سياق الآيات يشهد أن المشركين من قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره صلى الله عليه وآله وسلم وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو

مصدق للتوراة فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة وأنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » .

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا : إن القرآن والتوراة سحر مثله «سحران تظاهرا» « وإنا بكل كافرون» فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .

هذا ما يلوح اليه الآيات الكريمة بسياقها ، وهو سبحانه لما ساق قصة موسى عليه السلام وأنبأ أنه كيف أظهر قوماً مستضعفين معبدين معذبين يذبح أبناؤهم وتستحيي نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم ربّاه في حجر عدوه الذي يذبح بأمره الالوف من أبنائهم ثم أخرجه لما نشأ من بينهم ثم بعثه وردّه اليهم وأظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين وأنجا شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين .

عطف القول على الكتاب السماوي الذي هو المتضمن للدعوة وبه تتم الحجة وهو الحامل للتذكرة فذكر أنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام فية بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الاولى بمعاصيهم .

وكذا أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن وقص عليه قصص موسى عليه السلام ولم يكن هو شاهداً لنزول التوراة عليه ولا حاضراً في الطور لما ناداه وكلمه ، وقص عليه ما جرى بين موسى وشعيب عليهما السلام ولم يكن هو ثاوياً في مـــدين يتلو عليهم آياته ولكن أنزله وقص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قوماً ما أتاهم من نذير من قبله لأنهم بسبب كفرهم وفسوقهم في معرض نزول العذاب وإصابة المصيبة فلو لم ينزل الكتاب ولم يبلغ الدعوة لقالوا : ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك وكانت الحجة لهم على الله سبحانه .

فلما جاءهم الحق من عنده ببعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن قالوا : لولا أوتي مثل مـا أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدقوه فقال المشركون : سحران تظاهرا يعنون التوراة والقرآن ، وقالوا إنّا بكل كافرون .

ثم لقن سبحانه نبيه ﷺ الحجة عليهم بقوله : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » أي إن من الواجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحق وتتم به الحجة على الناس وهم يعرفون فإن لم تكن التوراة والقرآن كتابي هدى وكافيين لهداية الناس فهناك كتاب هو أهدى منهما وليس كذلك إذ مـــا في الكتابين من المعارف الحقة مؤيدة بالإعجاز وبدلالة البراهين العقلية . على أنه ليس هناك كتاب سماوي هو أهدى منهما فالكتابان كتابا هدى والقوم في الإعراض عنهما متبعون للهوى ضالون عن الصراط المستقيم وهو قوله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » الخ .

ثم مدح سبحانه قوماً من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبي ﷺ والقرآن فأظهروا لهم الإيمان والتصديق وأعرضوا عن لغو القول الذي جبهوهم به .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس » الخ ، اللام للقسَم أي اقسم لقـــد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بوحيه اليه .

وقوله : « من بعـد ما أهلكنا القرون الاولى » أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح ومن بعدهم من الامم الهالكة ولعل منهم قوم فرعون ، وفي هـــذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهي بمضيّ الماضين وليشار في الكتاب الإلهي إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون ويتذكر به المتذكرون .

وقوله : « بصائر للناس » جمع بصيرة بمعنى ما يبصر به وكأن المراد بها الحجج البيّنة التي يبصّر بها الحق ويميّز بها بينه وبين الباطل ، وهي حال من الكتاب وقيل : مفعول له .

وقوله : « وهدى » بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله : « ورحمة » بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر ، وقيل : كل منهما مفعول له .

والمعنى : وأقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعـد ما أهلكنا

الأجيال الاولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة والإنذار حال كون الكتاب حججاً بيّنة يبصر بها الناس المعارف الحقة وهدى يهتدون به اليها ورحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه وأحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » الخطاب للنبي ﷺ ، والغربي صفة محذوفة الموصوف والمراد جانب الوادي الغربي أو جانب الجبل الغربي .

وقوله : « إذ قضينا إلى موسى الأمر » كأن القضاء مضمّن معنى العهد ، والمراد بعهد الأمر اليه – على ما قيل – إحكام أمر نبوّته بإنزال التوراة اليه وأما العهد اليه بأصل الرسالة فيدلّ عليه قوله بعد : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وقوله : « وما كنت من الشاهدين » تأكيد لسابقه .

والمعنى : وما كنت حاضراً وشاهداً حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب الغربي من الوادي أو الجبل .

قوله تعالى : « ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر » تطاول العمر تمادي الأمد والجملة استدراك عن النفي في قوله : « وما كنت بجانب الغربي » ، والمعنى : ما كنت حاضراً هناك شاهداً لما جرى فيه ولكنا أوجدنا أجيالاً بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته وخبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه .

قوله تعالى : « وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » الثاوي المقيم يقال : ثوى في المكان إذا أقام فيه ، والضمير في « عليهم » لمشركي مكة الذين كان النبي ﷺ يتلو عليهم آيات الله التي تقصّ ما جرى على موسى عليه السلام في مدين زمن كونه فيه .

وقوله : « ولكنا كنا مرسلين » استدراك من النفي في صدر الآية .

والمعنى : وما كنت مقيماً في أهل مدين – وهم شعيب وقومه – مشاهداً لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبره هناك ولكنا كنا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم .

قوله تعالى : «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك» إلى آخر الآية، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق: « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا » الخ ، أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آنس فيها من جانب الطور ناراً .

وقوله : « ولكن رحمة من ربك » الخ ، استدراك عن النفي السابق ، والظاهر أن « رحمة » مفعول له ، والالتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « من ربك » للدلالة على كمال عنايته تعالى به ﷺ .

وقوله : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم ومن يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام .

والمعنى : وما كنت حاضراً في جانب الطور إذ نادينا موسى وكلّمناه واخترناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد ولكن لرحمة منا أخبرناك بها لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون .

قوله تعالى : « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم فيقولوا ربنا » الخ ، المراد بما قدّمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية ، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة ، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ وغيره .

وقوله : «فيقولوا ربنا لولا أرسلت» متفرع على ما تقدمه على تقدير عدم إرسال الرسول وجواب لولا محذوف لظهوره والتقدير : لما أرسلنا رسولاً .

ومحصّل المعنى : أنه لولا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدّمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا اليهم رسولاً لكنهم يقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين .

قوله تعالى : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى »

الخ ، أي فأرسلنا اليهم الرسول بالحق وأنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا والظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول وهو القرآن النازل على النبي ﷺ .

والمراد بقولهم : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » أي لولا أوتي النبي ﷺ مثل التوراة التي أوتيها موسى عليه السلام ، وكأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » الفرقان : ٣٢ .

وقد أجاب الله عن قولهم بقوله : « أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » يعنون القرآن والتوراة « وقالوا إنا بكل كافرون » . والفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين والثاني كفر بأصل النبوة ولعله الوجه لتكرار «قالوا» في الكلام .

قوله تعالى : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين » تفريع على كون القرآن والتوراة سحرين تظاهرا ، ولا يصح هذا التفريع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم ويجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما ، وهو كذلك على ما تبين بقوله: « ولولا أن تصيبهم مصيبة » الخ ، أن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب ويرسل اليهم الرسول ، ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتّبعه .

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلّين لا هدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتون به أهدى منهما - لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضّل والمفضل عليه في أصل الوصف - لكن المقام لما كان مقام المحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما .

والقرآن الكريم وإن كان يصرّح بتسرّب التحريف والخلل في التوراة الحاضرة وذلك لا يلائم عدّها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى عليه السلام وهي التي يصدقها القرآن .

على أن موضوع الكلام هما معاً والقرآن يقوّم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معاً هدى لا كتاب أهدى منهما .

وقوله : « إن كنتم صادقين » أي في دعوى أنهما سحران تظاهرا .

قوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتّبعون أهواءهم » إلى آخر الآية ، الاستجابة والإجابة بمعنى واحد ، قال في الكشاف : هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ، ويحذف الدعاء إذا عدّي إلى الداعي في الغالب فيقال : استجاب الله دعاءه أو استجاب له ، ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه . انتهى ،

فقوله : «فإن لم يستجيبوا لك» تفريع على قوله : « قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتّبعه » أي فإن قلت لهم كذا وكلّفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة وتعيّن أن لا هدى أتمّ وأكمل من هداهما وهم مع ذلك يرمونها بالسحر ويعرضون عنهما فاعلم انهم ليسوا في طلب الحق ولا بصدد اتباع ما هو صريح حجّة العقل وإنما يتبعون أهواءهم ويدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل : « سحران تظاهرا » ، « إنا بكل كافرون » .

ويمكن أن يكون المراد بقوله : « إنما يتبعون أهواءهم » انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وهم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء ولا يعتقدون بأصل النبوّة وأن لله ديناً سماوياً نازلاً عليهم من طريق الوحي وعليهم ان يتبعوه ويسلكوا مسلك الحياة بهدى ربهم ، وربما أيد هذا المعنى قوله بعد : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » الخ .

وقوله : « ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » استفهام إنكاري والمراد به استنتاج انهم ضالون ، وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق وانحراف عن صراط الرشد وذلك ظلم والله لا يهدي القوم الظالمين وغير المهتدي هو الضال .

ومحصّل الحجة انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى ، ومتبع الهوى ظالم والظالم غير مهتد وغير المهتدي ضال فهم ضالون .

قوله تعالى : « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » التوصيل تفعيل من

الوصل يفيد التكثير كالقطع والتقطيع والقتل والتقتيل ، والضمير لمشركي مكة والمعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولاً بعضه ببعض : الآية بعد الآية ، والسورة إثر السورة من وعد ووعيد ومعارف وأحكام وقصص وعبر وحكم ومواعظ لعلهم يتذكرون .

قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » الضميران للقرآن وقيل : للنبي ﷺ . والأول أوفق للسياق ، وفي الآية وما بعدها مدح طائفة من مؤمني أهل الكتاب بعد ما تقدم في الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة .

وسياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبؤ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم .

قوله تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا » الخ ، ضمائر الإفراد للقرآن ، واللام في « الحق » للعهد والمعنى وإذا يقرأ القرآن عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق الذي نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل .

وقوله : « إنا كنا من قبله مسلمين » تعليل لكونه حقاً معهوداً عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو اليه ويسميه إسلاماً .

وقيل : الضميران للنبي ﷺ وما تقدم أوفق للسياق ، وكيف كان فهم يعنون بذلك ما قرؤه في كتبهم من أوصاف النبي ﷺ والكتاب النازل عليه كما يشير اليه قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » الأعراف : ١٥٧ ، وقوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ .

قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة » الخ في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا ومدح لهم على حسن سلوكهم ومداراتهم مع جهلة المشركين ولذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم وأجر الإيمان بالقرآن وصبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيها من كلفة مخالفة الهوى .

وقيل : المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفار وتحمل المشاق وقد عرفت ما يؤيده السياق .

وقوله : « ويدرؤن بالحسنة السيئة » الخ الدرء الدفع ، والمراد بالحسنة والسيئة قيل : الكلام الحسن والكلام القبيح ، وقيل : العمل الحسن والسيء وهما المعروف والمنكر ، وقيل : الخلق الحسن والسيىء وهما الحلم والجهل ، وسياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » الخ ، المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع ، والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سبّ وكل ما فيه خشونة ، ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهو متاركة ، وقوله : « سلام عليكم » أي أمان منا لكم ، وهو أيضاً متاركة وتوديع تكرّماً كما قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

وقوله : « لا نبتغي الجاهلين » أي لا نطلبهم بمعاشرة ومجالسة ، وفيه تأكيد لما تقدمه ، وهو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيىء بالسيىء .

قوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب ومرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب ومعلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد ، وليس المراد بها إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه ، والمراد بالاهتداء قبول الهداية .

لما بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين وهم قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من نعمة الهداية وضلالهم باتباع الهوى واستكبارهم عن الحق النازل عليهم وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية إلى الله لا اليك يهدي هؤلاء وهم من غير قومك الذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداءهم وهو أعلم بالمهتدين .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي

سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة . ألم ترَ إلى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى » ؟

أقول : وفي دلالة الآية على الإهلاك بخصوص العذاب السماوي ثم انقطاعه بنزول التوراة خفاء .

وفيه في قوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » الآية ، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لما قرّب الله موسى إلى طور سيناء نجياً قال : أي رب هل أحد أكرم عليك مني ؟ قرّبتني نجياً وكلّمتني تكليماً . قال : نعم ، محمد أكرم عليّ منك . قال : فإن كان محمد أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل؟ فلقت لهم البحر وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المنّ والسلوى. قال : نعم ، أمة محمد أكرم عليّ من بني إسرائيل . قال : إلهي أرنيهم . قال : إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم . قال : نعم إلهي .

فنادى ربنا أمة محمد : أجيبوا ربكم ، فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام امهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبّيك أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً . قال : صدقتم وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً قد غفرت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة .

قال ابن عباس : فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله أراد أن يمنّ عليه بما أعطاه وبما أعطى امته فقال : يا محمد « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » .

أقول : ورواه فيه أيضاً بطرق اخرى عن غيره ، وروى هـذا المعنى أيضاً الصدوق في العيون عن الرضا عليه السلام لكن حمل الآية على هـذا المعنى يوجب اختلال السياق وفساد ارتباط الجمل المتقدمة والمتأخرة بعضها ببعض .

وفي البصائر بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل : « ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هـدى من الله » يعني من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى .

أقول : وروى مثله بإسناده عن المعلّى عن أبي عبد الله عليه السلام وهو من الجري أو من البطن .

وفي المجمع في قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب » الآيات ، نزل قوله : «الذين آتيناهم الكتاب» وما بعده في عبدالله بن سلام وتميم الداري والجارود والعبدي وسلمان الفارسي فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات . عن قتادة .

وقيل : نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه إثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا وأبرهة والأشرف وأيمن وإدريس ونافع وتميم .

أقول : وروي غير ذلك .

وفيه في معنى قوله تعالى : « ويدرؤن بالحسنة السيئة » وقيل : يدفعون بالحلم جهل الجاهل . عن يحيى بن سلام ، ومعناه يدفعون بالمداراة مع الناس أذاهم عن أنفسهم ، وروي مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا عماه قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن يعيرني قريش يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليك فأنزل الله عليه : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

أقول : وروى ما في معناه عن ابن عمر وابن المسيّب وغيرهما ، وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضة على إيمانه والمنقول من اشعار مشحون بالإقرار على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحقّيّة دينه ، وهو الذي آوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صغيراً وحماه بعد البعثة وقبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة .

* * *

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ

لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ــ ٥٧ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ
ٱلْوَارِثِينَ ــ ٥٨ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا
رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا
ظَالِمُونَ ــ ٥٩ . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ــ ٦٠ . أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً
حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ــ ٦١ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ــ ٦٢ . قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلاَءِ ٱلَّذِينَ
أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ــ ٦٣.
وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ
أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ــ ٦٤ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ
ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ٦٥ . فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ــ ٦٦.
فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ــ ٦٧.
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ــ ٦٨ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ــ ٦٩.

وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ـ ٧٠ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ـ ٧١ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ـ ٧٢ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ـ ٧٣ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ـ ٧٤ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ـ ٧٥ .

(بيان)

تذكر الآيات عذراً آخر مما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرهم السابق : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » وردّته وهو قولهم : إن آمنا بما جاء به كتابك من الهدى وهو دين التوحيد تخطّفنا مشركو العرب من أرضنا بالقتل والسبي والنهب وسلب الأمن والسلام .

فرده تعالى بأنا جعلنا لهم حرماً آمناً يحترمه العرب ويجبى اليه ثمرات كل شيء فلا موجب لخوفهم من تخطّفهم .

على أن تنعّمهم بالأموال والأولاد وبطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجّحوه على اتباع الهدى فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله واستأصلها وورثها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا .

على أن الذي يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحيـــاة الدنيا العاجلة ولا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة التي عند الله سبحانه .

على أن الخلق والأمر لله فإذا اختار شيئاً وأمر به فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهيه لنفسه فيختار ما يميل اليه طبعه ثم استشهد تعالى بقصة قارون وخسفه بـــه وبداره الأرض .

قوله تعالى : « وقالوا إن نتّبـع الهدى معك نتخطـّف من أرضنا » إلى آخر الآية . التخطف الاختلاس بسرعة ، وقيل الخطف والتخطف الاستلاب من كل وجه ، وكأن تخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل والسبي ونهب الأموال كأنهم وما يتعلق بهم من أهل ومال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم ، والمراد بالأرض أرض مكة والحرم بدليل قوله بعد : « أو لم نمكـّن لهم حرماً آمناً » والقائل بعض مشركي مكة.

والجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطـّفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقية أصل الدعوة وأن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله والإيمان به ، ولهذا عبّر بقوله : « إن نتّبـع الهدى معك » ولم يقل : إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك .

وقوله : « أو لم نمكـّن لهم حرماً آمناً » قيل : التمكين مضمّن معنى الجعل والمعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكـّنين إياهم ، وقيل : حرماً منصوباً على الظرفية والمعنى : أو لم نمكـّن لهم في حرم ، و « آمناً » صفة « حرماً » أي حرماً ذا أمن ، وعدُّ الحرم ذا أمن – والمتلبّس بالأمن أهله – من المجاز في النسبة ، والجملة معطوفة على محذوف والتقدير أو لم نعصمهم ونجعل لهم حرماً آمناً ممكـّنين إياهم .

وهذا جواب أول منه تعالى لقولهم : « إن نتّبـع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومحصّله : أنا مكـّناهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها إن آمنوا .

وقوله : « يجبى اليه ثمرات كل شيء » الجباية الجمع ، والكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعاً ، والمعنى : يجمع الى الحرم ثمرات كثير من الأشياء ، والجملة

صفة لحرماً جيىء بها لما عسى أن يتوهم انهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة .

وقوله : « رزقاً من لدنـّا » مفعول مطلق أو حال من ثمرات ، وقوله :« ولكن أكثرهم لا يعلمون » استدراك عن جميع ما تقدم أي إنا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام .

قوله تعالى : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » إلى آخر الآية البطر الطغيان عند النعمة ، و « معيشتها » منصوب بنزع الخافض أي وكم أهلكنا من قرية طغت في معيشتها .

وقوله : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » أي إن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر ولم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها .

وبذلك يظهر أن الأنسب كون « إلا قليلا » استثناء من « مساكنهم » لا من قوله: « من بعدهم » بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زماناً قليلا إذ لا يسكنها إلا المارّة يوماً أو بعض يوم في الأسفار .

وقوله : « وكنا نحن الوارثين » حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم ، وفي الجملة أعني قوله : « كنا نحن الوارثين » عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكاً حقيقياً مطلقاً فهو المالك لمساكنهم وقد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثاً لهم بعناية أنه الباقي بعدهم وهو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتباري انتقل اليه ولا انتقال هناك بالحقيقة وإنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري .

والآية جواب ثان منه تعالى لقولهم: « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومحصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء ولا يحفظ لكم أرضكم والتنعم فيها كما تشاؤن فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشر وبطر أهلكنا أهلها وبقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله .

قوله تعالى : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً » أم القرى هي أصلها وكبيرتها التي ترجع اليها وفي الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال وهو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله ، وإلا بعد كون المعذبين ظالمين بالكفر بآيات الله وتكذيب رسوله .

وفي تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنته تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء الى أنهم لو أصروا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم وهي مكة رسولاً يتلو عليهم آياته وهم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسولهم .

وبذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلم بالغير الى الغيبة في قوله :« وما كان ربك مهلك القرى » فإن في الإيماء الى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذبوا النبي ﷺ تقوية لنفسه وتأكيداً لحجته ، وأما العدول بعده إلى سياق التكلم بالغير في قوله: « وما كنا مهلكي القرى » فهو رجوع الى السياق السابق بعد قضاء الوطر .

قوله تعالى : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخ الإيتاء : الإعطاء و « من شيء » بيان لما لافادة العموم أي كل شيء أوتيتموه ، والمتاع ما يتمتع به والزينة ما ينضم الى الشيء ليفيده جمالاً وحسناً ، والحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحياتين منا وتقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة ، والمراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله وجواره ولذا عدّ خيراً وأبقى .

والمعنى : أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع وزينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحياتين منكم وهي بائدة فانية وما عند الله من ثوابه في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى والإيمان بآيات الله خير وأبقى فينبغي ان تؤثروه على متاع الدنيا وزينتها أفلا تعقلون .

والآية جواب ثالث عن قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا وزينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع

الهدى وسعادة الحياة الآخرة وهي خير وأبقى .

قوله تعالى : « أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » الآية إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة – وهو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه والتمتع بمتاع الحياة الدنيا – ببيان آخر فيه مقايسة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله ، من حال من لم يتبعه واقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة الإحضار وتبري آلهته منه وعـــدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب والسؤال عن إجابتهم الرسل .

فقوله :« أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه » الاستفهام إنكاري ، والوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » المائدة : ٩ ، ولا يكذب وعده تعالى قال : « ألا إن وعد الله حق » يونس : ٥٥ .

وقوله :« كمن متعناه متاع الحياة الدنيا » اي وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها ، والدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد والتمتيع .

وقوله : « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » اي للعذاب ، او للسؤال والمؤاخذة و« ثمّ » للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله : « فهو لاقيه » للدلالة على التحقق .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا وكونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شؤونه تعالى كالعبادة والتدبير ، وفي قوله : « يناديهم » إشارة الى بعدهم وخذلانهم يومئذ .

قوله تعالى : « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا » آلهتهم الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد لله مكرمون كالملائكة المقربين وعيسى بن مريم عليه السلام ، وصنف منهم كعتاة الجن ومدعي الالوهية من الإنس كفرعون ونمرود وغيرهمـــا وقد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع في باطل

كإبليس وقرناء الشياطين وأئمة الضلال كما قال: «ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان – الى أن قال – ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً » يس : ٦٢ ، وقال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الجاثية : ٢٣ ، وقال : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » التوبة : ٣١ .

والذين يشير اليهم قوله : « قال الذين حق عليهم القول » هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم وتبريهم من عبادتهم وهؤلاء المشركون وإن كانوا أنفسهم أيضاً ممن حق عليهم القول كما يشير اليه قوله: « حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » الم السجدة : ١٣ ، ولكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهي اليهم الشرك والضلال .

وإيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسؤولين أشاروا اليهم لعله للإشارة الى انهم ضلوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى : « ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة :٤٨ .

وقوله : « ربنا هؤلاء الذين أغوينا » اي هؤلاء – يشيرون الى المشركين – هم الذين أغويناهم والجملة توطئة للجملة التالية .

وقوله : « أغويناهم كما غوينا » اي كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير الجاء، والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن ابليس يومئذ اذ قال: « وما كان لي عليكم من سلطان. إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ ، وقال حاكياً لتساؤل الظالمين وقرنائهم : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين » الصافات:٣٢ ، أي ما كان ليصل اليكم منا ونحن غاون غير الغواية .

ومن هنا يظهر أن لقولهم : « أغويناهم كما غوينا » معنى آخر ، وهو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذي كان فينا غير أنـّا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلجاء .

وقوله : « تبرّأنا اليك » تبرّ منهم مطلقاً حيث لم يكن لهم أن يلجؤهم ويسلبوا منهم الاختيار ، وقوله : « ما كانوا إيانا يعبدون » أي بإلجاء منا ، أو لتبرّينا من أعمالهم فإن من تبرّء من عمل لم ينتسب اليه وإلى هذا المعنى يؤل قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا الموقف: « وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » الأنعام: ٢٤ « وضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة : ٤٨ « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون » يونس : ٢٨ ، إلى غير ذلك من الآيات فافهم .

وقيل : المعنى تبرّأنا اليك من أعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين . ولا يخلو من سخافة .

ولكون كل من قوليه : «تبرّأنا اليك» « ما كانوا إيانا يعبدون » في معنى قوله: « أغويناهم كما غوينا » جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : « وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون » المراد بشركائهم الآلهة التي كانوا شركاء لله بزعمهم ولذا أضافهم اليهم . والمراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم ويدفعوا عنهم العذاب ولذا قال : « ورأوا العذاب » بعد قوله : « فلم يستجيبوا لهم » .

وقوله : « لو أنهم كانوا يهتدون » قيل : جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق ، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » معطوف على قوله السابق : « ويوم يناديهم » الخ ، سئلوا أولاً : عن شركائهم وأمروا أن يستنصروهم ، وثانياً : عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند الله .

والمعنى : ماذا قلتم في جواب من أرسل اليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ؟.

قوله تعالى : « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » العمى استعارة عن

جعل الإنسان بحيث لا يهتدي إلى خبر ، وكان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل : « فعميت عليهم الأنباء » للدلالة على أخذهم من كل جانب وسدّ جميع الطرق وتقطّع الأسباب بهم كما قال : «وتقطعت بهم الأسباب» البقرة : ١٦٦ ، فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدي اليهم الأخبار ولا يجدون شيئاً يعتذرون به للتخلص من العذاب .

وقوله : « فهم لا يتساءلون » تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرّع بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضاً ليعدّوا به عذراً يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل وردّهم الدعوة .

وقد فسّر صدر الآية وذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى في التعرض لها فرأينا الصفح عنها أولى .

قوله تعالى : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » أي هذه حال من كفر ولم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع وآمن وعمل صالحاً فمن المرجو أن يكون من المفلحين ، وعسى – كما قيل – للتحقيق على عادة الكرام او للترجّي من قبل التائب ، والمعنى : فليتوقع الفلاح .

قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » الخيرة بمعنى التخيّر كالطيرة بمعنى التطيّر .

والآية جواب رابع عن قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » والذي يتضمنه حجة قاطعة .

بيان ذلك : أن الخلق وهو الصنع والإيجاد ينتهي اليه تعالى كما قال : «الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشيء المفروض إما مخلوق له منته في وجوده اليه فوجوده وآثار وجوده ينتهي اليه تعالى ولا معنى لتأثير الشيء ولا لتأثير أثره في نفسه وإما غير مخلوق له ولا منته في وجوده اليه يؤثر فيه بالإلجاء والقهر ولا مؤثر في الوجود غيره ولا أن هناك شيئاً لا ينتهي في وجوده اليه تعالى فلا يعطيه شيء أثراً ولا يمنعه شيء من أثر كما قال: « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وقال: والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ .

وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبعه فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها وترك أمور هي المحرمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب اليه وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه .

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء ، وهذا معنى قوله : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » وقد أطلق إطلاقاً .

والظاهر أن قوله : « يخلق ما يشاء » إشارة الى اختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عما يشاؤه وبعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه ، وقوله : « ويختار » إشارة الى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله : « يخلق ما يشاء » من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعاً على التكوين والحقيقة .

ويمكن حمل قوله : « يخلق ما يشاء » على الاختيار التكويني وقوله : « ويختار » على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه ، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي : « ما كان لهم الخيرة » هو الاختيار التشريعي الاعتباري ، والاختيار المثبت في قوله «ويختار» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري.

ثم لا ريب في أن الإنسان له اختيار تكويني بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والارادة وإن لم يكن اختياراً مطلقاً فإن للأسباب والعلل الخارجية دخلاً في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلاً متوقف على تحقق مادة الطعام خارجاً وقابليته وملائمته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ والقبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك مما لا يحصى . فصدور الفعل الاختياري عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الداخلية في تحقق فعله ، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعاً واليه ينتهي الكل وهو الذي خلق الإنسان منعوتاً بنعت الاختيار وأعطاه خيرته كما أعطاه خلقه .

ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختياراً تشريعياً اعتبارياً فيما يشاؤه من فعل أو ترك بحذاء اختياره التكويني فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمله على شيء أو يمنعه عن شيء لكونهم أمثالاً له لا يزيدون عليه بشيء في معنى الإنسانية ولا يملكون منه شيئاً ، وهذا هو المراد بكون الإنسان حراً بالطبع .

فالإنسان مختار في نفسه حر بالطبع إلا أن يملك غيره من نفسه شيئاً فيسلب بنفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعي يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعه بدخوله في المجتمع وإمضائه ما يجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية ، وكما أن المتقاتلين يملك كل منهما الآخر من نفسه ما يغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء ، وكما أن الأجير إذا ابتاع عمله وآجر نفسه فليس بحر في عمله إذ المملوكية لا تجامع الحرية .

فالإنسان بالنسبة الى سائر بني نوعه حر في عمله مختار في فعله إلا أن يسلب باختيار منه شيئاً من اختياره فيملك غيره ، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر منه ملكاً مطلقاً بالملك التكويني وبالملك الوضعي الاعتباري فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريده منه تشريعاً بأمر أو نهي تشريعيين كما لا خيرة ولا حرية له بالنسبة إلى ما يشاؤه بمشيته التكوينية .

وهــذا هو المراد بقوله : « ما كان لهم الخيرة » أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاؤن وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب: ٣٦ ، وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطوّلات .

وقوله: « سبحان الله وتعالى عما يشركون » أي عن شركهم باختيارهم أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله .

وههنا معنى آخر أدق أي تنزه وتعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في

الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الالوهية .

وفي قوله : « وربك يخلق » التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكتة فيه تأييد النبي ﷺ وتقويته وتطييب نفسه بإضافة صفة الرب اليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله ورده ، ولأنهم لا يقبلون ربوبيته .

وفي قوله : «سبحان الله» وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتنزه والتعالي عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه .

قوله تعالى : « وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون » الإكنان الإخفاء والإعلان الإظهار ، ولكون الصدر يعدُّ مخزناً للأسرار نسب الإكنان إلى الصدور والإعلان اليهم أنفسهم .

ولعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما في ظاهرهم وباطنهم منأوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى : « وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع إلى « ربك » في الآية السابقة ، والظاهر على هذا أن اللام في اسم الجلالة للتلميح إلى معنى الوصف ، وقوله : « لا إله إلا هو» تأكيد للحصر المستفاد من قوله: «هو الله» كأنه قيل : وهو الإله – المتصف وحده بالالوهية – لا إله إلا هو .

وعلى ذلك فالآية كالمتمم لبيان الآية السابقة كأنه قيل : هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده ، وهو يعلم ظاهرهم وباطنهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الإله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده .

ويكون ما في ذيل الآية من قوله : « له الحمد » الخ ، وجوهاً ثلاثة توجه كونه تعالى معبوداً مستحقاً للعبادة وحده .

أما قوله : « له الحمد في الاولى والآخرة » فلأن كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء ، وكل جميل من هذه النعم

الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بهـا الثناء فله كل الثنـاء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلا وينتهي اليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده .

وأما قوله : « وله الحكم » فلأنـه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملّكه إياه وهو المالك لما ملّكه وهو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنه مالك في مرحلة التكوين والحقيقة ، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبيده ومملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه .

وأما قوله : « وإليه ترجعون » فلأن الرجوع للحساب والجزاء وإذ كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي وإذ كان هو المحاسب المجازي وحـده فهو الذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبد به وحده .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة » إلى آخر الآية ، السرمد على فعلل بمعنى الدائم ، وقيل : هو من السرد والميم زائدة ومعناه المتتابع المطّرد ، وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة .

وقوله : « مَن إله غير الله يأتيكم بضياء » أي من الإله الذي ينقض حكمه تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش ، هذا ما يشهد به السياق ، ويجري نظيره في قوله الآتي : « من إله يأتيكم بليل » الخ .

وبذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلاً لأن الذي يأتي به إما هو الله تعـالى وإمـا هو غيره أمـا غيره فعجزه عن ذلك ظاهر ، وأما الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل والنهار وهو محال والمحال لا يتعلق به القدرة ولا الإرادة ، وكذا الكلام في جانب النهار .

وربما أجيب عنه بأن المراد بقوله: « إن جعل الله عليكم » إن أراد الله أن يجعل عليكم . وهو كما ترى .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: من إله غير الله يأتيكم بنهار ، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكن العدول الى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل

الإلزام في الحجة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدّعى الخصم أتمّ الظهور كأنه قيل: لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمداً فليقدر أن يأتي بالنهار ، تنزّلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلها لله سبحانه .

ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتى يصح أن يقال مثلاً: من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأن المأتي به إن كان ظلمة مّا لم تكف للسكن وإن كان ظلمة ممتدة كانت هي الليل .

وتنكير « ضياء » يؤيد ما ذكر من الوجه ، وقد أوردوا وجوهاً اخرى في ذلك لا تخلو من تعسف .

وقوله : « أفلا تسمعون » أي سمع تفهّم وتفكّر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه » أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للمعاش .

وقوله : « أفلا تبصرون » أي إبصار تفهّم وتذكّر وإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عميٌ صمّ ، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله: « أفلا تسمعون » « أفلا تبصرون » ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه .

قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » الآية بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوته من غير معارض .

وقوله : « لتسكنوا فيه » اللام للتعليل والضمير لليل ، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه ، وقوله : « لتبتغوا من فضله » أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيّته فرجوع « لتسكنوا » و « لتبتغوا » إلى الليل والنهار بطريق اللف والنشر المرتب ، وقوله : « ولعلكم تشكرون » راجع اليهما جميعاً .

وقوله : « ومن رحمته جعل لكم » في معنى قولنا : جعل لكم وذلك رحمة منه وفيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون والابتغاء والتشريع وهو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » تقدم تفسيره وقد كرّرت الآية لحاجة مضمون الآية التالية اليها .

قوله تعالى : « ونزعنا من كل امة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم » إلى آخر الآية ، إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة ، والمراد بالشهيد شهيد الأعمال – كما تقدمت الإشارة اليه مراراً – ولا ظهور للآية في كونه هو النبي المبعوث إلى الامة نظراً إلى إفراد الشهيد وذكر الامة إذ الامة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصوصية له في الجماعة الذين أرسل اليهم نبي وإن كانت من مصاديقها .

وقوله : « فقلنا هاتوا برهانكم » أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن لله شركاء .

وقوله : «فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون» أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق في الالوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة. كذا فسروه، ففي الكلام تقديم وتأخير والأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله .

وعلى هذا فقوله : « أن الحق لله » نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه : إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدّعون أن الالوهية بمعنى المعبودية حق لشركائهم فيدّعي تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلُّ عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالالوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقاً لغيره تعالى فهو حق له .

وهذا وجه بظاهره وجيه لا بأس به لكن الحقيقة التي يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيامة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهوراً مشهوداً لا ستر عليه فيرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر ويتشبه بالحق ، ولازمه أن يظهر أمر الالوهية ظهوراً لا ستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعاً مترتباً عليه لا أن يفتقد الدليل على الشركاء

فيستنتج منه توحده تعالى بالالوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك .

وبذلك يندفع أولاً ما يرد على الوجه السابق أن المستفاد من كلامه تعالى أنهم لا حجة عقلية لهم على مدّعاهم ولا موجب على هـــذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم القيـامة ، ويرتفع ثانياً حديث التقديم والتأخير المذكور الذي لا نكتة له ظاهراً إلا رعاية السجع .

ومن الممكن أن يكون « الحق » في قوله : « فعلموا أن الحق لله » مصدراً فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ ، فكون الحق لله هو كونه تعالى حقاً إن أريد به الحق في ذاته أو كونه منتهياً إليه قائماً به إن أريد به غيره ، كما قال تعالى : « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ ، ولم يقل : الحق مع ربك .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وقالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » الآية ، قـــال : نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاسلام والهجرة وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا فقال الله عز وجل : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

أقول : وروى هـذا المعنى في كشف المحجة وروضة الواعظين للمفيد ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس .

وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس أن الحارث بن عامر ابن نوفل الذي قال : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختـــار ما كان لهم الخيرة » الآية ، قال : يختار الله عز وجل الإمام وليس لهم أن يختاروا .

أقول : وهو من الجري مبنياً على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى كالنبي ، وقد مرّ تفصيل الكلام فيه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً » يقول : من هذه الامة إمامها .

اقول : وهو من الجري .

* * *

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ــ ٧٦ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ــ ٧٧ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ــ ٧٨ . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ــ ٧٩ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ــ ٨٠ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ــ ٨١ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ــ ٨٢ . تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ــ ٨٣ . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٨٤ .

(بيان)

قصة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين: «إن نتّبع الهدى معك نُتخطف من أرضنا» وأجاب عنه بما مرّ من الأجوبة ليعتبروا بها فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أدّاه الكفر بالله إلى ما أدّى من سوء العاقبة فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه ، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة فظنّ أنه هو الذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره فأمن العذاب الإلهي وآثر الحياة الدنيا على الآخرة وبغى الفساد في الأرض فخسف الله به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » قال في المجمع : البغي طلب العتوّ بغير حق. قال : والمفاتح جمع مفتح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناهما واحد وهو عبارة عما يفتح به الأغلاق . قال : وناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه . انتهى . وقال غيره : ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله وهو الأوفق للآية .

وقال في المجمع أيضاً : العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض . وقال : واختلف في معنى العصبة فقيل : ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد ، وقيل : ما بين عشرة

إلى أربعين عن قتادة ، وقيل : أربعون رجلاً عن أبي صالح[١] ، وقيل : ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض. انتهى. ويزيّف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف: «ونحن عصبة» يوسف : ٨ ، وهم تسعة نفر.

والمعنى: إن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتوّ عليهم بغير حق وأعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتح الخزائن ، وليس بذاك .

قوله تعالى : « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » فسّر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسى الآخرة ويورث البطر والأشر ، ولذا قال تعالى : « ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » الحديد : ٢٣ .

ولذا أيضاً علل النهي بقوله : « إن الله لا يحب الفرحين » .

قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » إلى آخر الآية أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى .

وقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا» أي لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسى واعمل فيه لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذي يبقى له .

وقيل : معناه لا تنس أن نصيبك من الدنيا – وقد أقبلت عليك – شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً والباقي فضل ستتركه لغيرك فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل وهذا وجه جيد . وهناك وجوه أخر غير ملائمة للسياق .

وقوله : « وأحسن كما أحسن الله اليك» أي أنفقه لغيرك إحساناً كما آتاكه الله إحساناً من غير أن تستحقه وتستوجبه ، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » على أول الوجهين السابقين ومتممة له على الوجه الثاني .

---

(١) وروى في الدر المنثور عن أبي صالح سبعين .

وقوله : « ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح .

قوله تعالى : « قال إنما أوتيته على علم عندي » الى آخر الآية . لا شك أن قوله « إنما أوتيته على علم عندي » جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه ونصحوه به وكان كلامهم مبنياً على أن ماله من الثروة إنما آتاه الله إحساناً اليه وفضلاً منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به إلى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر .

فأجاب بنفي كونه إنما أوتيه إحساناً من غير استحقاق ودعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غيره ذلك، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه وله أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء ويستدره في أنواع التنعم وبسط السلطة والعلو والبلوغ الى الآمال والأماني .

وهذه المزعمة التي ابتلى بها قارون فأهلكته – أعني زعمه أن الذي حصل له الكنوز وساق اليه القوة والجمع هو نبوغه العلمي في اكتساب العزة وقدرته النفسانية لا غير – مزعمة عامة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيما ساقه اليه التقدير ووافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة وقوة مستعارة إلا أن نفسه هي الفاعلة له وعلمه هو السائق له اليه وخبرته هي الماسكة له لأجله .

والى عموم هذه المزعمة وركون الانسان اليها بالطبع يشير قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضرّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيآت ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيآت ما كسبوا وما هم بمعجزين أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » الزمر : ٥٢ ، وقال : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا

به يستهزؤن » المؤمن: ٨٣، وعرض الآيات على قصة قارون لا يبقى شكاً في أن المراد بالعلم في كلامه ما قدمناه .

وفي قوله : « إنمـــا أوتيته » من غير إسناد الإيتاء الى الله سبحانه كما في قول الناصحين له : « فيما آتاك الله » نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه .

وقوله : « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً » استفهام توبيخي وجواب عن قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » بأيسر مـا يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتعه منه هو علمه الذي عنده وهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، وكان ما له من القوة والجمع عن علم عنده على زعمه ، وقد أهلكه الله بجرمه ، فلو كان العلم الذي يغتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه ولم يكن بإيتاء الله فضلاً وإحساناً لنجاهم من الهلاك ومتعهم من أموالهم ودافعوا بقوتهم وانتصروا بجمعهم .

وقوله :« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى ما لفقوه من المعاذير أو هيؤه من التذلل والإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أولي الطول والقوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب ، وربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحـــال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنما يقضي عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود .

والظاهر على هذا أن تكون الجملة من تتمة التوبيخ السابق ويكون جواباً عن إسناده ثروته إلى علمه ، ومحصله أن المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه ، بل هو سبحانه عليم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه وإنما يؤاخذه بذنبه ، وأيضاً يؤاخذه بغتة وهو لا يشعر .

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ولهم فيها أقاويل أخرى :

فقيل : المراد بالعلم في قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها .

وقيل : المراد علم الكيمياء وكان قد تعلمه من موسى ويوشع بن نون وكالب بن يوقنا والمراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس وقد صنع به مقداراً كثيراً من الذهب .

وقيل : المراد بالعلم علم استخراج الكنوز والدفائن وقد استخرج به كنوزاً ودفائن كثيرة .

وقيل : المراد بالعلم علم الله تعالى والمعنى : أوتيته على علم من الله وتخصيص منه قصدني به ، ومعنى قوله : « عندي » هو كذلك في ظني ورأيي .

وقيل : العلم علم الله لكنه بمعنى المعلوم ، والمعنى أوتيته على خير علمه الله تعالى عندي ، و « على » على جميع هذه الأقوال للاستعلاء وجوّز أن تكون للتعليل .

وقيل : المراد بالسؤال في قوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » سؤال يوم القيامة والمنفي سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لا حاجة له إلى السؤال والملائكة يعلمونها من صحائف أعمالهم ويعرفونهم بسيماهم وأما قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسؤلون » الصافات : ٢٤ فهو سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استعلام ، ويمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر فلا تناقض بين الآيتين .

وقيل : الضمير في قوله : « عن ذنوبهم » لمن هو أشد والمراد بالمجرمين غيرهم والمعنى : لا يسأل عن ذنوب من أهلكه الله من أهل القرون السابقة غيرهم من المجرمين.

وهذه كلها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون إنه لذو حظ عظيم » الحظ هو النصيب من السعادة والبخت .

وقوله : « يريدون الحياة الدنيا » أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم »

النجم: ٣٠ ولذلك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط.

قوله تعالى: « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » الخ ، الويل الهلاك ويستعمل للدعاء بالهلاك وزجراً عما لا يرتضى ، وهو في المقام زجراً عن التمني .

والقائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون وعدّوه سعادة عظيمة على الإطلاق ، ومرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

وقوله : « وما يلقاها إلا الصابرون » التلقية التفهيم والتلقي التفهم والأخذ ، والضمير - على ما قالوا - للكلمة المفهومة من السياق، والمعنى : وما يفهم هذه الكلمة - وهي قولهم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً - إلا الصابرون .

وقيل : الضمير للسيرة أو الطريقة ومعنى تلقّيها فهمها أو التوفيق للعمل بها .

والصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وعن المعاصي ، ووجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيراً من الحظ الدنيوي - وهو لا ينفك عن الإيمان والعمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء والحرمان عن كثير من المشتهيات - لا يتحقق إلا ممن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمّارة .

قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض » إلى آخر الآية ، الضميران لقارون والجملة متفرعة على بغيه .

وقوله : « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض ، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع ، ومحصّل المعنى : فما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذي يجلب اليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوّته وجمعه اللذان اكتسبها بعلمه فلم يقه جمعه ولم تفده قوته من دون الله وبان أن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه .

فالفاء في قوله : « فما كان » لتفريع الجملة على قوله : « فخسفنا به » الخ ، أي فظهر بخسفنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدّعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء

عن الله سبحانه وأن الذي يجلب اليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبها بنبوغه العلمي .

قوله تعالى: « وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » الخ ، ذكروا أن « وي » كلمة تندّم وربما تستعمل للتعجب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندم أسبق إلى الذهن .

وقوله : « كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدّقونه أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقه بمشية من الله .

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك والتردد لكنهم إنما استعملوا في كلامهم « كأن » للدلالة على ابتداء ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدّقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال .

والدليل على ذلك قولهم بعده · « لولا أن من الله علينا لخسف بنا » على طريق الجزم والتحقيق .

وقوله : « ويكأنه لا يفلح الكافرون » تندم منهم ثانياً وانتزاع مما كان لازم تمنيتهم مكان قارون .

قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » الآية وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة .

وقوله : «تلك الدار الآخرة» الإشارة اليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها وعلو مكانتها وهو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسروها بالجنة .

وقوله : « نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » أي نختصها بهم وإرادة العلو هو الاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلقته ولا تقتضي فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية فكل معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة ، قال تعالى : « ظهر

الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » الروم : ٤١ .

ومن هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنما أُفردت وخصّت بالذكر اعتناء بأمرها ، ومحصّل المعنى : تلك الدار الآخرة السعيدة نخصها بالذين لا يريدون فساداً في الأرض بالعلو على عباد الله ولا بأي معصية اخرى .

والآية عامة يخصصها قوله تعالى: « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » النساء : ٣١ .

وقوله : « والعاقبة للمتقين » أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول .

قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله خير منها » أي لأنها تتضاعف له بفضل من الله ، قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ .

قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » أي لا يزيدون على ما عملوا شيئاً وفيه كمال العدل ، كما أن في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل .

وكان مقتضى الظاهر في قوله : « فلا يجزى الذين عملوا » الخ ، الإضمار ولعل في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية وأحاطت به الخطيئة كما يفيده جمع السيئات، وقوله : « كانوا يعملون » الدال على الإصرار والاستمرار ، وأما من جاء بالسيئة والحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » التوبة : ١٠٢ .

وليعلم أن الملاك في الحسنة والسيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان وبها تسمى الأعمال حسنة أو سيئة وعليها – لا على متن العمل الخارجي الذي هو نوع من الحركة – يثاب الانسان أو يعاقب ، قال تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ .

وبه يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة ولا يعقل خير منه وأفضل ، فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحقة أو مخصصة بالتوحيد .

وذلك أن الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه وإن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار .

على أن التوحيد أياً ما فرض يقبل الشدة والضعف والزيادة والنقيصة وإذا ضوعف عند الجزاء كما تقدم كان مضاعفه خيراً من غيره .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن قارون كان من قوم موسى، قال : كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه‌السلام : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل فترسلها اليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا اليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك . قالت نعم .

فجاء قارون إلى موسى عليه‌السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال : نعم، فجمعهم فقالوا له : بم أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم . قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم . قالوا : فإنك قد زنيت ، قال : أنا ؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه‌السلام : أنشدتك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذا نشدتني فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله .

فخرّ موسى عليه‌السلام ساجداً يبكي فأوحى الله اليه : ما يبكيك ؟ قد سلّطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا

موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى الله: يا موسى سألك عبادي وتضرّعوا اليك فلم تجبهم فوعزّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض » خسف به إلى الأرض السفلى .

أقول : وروى فيه أيضاً عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن نوفل الهاشمي القصة لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملأ من بني إسرائيل على موسى عليه‌السلام بالفجور وتشكوه إلى قارون فجاءت اليه واعترفت عند الملأ بالحق فبلغ ذلك موسى عليه‌السلام فشكاه إلى ربه فسلّطه الله عليه .

وروى القمي في تفسيره في القصة أن موسى عليه‌السلام جاء إلى قارون وبلغه حكم الزكاة فاستهزأ به وأخرجه من داره فشكاه إلى ربه فسلّطه الله عليه فخسف به وبداره الأرض ، والرواية موقوفة مشتملة على امور منكرة ولذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن عباس وابن نوفل أيضاً موقوفتان .

على أن رواية ابن عباس تقصص بغيه على موسى عليه‌السلام والذي تقصه الآيات بغيه على بني إسرائيل ، وتشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصّله بالتعلم وظاهر الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها .

وقد سيقت القصة في التوراة الحاضرة على نحو آخر ففي الإصحاح السادس عشر من سفر العدد : وأخذ قورح بن يصهار بن نهات بن لاوي وداثان وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوّين للاجتماع ذوي اسم . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟

فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلّم قورح وجميع قومه قائلاً : غداً يعلن الرب من هوله ؟ ومن المقدس ؟ حتى يقرّبه اليه فالذي يختاره يقربه اليه . افعلوا هذا: خذوا لكم مجامر قورح وكل جماعته واجعلوا فيها ناراً وضعوا عليها بخوراً أمام الرب غداً فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس . كفاكم يا بني لاوي .

ثم سيقت القصة وذكر فيها حضورهم غداً ومجيئهم بالمجامر وفيها النـار والبخور واجتماعهم على باب خيمة الاجتماع ثم قيل : انشقـّت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال فنزلوا هم وكل مـا كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة ، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم ، لأنهم قالوا : لعلّ الأرض تبتلعنا ، وخرجت نار من عنـد الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلاً الذين قرّبوا البخور . انتهى موضع الحاجة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى » : وهو ابن خالته عن عطاء عن ابن عباس وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ما إن مفاتحه لتنوء » الآية ، قال : كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة اولوا القوة .

وفي المعاني بإسناده عن موسى بن اسماعيل بن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده عن آبائه عن علي عليه السلام في قول الله عز وجل: «ولا تنسَ نصيبك من الدنيا» قال : لا تنسَ صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته » قال : في الثياب المصبّغات يجرُّها بالأرض .

وفي المجمع وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وهووال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمرُّ بالبيّاع والبقّال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: « تلك الدار الآخرة نجعلهـا للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً » ويقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وفيه روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية « تلك الدار الآخرة » الآية .

أقول : وعن السيد ابن طاوس في سعد السعود أنه رواه عن الطبرسي هكذا : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها .

وفي الدر المنثور أخرج المحاملي والديلمي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق .

* * *

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ــ ٨٥. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ــ ٨٦. وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ــ ٨٧. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ــ ٨٨.

(بيان)

الآيات خاتمة السورة وفيها وعد جميل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله سبحانه سيمن عليه برفع قدره ونفوذ كلمته وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين به كما فعل ذلك بموسى وبني إسرائيل ، وقد كانت قصة موسى وبني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك .

قوله تعالى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » إلى آخر الآية الفرض – على ما ذكره – بمعنى الإيجاب فمعنى « فرض عليك القرآن » أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة .

وأحسن منه قول بعضهم : إن المعنى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به وذلك لكونه أوفق لقوله : « لرادّك إلى معاد » بما سيجيء من معناه .

وقوله : « لرادّك إلى معاد » المعاد اسم مكان أو زمان من العود وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل : هو مكة فالآية وعد له أن الله سيرده بعد هجرته

إلى مكة ثانياً ، وقيل : هو الموت ، وقيل : هو القيامة ، وقيل : هو المحشر ، وقيل هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى ، وقيل : هو الجنة ، وقيل : هو بيت المقدس، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول : وقيل : هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أو كلها .

والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المسرودة في أول السورة تلوح اليه ثم الآيات التالية لها تؤيده .

فإنه تعالى أورد قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام في أول السورة ففصّل القول في أنه كيف منّ عليهم بالأمن والسلام والعزة والتمكن بعد ما كانوا أذلاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وقد كانت القصة تدل بالالتزام -- ومطلع السورة يؤيده – على وعد جميل للمؤمنين أن الله سبحانه سينجيهم مما هم عليه من الفتنة والشدة والعسرة ويظهر دينهم على الدين كله ويمكنهم في الأرض بعد ما كانوا لا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم .

ثم ذكر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب في الحكمة أن ينزل كتاباً يهدي الناس إلى الحق تذكرة وإتماماً للحجة ليتقوا بذلك من عذاب الله كما نزله على موسى بعد ما أهلك القرون الاولى وكما نزّل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كذبوا به عناداً للحق وإيثاراً للدنيا على الآخرة .

وهذا السياق يرجي السامع أنه تعالى سيتعرض صريحاً لما أشار اليه في سرد القصة تلويحاً فإذا سمع قوله : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » لم يلبث دون أن يفهم أنه هو الوعد الجميل الذي كان يترقبه وخاصة مع الابتداء بقوله : « إن الذي فرض عليك القرآن » وقد قدم تنظير التوراة بالقرآن وقد كان ما قصه في إنجاء بني إسرائيل مقدمة لنزول التوراة حتى يكونوا بالأخذ بها والعمل بها أئمة ويكونوا هم الوارثين .

فمعنى الآية : أن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك إلى محل تكون هذه الصيرورة منك اليه عودا ويكون هو معاداً لك

كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه ، ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم هاجر منها ثم عاد اليها فاتحاً مظفراً وثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذبين .

وفي تنكير قوله : « معاد » إشارة إلى عظمة قدر هذا العود وأنه لا يقاس الى ما قبله من القطون بها والتاريخ يصدقه .

وقوله : « قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذي قول موسى عليه السلام – لما كذبوه ورموا آياته البينات بأنها سحر مفتري – : « ربي أعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار » فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لما كذبوه ورموه بالسحر ما قاله موسى لآل فرعون لما كذبوه ورموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما وسير دعوتهما كما يظهر من القصة ويظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى : « إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً » المزمل : ١٥ .

ولعل الاكتفاء بالشطر الأول من قول موسى عليه السلام والسكوت عن الشطر الثاني أعني قوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة والإيماء كما يستشم من سياق قوله : « لرادّك إلى معاد » أيضاً حيث خص الخطاب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونكر معاداً .

وكيف كان فالمراد بقوله : « من جاء بالهدى » النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وبقوله : « ومن هو في ضلال مبين » المشركون من قومه ، واختلاف سياق الجملتين – حيث قيل في جانبه صلى الله عليه وآله وسلم : « من جاء بالهدى » وفي جانبهم : « من هو في ضلال مبين » فقوبل بين ضلالهم وبين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم واهتدائه – لكون تكذيبهم متوجهاً بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه .

وقد ذكروا في قوله : « أعلم من جاء بالهدى » أن « من » منصوب بفعل مقدر يدل عليه « أعلم » والتقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به ، وذكر بعضهم أنه منصوب بأعلم وهو بمعنى عالم ولا دليل عليه ،

وما أذكر قائلاً بأنه منصوب بنزع الخافض وإن لم يظهر فيه النصب لبنائه والتقدير ربي أعلم بمن جاء بالهدى ، ولا دليل على منعه .

قوله تعالى: «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد» أي إنه سيردك إلى معاد – وما كنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه – .

وقيل : تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه ﷺ وهـذا وجه وجيه وتقريره أنه تعالى لما وعده بالرد إلى معاد وفيه ارتفاع ذكره وتقدم دعوته وانبساط دينه خط له السبيل التي يجب عليه سلوكها بجهد ومراقبة فبيّن له أن إلقاء الكتاب اليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى وتترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه وقد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة وفي تقدم دعوته وبلوغها الغاية التي وعدها أن لا ينصر الكافرين ولا يطيعهم ويدعو إلى ربه ولا يكون من المشركين ولا يدعو معه إلهاً آخر .

وقوله : « إلا رحمة من ربك » استثناء منقطع أي لكنه ألقي إليك رحمـة من ربك وليس بإلقاء عادي يرجى مثله .

وقوله : « فلا تكونن ظهيراً للكافرين » تفريع على قوله : « إلا رحمة من ربك » أي فإذا كان إلقاؤه إليك رحمة من ربك خصّك بهـا وهو فوق رجائك فتبرأ من الكافرين ولا تكن معيناً وناصراً لهم .

ومن المحتمل قريباً أن يكون في الجملة نوع محاذاة لقول موسى عليه السلام – لما قتل القبطي : « ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » وعلى هـذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أن إلقـاء الكتاب اليه ﷺ نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحق ويدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم ولا يميل إلى صدهم إياه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى عليه السلام ربه بمـا أنعم عليه من الحكم والعلم أن لا يكون ظهيراً للمجرمين أبداً ، وسيأتي أن قوله : « ولا يصدنـك » الخ ، بمنزلة الشارح لهذه الجملة .

قوله تعالى : « ولا يصدنـّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » إلى آخر الآية، نهي له ﷺ على الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفار عن الصد والصرف ووجه كون انصرافه مسبباً لصدهم وهو كقوله لآدم وزوجه: « فلا يخرجنـّكما من الجنـة » أي لا تخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة .

والظاهر أن الآية وما بعدها في مقام الشرح لقوله: «فلا تكونن ظهيراً للكافرين» وفائدته تأكيد النهي بعدّ موارده واحداً بعـد واحد فنهاه أولاً عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين اكتتبها ، وأمره ثانياً أن يدعو إلى ربـه ، ونهاه ثالثاً أن يكون من المشركين وفسّره بأن يدعو مع الله إلهاً آخر .

وقـد كرّر صفة الرب مضافاً اليه ﷺ للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة وأنه ﷺ متفرّد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها .

قوله تعالى : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » قد تقدم أنه كالتفسير لقوله : « ولا تكونن من المشركين » .

قوله تعالى : « لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » أي لأنـه لا إله غيره وما بعدها في مقام التعليل بالنسبة اليها كما سيتضح .

وقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » الشيء مساوٍ للموجود ويطلق على كل أمر موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله » الأنعام : ١٩ ، والهلاك البطلان والإنعدام .

والوجه والجهة واحد كالوعد والعدة ، ووجه الشيء في العرف العام ما يستقبل به غيره ويرتبط بـه اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه ووجه الإنسان النصف المقدم من رأسه ووجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه ويتوجه اليه خلقه به وهو صفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وما ينتهي اليها من صفات الفعل كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والمغفرة والرحمة ، كذا آياته الدالة عليه بما هي آياته .

فكل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه

الله عليه وأما ما لا ينسب اليه تعالى فليس إلا ما اختلقه وهم المتوهم او سراباً صوّره الخيال وذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلا أنها حجارة او خشبة او شيء من الفلزات وأما أنها أرباب او آلهة او نافعة او ضارة او غير ذلك فليست إلا أسماء سماها عبدتهم وكالإنسان ليس له من الحقيقة إلا ما أودعه فيه الخلقة من الروح والجسم وما اكتسبه من صفات الكمال والجميع منسوبة إلى الله سبحانه وأما ما يضيفه اليه العقل الاجتماعي من قوة وسلطة ورئاسة ووجاهة وثروة وعزة وأولاد وأعضاد فليس إلا سراباً هالكاً وامنية كاذبة وعلى هذا السبيل سائر الموجودات .

فليس عندها من الحقيقة إلا ما أفاض الله عليها بفضله وهي آياته الدالة على صفاته الكريمة من رحمة ورزق وفضل وإحسان وغير ذلك .

فالحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة وآياته الدالة عليها والجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسة .

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل وعلى هذا يكون محصل تعليل كلمة الإخلاص بقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » أن الإله وهو المعبود بالحق إنما يكون إلهاً معبوداً إذا كان أمراً ذا حقيقة واقعية غير هالك ولا باطل له تدبير في العالم بهذا النعت وكل شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلا ما كان وجهاً له منتسباً اليه فليس في الوجود إله غيره سبحانه .

والوثنيون وإن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوباً اليه تعالى ومن جهته إلا أنهم يجعلونها مستقلة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه ، ولذلك يعبدونها من دون الله ، ولا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو .

وههنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال : وجه النهار ووجه الطريق لنفسها وإن أمكنت المناقشة فيه ، وذكر بعض آخر : أن المراد به الذات الشريفة كما يقال : وجوه الناس أي أشرافهم وهو من المجاز المرسل او الاستعارة وعلى كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنة والممكن وإن كان موجوداً بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر

إلى حد ذاته هالك في نفسه والذي لا سبيل للبطلان والهلاك اليه هو ذاته الواجبة بذاتها.

ومحصل التعليل على هـــذا المعنى : أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتاً بيده شيء من تدبير العالم ، والتدبير الكوني لا ينفك عن الخلق والإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء ويدبر أمرها شيء آخر – وقد أوضحناه مراراً في هذا الكتاب– ولا يكون الخالق الموجد إلا واجب الوجود ولا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو .

وقولهم: إنه تعالى أجلّ من أن يحيط به عقل او وهم فلا يمكن التوجه العبادي اليه فلا بد أن يتوجه بالعبـادة إلى بعض مقرّبي حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده .

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة على العلم الإحاطي بل يكفي فيه المعرفة بوجه وهو حاصل بالضرورة .

وأما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك والفناء بناء على ما قيل : إن اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أن كل شيء سيستقبله الهلاك بعـــد وجوده إلا وجهه. نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانيات انتهاء أمد وجودها وبطلانها بعده وفي غيرها كون وجودها محاطاً بالفناء من كل جانب.

وهلاك الأشياء على هـــذا بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الاولى عنها بانتقالها إلى النشأة الاخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده، وأما البطلان المطلق بعـد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعة في أن كل شيء مرجعه إلى الله وأنه المنتهى وإليه الرُّجعى وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده .

فمحصل معنى الآية – لو أُريد بالوجه صفـاته الكريمة – أن كل شيء سيخلّي مكانه ويرجع اليه إلا صفاته الكريمة التي هي مبادي فيضه فهي تفيض ثم تفيض إلى ما لا نهاية له والإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاتـه ولا انقطاع لصفاته الفيّاضة وليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلاّ هو .

ولو أُريد بوجهه الذات المقدسة فالمحصّل أن كل شيء سيستقبله الهلاك والفنـاء بالرجوع الى الله سبحانه إلا ذاته الحقة الثابتـة التي لا سبيل للبطلان اليها – والصفات على هــذا محسوبة من صقع الذات – والإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء اليه

وليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلا هو .

وبما تقدم من التقرير يندفع الاعتراض على عموم الآية بمثل الجنة والنار والعرش فإن الجنة والنار لا تنعدمان بعد الوجود وتبقيان إلى غير النهاية، والعرش أيضاً كذلك بناء على ما ورد في بعض الروايات أن سقف الجنة هو العرش .

وجه الاندفاع أن المراد بالهلاك هو تبدل نشأة الوجود والرجوع الى الله المعبّر عنه بالانتقال من الدنيا الى الآخرة والتلبس بالعود بعد البدء ، وهـذا إنما يكون فيما هو موجود بوجود بدئي دنيوي ، وأما الدار الآخرة وما هو موجود بوجود أخروي كالجنة والنار فلا يتصف شيء من هذا القبيل بالهلاك بهذا المعنى .

قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ ، وقـال : « وما عند الله خير للأبرار » آل عمران : ١٩٨ ، وقـال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » الأنعام : ١٢٤ ، ونظيرتها خزائن الرحمة كما قال : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » الحجر : ٢١ ، وكذا اللوح المحفوظ كما قال : « وعندنا كتاب حفيظ » ق : ٤ .

وأما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله » الآية ، الأعراف : ٥٤ .

ويمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب اليه وهي الناحية التي يقصد منها ويتوجه اليه بها ، وتؤيده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهـذا المعنى كقوله : « يريدون وجهه » الأنعام : ٥٢ ، وقوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » الليل : ٢٠، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً .

وعليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب اليه وحـده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه ويكون من مصاديقه أسماؤه وصفاته وأنبياؤه وخلفاؤه ودينه الذي يؤتى منه .

وإن خصّ الوجه بالدين فحسب – كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق – كان المراد بالهلاك الفساد وعدم الأثر، وكانت الجملة تعليلاً لقوله: « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » وكان ما قبلها قرينـة على أن المراد بالشيء الدين والأعمال المتعلقة

به وكان محصّل المعنى: ولا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه.

والأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعي أو الأعم منه ومن التكويني والمعنى: كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين اليه وإليه ترجعون لا إلى مشرّعي الأديان الاخر .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وللمفسرين فيها أقوال أُخر مختلفة .

فقيل : المراد بالوجه ذاته تعالى المقدسة وبالهلاك الانعدام ، والمعنى : كل شيء في نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلا ذاته الواجبة الوجود ، والكلام على هذا مبني على التشبيه أي كل شيء غيره كالهالك لاستناد وجوده إلى غيره .

وقيل : الوجه بمعنى الذات والمراد به ذات الشيء والضمير لله باعتبار أن وجه الشيء مملوك له ، والمعنى: كل شيء هالك إلا وجه الله الذي هو ذات ذلك الشيء ووجوده.

وقيل : المراد بالوجه الجهة المقصودة والضمير لله ، والمعنى : كل شيء هالك بجميع ما يتعلق به إلا الجهة المنسوبة اليه تعالى وهو الوجود الذي أفاضه الله تعالى عليه.

وقيل : الوجهة هو الجهة المقصودة والمراد بــه الله سبحانه الذي يتوجه اليه كل شيء والضمير للشيء ، والمعنى : كل شيء هالك إلا الله الذي هو الجهة المطلوبة له .

وقيل : المراد بالهلاك هلاك الموت والعموم مخصوص بذوي الحياة ، والمعنى : كل ذي حياة فإنه سيموت إلا وجهه .

وقيل : المراد بالوجه العمل الصالح والمعنى أن العمل كان في حيز العدم ، فلما فعله العبد ممتثلاً لأمره تعالى أبقاه الله من غير إحباط حتى يثيبه أو أنه بالقبول صار غير قابل للهلاك لأن الجزاء قائم مقامه وهو باق .

وقيل : المراد بالوجه جاهه تعالى الذي أثبته في الناس .

وقيل : الهلاك عام لجميع ما سواه تعالى دائماً لكون الوجود المفاض عليها متجدداً في كل آن فهي متغيرة هالكة دائماً في الدنيا والآخرة والمعنى كل شيء متغير الذات دائماً إلا وجهه .

وهذه الوجوه بين ما لا ينطبق على سياق الآية وبين ما لا ينجح به حجتها وبين ما هو بعيد عن الفهم ، وبالتأمل فيما قدمناه يظهر ما في كل منها فلا نطيل .

وقوله : « له الحكم واليه ترجعون » الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون، وأما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع اليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه .

وكلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكل واحدة منهما وحدها حجة تامة على توحده. تعالى بالالوهية صالحة للتعليل كلمة الإخلاص ، وقد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس في قوله تعالى: «لرادك الى معاد» قال: إلى مكة. زاد ابن مردويه كما أخرجك منها.

أقول : وروى عنه وعن أبي سعيد الخدري أن المراد به الموت ، وأيضاً عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن المراد به الجنة وانطباقها على الآية لا يخلو من خفاء .

وروى القمي في تفسيره عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام وعن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام أن المراد به الرجعة ولعله من البطن دون التفسير .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل: وأما قوله « كل شيء هالك إلا وجهه » فالمراد كل شيء هالك إلا دينه ، لأن من المحال أن يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه . هو أجل وأعظم من ذلك وإنما يهلك من ليس منه ألا ترى أنه قال : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » ففصل بين خلقه ووجهه ؟

وفي الكافي بإسناده عن سيف عمن ذكره عن الحارث بن المغيرة النصري قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: « كل شيء هالك إلا وجهه » فقال: ما يقولون فيه ؟ قلت : يقولون : يهلك كل شيء إلا وجه الله فقال : سبحان الله لقد قالوا عظيماً إنما عني به وجه الله الذي يؤتى منه .

أقول : وروى مثله في التوحيد بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصري عنه

عليه‌السلام ولفظه سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » قال : كل شي، هالك إلا من أخذ طريق الحق .

وفي محاسن البرقي مثله إلا أن آخره « من أخذ الطريق الذي أنتم عليه » .

والتشويش الذي يتراءى في الروايات تطرّق اليها من جهة النقل بالمعنى ، فإن كان المراد بالوجه الذي يؤتى منه مطلق ما ينسب اليه وكان من صقعه تعالى ومن جانبه كان منطبقاً على المعنى الأول الذي قدمناه في معنى الآية .

وإن كان الوجه بمعنى الدين الذي يتوجه اليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاك البطلان وعدم التأثير وكان المعنى : لا إله إلا هو كل دين باطل إلا دينه الحق الذي يؤتى منه فإنه سينفع ويثاب عليه ، وقد تقدمت الإشارة إلى الوجهين في تفسير الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « فلا تكونن ظهيراً للكافرين » قال : المخاطبة للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمعنى للناس، وقوله: « ولا تدعُ مع الله إلهاً آخر » المخاطبة للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمعنى للنـــاس ، وهو قول الصادق عليه‌السلام : إن الله بعث نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بإياك أعني ، واسمعي يا جارة .

(سورة العنكبوت مكية ، وهي تسع وستون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . الم ــ ١ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا
أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ــ ٢ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ــ ٣ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ــ ٤ . مَنْ كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٥ . وَمَنْ جَاهَدَ
فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ــ ٦ . وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٧ . وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ
لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٨ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ ــ ٩ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي
اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٠ .

وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ـــ ١١ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ـــ ١٢ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ـــ ١٣ .

(بيان)

يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدّده من قِبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملّتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم وعذّبوهم ليعيدوهم إلى ملّتهم .

يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » الآية ، وقوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » الآية .

وكأن في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع وإلحاح منهما عليه في الإرتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى: « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الآية ، وقد نزلت السورة في شأن هؤلاء .

ففرض السورة على ما يستفاد من بدئها وختامها والسياق الجاري فيها أن الذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم : آمنا بالله بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن ولا تغيّرها غِيَر الزمن وهي إنما تتثبّت وتستقر بتوارد الفتن وتراكم المحن ، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا : آمنا بالله دون أن يفتنوا ويمتحنوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

فالفتنة والمحنة سنّة إلهية لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الامم الماضين كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى فاستقام منهم من استقام وهلك منهم من هلك وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فعلى من يقول : آمنت بالله أن يصبر على إيمانه ويعبد الله وحده فإن تعذّر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياه .

وأما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله ويسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين وإيذاؤهم وتعذيبهم فإنما هي فتنة لهم وللمؤمنين غير خارجة عن علم الله وتقديره ، فهي فتنة وهي محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا وإن شاء أخّرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه وما لهم من محيص .

وأما ما لفّقوه من الحجة وركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم والحجة قائمة تامة عليهم .

فهذا محصّل غرض السورة ومقتضى ذلك كون السورة كلها مكية ، وقول القائل : إنها مدنية كلها أو معظمها أو بعضها – وسيجيء في البحث الروائي التالي – غير سديد ، فمضامين آيات السورة لا تلائم إلا زمن العسرة والشدة قبل الهجرة .

قوله تعالى : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » الحسبان هو الظن ، وجملة « أن يتركوا » قائمة مقام مفعوليه ، وقوله : « أن يقولوا » بتقدير باء السببية ، والفتنة الامتحان وربما تطلق على المصيبة والعذاب ، والأوفق للسياق هو المعنى الأول ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم : آمنا ؟

وقيل : المعنى : أظن الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببليّة ولا تصيبهم مصيبة لقولهم : آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته ؟ ولا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات .

قوله تعالى : « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » اللامان للقسم ، وقوله : « ولقد فتنا الذين من قبلهم » حال من الناس في قوله : « أحسب الناس » أو من ضمير الجمع في قوله « لا يفتنون » وعلى الأول فالإنكار والتوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة والامتحان وعلى الثاني إلى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوماً ولا يفتن آخرين ، ولعل الوجه الأول أوفق للسياق .

فالظاهر أن المراد بقوله : « ولقد فتنا الذين من قبلهم » أن الفتنة والامتحان سنة جارية لنا وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وقوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الخ تعليل لما قبله ، والمراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم وكذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة والامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو اليه وكذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة .

ويمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإن الامور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى ، وأما علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتة .

والمعنى : أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان وإظهاره والحال أن الفتنة سنتنا وقد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك .

والالتفات في قوله : « فليعلمن الله » إلى اسم الجلالة قيل: للتهويل وتربية المهابة والظاهر أنه في أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل وذلك أن الدعوة إلى الإيمان والهداية اليه والثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمّى بالله الذي منه يبدأ كل شيء وبه يقوم كل شيء واليه ينتهي كل شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميز عنده حقيقة الإيمان من

دعواه الخالية ويخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة ولذلك عدل عن مثل قولنا : فلنعلمن إلى قوله : « فليعلمن الله » .

قوله تعالى : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون » أم منقطعة ، والمراد بقوله : « الذين يعملون السيئات » المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين ويصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله : « أحسب الناس » هم الذين قالوا : آمنا وهم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفاً من الفتنة والتعذيب .

والمراد بقوله : « أن يسبقونا » الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله – على ما يعطيه السياق .

وقوله : « ساء ما يحكمون » تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة وصدّ فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصدّ لهم عن سبيل السعادة ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

وقيل : مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين وهم المراد بقوله : « الذين يعملون السيئات » والمراد بالسيئات المعاصي التي يقترفونها غير الشرك ،وأنت خبير بأن السياق لا يساعد عليه .

وقيل : المراد بعمل السيئات أعم من الشرك واقتراف سائر المعاصي فالآية عامة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك .

وفيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاص من السياقات أمر واعتبارها مستقلة في نفسها أمر آخر والذي يقتضيه الاعتبار الاول وهو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدمناه من المعنى ، وأما الاعتبار الثاني : فمقتضاه العموم ولا ضير فيه على ذلك التقدير .

قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم » إلى تمام ثلاث آيات . لما وبّخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان ورجوعهم عنه بأي فتنة وإيذاء من المشركين ووبّخ المشركين على فتنتهم وإيذائهم المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله وتعجيزاً له فيما شاء وخطّأ الفريقين فيما ظنوا .

رجع إلى بيان الحق الذي لا معدل عنه والواجب الذي لا مخلص منه ، فبيّن في

هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقّع الرجوع اليه ولقائه فليعلم أنه آتٍ لا محالة وأن الله سميع لأقواله عليم بأحواله وأعماله فليأخذ حذره وليؤمن حقّ الإيمان الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء وليجاهد في الله حق جهاده ، وليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه ولا إلى غيره من العالمين وليعلم أنـــه إن آمن وعمل صالحاً فإن الله سيكفّر عنه سيئاته ويجزيه بأحسن أعماله ، والعلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول ويستوجبان لزومه الإيمان وصبره على الفتن والمحن في جنب الله .

فقوله : « من كان يرجو لقاء الله » رجوع إلى بيان حال من يقول : آمنت فإنه إنمـــا يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع الى الله سبحانه يوم القيامة إذ لولا المعاد لغى الدين من أصله ، فالمراد بقوله: « من كان يرجو لقاء الله » من كان يؤمن بالله أو من كان يقول : آمنت بالله ، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب .

والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه وبين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق،قال تعالى : «ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

وقيل : المراد بلقــاء الله هو البعث ، وقيل : الوصول الى العاقبة من لقاء ملك الموت والحساب والجزاء ، وقيل : المراد ملاقاة جزاء الله من ثواب أو عقاب وقيل : ملاقاة حكمه يوم القيامة ، والرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف .

وهذه وجوه مجازية بعيدة لا موجب لها إلا أن يكون من التفسير بلازم المعنى.

وقوله : « فإن أجل الله لآت » الأجل هو الغاية التي ينتهي اليها زمان الدين ونحوه وقد يطلق على مجموع ذلك الزمان والغالب في استعماله هو المعنى الأول .

و « أجل الله » هو الغاية التي عيّنها الله تعالى للقائه، وهو آت لا ريب فيه وقد أكّد القول تأكيداً بالغاً ، ولازم تحتم إتيان هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان والصبر عليه عند الفتن والمحن من غير رجوع وارتداد ، وقد زاد في تأكيد القول بتذييله بقوله : « وهو السميع العليم » إذ هو تعالى لما كان سميعاً لأقوالهم عليماً بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل : آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة ومحنة .

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية : « فإن أجل الله لآت » الخ ، من قبيل وضع

السبب موضع المسبب كما كان صدرها : « من كان يرجو لقاء الله » أيضاً كذلك ، والأصل من قال : آمنت بالله . فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً في ربه .

وقوله : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين » المجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة ، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه الى الله سبحانه حتى لا يهمهم ويلغو بالنسبة اليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه اليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان ويصبروا على المكاره دونه .

فقوله : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » تأكيد لحجة الآية السابقة ، وقوله : « إن الله لغني عن العالمين » تعليل لما قبله .

والالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير ما مرّ من الالتفات في قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الآية .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرن عنهم سيئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون » بيان لعاقبة إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد ويتبين به أن نفع إيمانهم يعود اليهم لا الى الله سبحانه وأنه عطيّة من الله وفضل .

وعلى هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيمان والعمل الصالح فإنها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة : « ومن جاهد » من قوله في هذه الآية : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وتكفير السيئات هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو الستر ، وقيل : تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً ومعاصيهم السابقة طاعات ، وليس بذاك .

وجزاؤهم بأحسن الذي كانوا يعملون هو رفع درجتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة وخسّة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة وإن اشتملت على بعض جهات الرداءة وهكذا .

قوله تعالى : « ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الخ ، التوصية العهد وهو ههنا الأمر ، وقوله : « حسناً »

مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف والتقدير : ووصّينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن اليهما وهذا مثل قوله: «وقولوا للنـاس حسناً » أي قولاً حسناً أو ذا حسن ، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل ، وربما وجّه بتوجيهات أُخر .

وقوله : « وإن جاهداك على أن تشرك بي » الخ ، تتميم للتوصية بخطاب شفاهي للانسان بنهيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك والوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكأنه قيل : وقلنا للانسان أحسن إلى والديك وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما .

ولم يقل : وأن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ ، لمـــا في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإبهام ولذلك قال أيضاً:« لتشرك بي » بضمير المتكلم وحده فافهمه ويؤل معنى الجملة إلى أنـّا نهيناه عن الشرك طاعة لهما ورفعنا عنه كل إبهام .

وفي قوله : « مـا ليس لك به علم » إشارة إلى علة النهي عن الطاعة فإن دعوتهما إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراء على الله وقد نهى الله عن اتـّباع غير العلم قال : « ولا تقفُ ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٨ ، وبهذه المناسبة ذيـّلها بقوله: « إليّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون » أي ساعلمكم ما معنى أعمالكم ومنها عبادتكم الأصنام وشركـكم بالله سبحانه .

ومعنى الآية : وعهـدنا إلى الإنسان في والديه عهداً حسناً — وأمرناه أن أحسن إلى والديك — وإن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم.

وفي الآية — كما تقدمت الإشارة اليه — توبيخ تعريضي لبعض من كان قـد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وعمـلوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين » معنى الآية ظاهر ، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها ، دلالة على وعد جميل منه تعالى وتطييب نفس لمن ابتـــلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما وفارقهما، يقول سبحانه: إن جاهداه على الشرك فعصاهما وهجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإنـّا سنرزقه خيراً منهما وندخله بإيمانه وعمله الصالح في الصالحين وهم العبـــاد

المنعّمون في الجنة، قال تعالى: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» الفجر : ٣٠ .

وأما إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق .

قوله تعالى : «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» إلى آخر الآية، لما كان إيمان هؤلاء مقيداً بالعافية والسلامة مغيّى بالإيذاء والابتلاء لم يعدّه إيماناً بقول مطلق ولم يقل : ومن الناس من يؤمن بالله بل قال : «ومن الناس من يقول آمنا بالله» فالآية بوجه نظيرة قوله: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه» الحج : ١١ .

وقوله: «فإذا أوذي في الله» أي أوذي لأجل الإيمان بالله بناء على أن في للسببية كما قيل وفيه عناية كلامية لطيفة بجعله تعالى – أي جعل الإيمان بالله – ظرفاً للإيذاء ولمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب اليه تعالى انتساب المظروف إلى ظرفه وينطبق على معنى السببية والغرضية ونظيره قوله: «يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله» الزمر : ٥٦، وقوله : «والذين جاهدوا فينا» العنكبوت : ٦٩ .

وقيل : معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله وكأنه مبني على تقدير مضاف محذوف .

وفيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء في الله ما كان السبب فيه محض الإيمان بالله وهو قولهم : ربنا الله، والإيذاء في سبيل الله ما كان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى : «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي» آل عمران : ١٩٥ ومن الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله في آخر السورة: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» حيث جعل الجهاد في الله طريقاً إلى الاهتداء إلى سبله ولو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلك .

وقوله : «جعل فتنة الناس كعذاب الله» أي نزل العذاب والإيذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان إلى الشرك خوفاً وجزعاً من فتنتهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم .

وقوله : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج ويسر لكم من بعدما أنتم فيه من الشدة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب .

و « ليقولن » بضم اللام صيغة جمع ، والضمير راجع إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمائر الإفراد الاخر راجعة اليها باعتبار اللفظ .

وقوله : «أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين» إستفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان .

والمراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولي العقل إنساناً كان أو غيره كالجن والملك، ولو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بعيد .

قوله تعالى : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » من تتمة الكلام في الآية السابقة والمحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين والمنافقين بالفتنة والامتحان .

وفي الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيداً بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقاً غير مقيد والفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها .

وقد استدل بالآيتين على أن السورة أو خصوص هذه الآيات مدنية وذلك أن الآية تحدث عن النفاق والنفاق إنما ظهر بالمدينة بعد الهجرة وأما مكة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة ولا للمسلمين فيها إلا الذلة والإهانة والشدة والفتنة ولا للنبي ﷺ في المجتمع العربي يومئذ وخاصة عند قريش عزة ولا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوه إلى أن يتظاهر بالإيمان وهو ينوي الكفر .

على أن قوله في الآية : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » يخبر عن النصر وهو الفتح والغنيمة وقد كان ذلك بالمدينة دون مكة .

ونظير الآيتين قوله السابق: « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » ضرورة أن الجهاد والقتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة .

وهو سخيف : أما حديث النفاق فالذي جعل في الآية ملاكاً للنفاق وهو قولهم: آمنا بالله حتى إذا اوذوا في الله راجعوا عن قولهم كان جائز التحقق في مكة كما في

غيرها وهو ظاهر بل الذي ذكر من الإيذاء والفتنة إنما كان بمكة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة .

وأما حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح والغنيمة فله مصاديق اخر يفرج الله بها عن عباده . على أن الآية لا تخبر عنه بما يدل على التحقق فقوله : « فإذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك قالوا إنا كنا معكم» يدل على تحقق الإيذاء والفتنة حيث عبر بإذا الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجيء النصر حيث عبر عنه بإن الشرطية الدالة على إمكان الوقوع دون تحققه .

وأما قوله تعالى : « ومن جاهد » الخ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » المراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة ، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة وقولهم لهم: « اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » نوع استمالة لهم وتطييب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك واتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال : إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو ، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم ، ولذلك لم يقولوا : ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد .

فكأنهم قالوا : لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئة فإنا نحملها عنكم ونحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إنا نحمل عنكم خطاياكم عامة ومن جملتها هذه الخطيئة .

وقوله: « وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء » رد لقولهم: « ولنحمل خطاياكم وهو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين وانتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله ورضى فهو الذي يؤاخذهم به ويجازيهم وهو سبحانه يصرّح ويقول : « ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء » وقد عمّم النفي لكل شيء من خطاياهم .

وقوله: «إنهم لكاذبون » تكذيب لهم لما أن قولهم: « ولنحمل خطاياكم » يشتمل على دعوى ضمني أن خطاياهم تنتقل اليهم لو احتملوها وأن الله يجيز لهم ذلك .

قوله تعالى : «وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » من تمام القول السابق في ردهم وهو في محل الاستدراك أي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعليها لكنهم حاملون أثقالاً وأحمالاً من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافاً إلى أثقال أنفسهم وأحمالها لما أنهم ضالّون مضلّون .

فالآية في معنى قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم » النحل : ٢٥ .

وقوله: «وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » فشركهم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأن الله يجيز لهم ذلك .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأيضاً ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالا : نزلت سورة العنكبوت بمكة .

أقول : وقد نقل في روح المعاني عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية .

وفي المجمع قيل : نزلت الآية يعني قوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا » في عمار بن ياسر وكان يعذّب في الله . عن ابن جريج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله : « الم أحسب الناس أن يتركوا » الآية، قال : أنزلت في أناس بمكة قد أقرّوا بالإسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا . قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فردّوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا اليهم أنه نزل فيكم آية كذا وكذا فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن قتادة « ومن الناس من يقول آمنا بالله – إلى قوله – وليعلمن المنافقين » قال : هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة ، وهذه الآيات العشر مدنية .

وفيه أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » قال: ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت امي: لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يسجرون فاها بالعصا فنزلت هذه الآية « ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً » الآية .

وفي المجمع قال الكلبي نزل قوله : « ومن الناس من يقول » الآية في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ فحلفت أمه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كنا حتى يرجع اليها فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام – وهما أخوا عياش لامه – جزعها ركباً في طلبه حتى أتيا المدينة فلقياه وذكرا له القصة فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه وتبعهما وقد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت .

فلما خرجوا من المدينة أخذاه وأوثقاه كتافاً وجلده كل واحد منهما مائة جلدة حتى برىء من دين محمد جزعاً من الضرب وقال ما لا ينبغي فنزلت الآية وكان الحارث أشدّهما عليه فحلف عياش لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضربنْ عنقه .

فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حيناً ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وهاجر عياش وحسن إسلامه وأسلم الحارث بن هشام وهاجر إلى المدينة وبايع النبي ﷺ على الإسلام ولم يحضر عياش فلقيه عياش يوماً بظهر قبا ولم يشعر بإسلامه فضرب عنقه فقيل له: إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش وبكى ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك فنزل : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً » الآية .

أقول : وأنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات وقد تقدم أن الذي يعطيه سياق آيات السورة أنها مكية محضة .

وفي الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمّر بن خلاد قال : سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا بالله وهم لا يفتنون » . ثم قال لي : ما الفتنة ؟ قلت : جعلت فداك الفتنة في الدين فقال : « يفتنون كما يفتن الذهب . ثم قال : يخلصون كما يخلص الذهب .

وفي المجمع قيل : إن معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم . وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « أو يلبسكم شيعاً » وفي تفسير الكلبي أنه لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتوضأ وأسبغ وضوءه ثم قام وصلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض .

فنزل جبرئيل ولم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا جبرئيل ما بقاء امتي مع قتل بعضهم بعضاً ؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل : « الم أحسب الناس أن يتركوا » الآيتان فقال : لا بد من فتنة يبتلي بها الامة بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع وبقي السيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة .

وفي نهج البلاغة : وقام اليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها ؟ فقال عليه السلام : لما أنزل الله سبحانه قوله : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : يا علي إن امتي سيفتنون من بعدي .

وفي التوحيد عن علي عليه السلام – في حديث طويل وقد سأله رجل عن آيات من القرآن – وقوله : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت » يعني بقوله : من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء ههنا ليس بالرؤية واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنه يعني بذلك البعث .

أقول : مراده عليه السلام نفى الرؤية الحسية والتفسير بلازم المعنى .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله » الآية قال : من أحب لقاء الله جاءه الأجل «ومن جاهد» نفسه عن اللذات والشهوات والمعاصي «فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين» . « ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً » قال : هما اللذان ولداه .

وفيه في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » قال : كان الكفار يقولون للمؤمنين : كونوا معنا فإن الذي تخافون أنتم ليس بشيء، فإن كان حقاً نتحمل عنكم ذنوبكم ، فيعذبهم الله عز وجل مرتين : مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وآله يسلمون يقولون : إنه يحرّم الخمر ويحرّم الزنا ويحرّم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » .

وفيه أخرج أحمد عن حذيفة قال : سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فأمسك القوم ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي صلى الله عليه وآله : من سنّ خيراً فاستنّ به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ شراً فاستنّ به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وفي بعضها تفسير قوله : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » بذلك .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ – ١٤ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ – ١٥ . وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ ١٦ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا
لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ـ ١٧ . وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ـ ١٨ . أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ
اللهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ـ ١٩ . قُلْ سِيرُوا فِي
ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ
اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ ٢٠ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ
وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ـ ٢١ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ـ ٢٢ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ـ ٢٣ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ـ ٢٤ . وَقَالَ
إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ـ ٢٥ . فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ـ ٢٦ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ـــ ٢٧ . وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ـــ ٢٨ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ـــ ٢٩ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ـــ ٣٠ . وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ـــ ٣١ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ـــ ٣٢ . وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ـــ ٣٣ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ـــ ٣٤ . وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ـــ ٣٥ . وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ـــ ٣٦ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ـــ ٣٧ . وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ــ ٣٨. وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ــ ٣٩. فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ــ ٤٠.

(بيان)

لما ذكر سبحانه في صدر السورة أن الفتنة سنّة إلهية لا معدل عنها وقد جرت في الامم السابقة عقّب ذلك بالإشارة إلى قصص سبعة من الأنبياء الماضين وأممهم وهم : نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام فتنهم الله وامتحنهم فنجى منهم من نجى وهلك منهم من هلك ، وقد ذكر سبحانه في الثلاثة الاول النجاة والهلاك معاً وفي الأربعة الأخيرة الهلاك فحسب .

قوله تعالى: « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » ، في المجمع : الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرته في نواحي الأرض ، انتهى . وقيل : هو كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام والغالب استعماله في طوفان الماء .

والتعبير بألف سنة إلا خمسين عاماً دون أن يقال: تسعمائة وخمسين سنة للتكثير والآية ظاهرة في أن الألف إلا خمسين مدة دعوة نوح عليه السلام ما بين بعثته إلى أخذ الطوفان فيغاير ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره عليه السلام وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سورة هود ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » أي فأنجينا

نوحاً وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهله وعدة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين .

وقوله : « وجعلناها آية للعالمين » الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة وأما رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد ، والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم .

قوله تعالى : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » معطوف على قوله : « نوحاً » أي وأرسلنا إبراهيم إلى قومه .

وقوله لقومه : « اعبدوا الله واتقوه » دعوة إلى التوحيد وإنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر .

على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه وإنما يعبدون غيره زعماً منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعالة في العالم المقربة عنده كالملائكة والجن ولو عبد لكان معبوداً وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله : « اعبدوا الله » تفيد الدعوة اليه وحده وإن لم تقيد بأداة الحصر .

قوله تعالى : « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً » إلى آخر الآية ، الأوثان جمع وثن بفتحتين وهو الصنم ، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً .

وقوله : « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً » بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقة وبالجملة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى « أوثاناً » منكّر للدلالة على وهن أمرها وكون ألوهيتها دعوى مجرّدة لا حقيقة وراءها ، أي لا تعبدون من دون الله إلا أوثاناً من أمرها كذا وكذا .

ولذا عقّب الجملة بقوله : « وتخلقون إفكاً » أي وتفتعلون كذباً بتسميتها آلهة وعبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان .

وقوله : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً » تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها ومحصّله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكة والجن إنما تعبدونهم لجلب النفع وهو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدرّوا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقاً

فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب الممدّ لبقائكم لأنه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممداً لبقائكم والملك تابع للخلق والإيجاد .

ولذلك عقّبه بقوله : « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذي يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم .

وقوله : « اليه ترجعون » في مقام التعليل لقوله : « واعبدوه واشكروا له » ولذا جيء بالفصل من غير عطف، وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصّل لأن الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات والقربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر وخلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة والشكر دون ابتغاء الرزق .

قوله تعالى : « وإن تكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين » الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام ، وذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد .

ومعنى الشرط والجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنّة الجارية في الامم المشركة وقد كذب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس عليّ بما أنا رسول إلا البلاغ المبين .

ويمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئاً حلّ بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير، فكذلكم أنتم ، وقوله :« وما على الرسول » يناسب الوجهين جميعاً .

قوله تعالى : «أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير» هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقيم الحجة على المعاد وترفع استبعادهم له متعلقة بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير اليه قول إبراهيم :«اليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذّب أمم من قبلكم».

فقوله : « أولم يروا » الخ الضمير فيه للمكذبين من جميع الامم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية ، وقوله : « كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » في موضع المفعول لقوله : « يروا » بعطف « يعيده » على موضع « يبدىء » خلافاً لمن يرى عطفه على « أولم يروا » والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى : أولم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أي إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن ، وقوله : « إن ذلك على الله يسير » الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء وإذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهي جائزة التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار وإنزال للسائرين اليه في دار القرار .

وقول بعضهم : إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم وتفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق وحصر أو تحديد في عدتهم وعدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد في القدرة الإلهية فهو ينشىء النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الاولى فالآية في معنى قوله : « ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون » الواقعة : ٦٢ .

قوله تعالى : « يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون » من مقول القول ، والظاهر أنه بيان لقوله : « ينشىء النشأة الآخرة » وقلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه وجعل باطنه ظاهره وهذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ .

وفسروا القلب بالرد قال في المجمع : والقلب هو الرجوع والرد فمعناه أنكم تردّون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع والضر إلا الله . انتهى وهذا

معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله والرد اليه وهو وقوفهم موقفاً تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية في معنى قوله : « وردّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » يونس : ٣٠ .

ومحصل المعنى: أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء وهم المجرمون ويرحم من يشاء وهم غيرهم واليه تردّون فلا يحكم فيكم غيره .

قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » من مقول القول وتوصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ .

فقوله : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء أي إنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه والخروج من حكمه وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء » فالآية تجري مجرى قوله : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الرحمن : ٣٣.

وقيل : الكلام في معنى « من في السماء» فحذف من لدلالة الكلام عليه والتقدير وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السماء بمعجزين في السماء .

وهو بعيد ودلالة الكلام عليه غير مسلمة ولو بني عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن والملك والمعنى : وما أنتم معاشر الخلق بمعجزين في الأرض ولا في السماء .

وقوله : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوي جانبكم ويتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه .

فالآية -كما ترى- تنفي ظهورهم على الله وتعجيزهم له بالخروج والامتناع عن حكمه بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك وهو قوله : « وما أنتم بمعجزين » الخ ولا غيرهم يستقل بذلك وهو قوله : « وما لك من دون الله من ولي » ولا المجموع منهم ومن غيرهم يعجزه تعالى وهو قوله : « ولا نصير » .

قوله تعالى : « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك

لهم عذاب أليم » خطاب مصروف إلى النبي ﷺ خارج من مقول القول السابق « قل سيروا في الأرض » الخ والمطلوب فيه أن ينبئه ﷺ صريح الحق فيمن يشقى ويهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولاً : « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » .

ومن الدليل عليه الخطاب في « اولئك » مرتين ولو كان من كلام النبي ﷺ لقيل : « اولئكم » .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله : « من رحمتي » فإن الانتقال من مثل قولنا : اولئك يئسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله : « اولئك يئسوا من رحمتي » يفيد التصديق والاعتراف مضافاً إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب ، ويؤيد ذلك أيضاً تكرار الاشارة وما في السياق من التأكيد .

وكان في تخصيص النبي ﷺ بهذا الاخبار تقوية لنفسه الشريفة وعزلاً لهم عن صلاحية السمع لمثله وهم لا يؤمنون .

والمراد بآيات الله – على ما يفيده إطلاق اللفظ – جميع الأدلة الدالة على الوحدانية والنبوة والمعاد من الآيات الكونية والمعجزات النبوية ومنها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام والوجه فيه الاشارة إلى أهمية الايمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله وهو ظاهر .

والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب ويلازم الجنة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته » الجاثية : ٣٠ ، وقوله : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » الانسان : ٣١ .

والمراد بإسناد اليأس اليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة والجنة الخالدة وإما إنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر .

والمعنى : والذين جحدوا آيات الله الدالة على الدين الحق وخاصة المعاد اولئك يئسوا من الرحمة والجنة واولئك لهم عذاب أليم .

قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار » الخ ، تفريع على قوله في صدر القصة : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » .

وظاهر قوله : « قالوا اقتلوه أو حرّقوه » أن كلا من طرفي الترديد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه وإن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم » الأنبياء : ٦٨ ، ويمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم في أمره أولا ثم اتفاقهم على إحراقه .

وقوله : « فأنجاه الله من النار » فيه حذف وإيجاز وتقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا ناراً فألقوه فيها فأنجاه الله منها ، وقد فصّلت القصة في مواضع من كلامه تعالى .

قوله تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا » إلى آخر الآية إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستنان بسنة من يعظمونه ويحترمون جانبه كالآباء للأبناء والرؤساء المعظمين لأتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم وبالأخرة الامة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولاً بها قائمة على ساقها .

فالاستنان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار المودات الاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودة القومية على تقليده والاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ المودة القومية ويقيم الاتحاد والإتفاق على ساقه .

هذه حال العامة منهم وأما الخاصة فربما ركنوا في ذلك إلى ما يحسبونه حجة وما هو بحجة كقولهم : إن الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة والجن ليقربونا اليه زلفى ويشفعوا لنا عنده .

فقوله : « إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا » خطاب منه عليه‌السلام لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية ، وقد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم « إذ قال لأبيه وقومه

ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » الأنبياء : ٥٣ ، « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » الشعراء : ٧٤ .

ومن هنا يظهر أن قوله : « مودة بينكم » صالح لأن يكون منصوباً بنزع الخافض بتقدير لام التعليل والمودة على هذا سبب مؤدٍّ إلى اتخاذ الأوثان ، وأن يكون مفعولاً له ، والمودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان ، لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه الثاني على ما سيظهر .

ثم عقّب عليه السلام بقوله : « إنما اتخذتم » الخ ، بقوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » يبيّن لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة وهو باطن هذه المودة المقصودة الذي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم وأكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه وتوافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم ويلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض وينكره بعضهم على بعض .

والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم وتبرّيهم منهم ، كما قال تعالى : « سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » مريم : ٨٢ ، وقال : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ ، وفي معناه : تبرّي المتبوعين من تابعيهم ، كما قال تعالى : « إذ تبرّء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ ، والمراد بلعن بعضهم بعضاً لعن كل بعض صاحبه ، قال تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » الأعراف : ٣٨ .

ثم عقّب ذلك بقوله : « ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » إشارة إلى لحوق الوبال ووقوع الجزاء وهو النار التي فيها الهلاك المؤبد ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا ويتعاونوا ويتعاضدوا في الحياة لكنها عادت يوم القيامة معاداة ومضادة وأورثت تبرّياً وخذلاناً .

قوله تعالى : « فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم » أي آمن به لوط والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء والمعنى واحد .

وقوله : « وقال إني مهاجر إلى ربي » قيل الضمير راجع إلى لوط ، وقيل : راجع إلى إبراهيم ويؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين » الصافات : ٩٩ .

وكان المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه وخروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون ولا يمنعونه من عبادة ربه فعدّ المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقلي .

وقوله: «إنه عزيز حكيم» أي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » معناه ظاهر .

قوله تعالى : « وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل ويعود إلى عامله والفرق بينه وبين الاجرة أن الاجرة تختص بالجزاء الدنيوي والأجر يعم الدنيا والآخرة ، والفرق بينه وبين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا في الخير والنافع ، والجزاء يعمّ الخير والشر والنافع والضار .

والغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبودي الذي أعدّه الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب ودرجات الولاية ومنها الجنة، نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » يوسف : ٩٠ ، وقوله : « وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » يوسف : ٥٦ إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن .

فقوله: «وآتيناه أجره في الدنيا» يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوي الحسن والأنسب على هذا أن يكون « في الدنيا » متعلقاً بالأجر لا بالإيتاء وربما تأيّد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر : « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين » النحل : ١٢٢ ، فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة وإيتاؤها فعلية إعطائها دون تقديرها وكتابتها .

ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين في الآخرة من مقامات

القرب في حقه عليه السلام وإيتائه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام في قصصه من تفسير سورة الأنعام .

وقوله : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة: ١٣٠ في الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » أي وأرسلنا لوطاً أو واذكر لوطاً إذ قال لقومه ، وقوله : « إنكم لتأتون الفاحشة » إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار ، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران.

وقوله : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » استئناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكده ، وكأن المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل « لتأتون » .

قوله تعالى : «أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر» إلى آخر الآية ، استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع ولا يقبله ذو لب ولذا أكّد بالنون واللام ، وهذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط وبقطع السبيل إهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء ، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن ، وبإتيانهم المنكر في ناديهم – والنادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه ولا يسمى نادياً إلا إذا كان فيه أهله – الإتيان بالفحشاء أو بمقدّماتها الشنيعة بمرأى من الجماعة .

وقيل : المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارّة بديارهم فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأيّهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاض يقضي بذلك وقيل : بل كانوا يقطعون الطرق ، وقد عرفت أن السياق يقضي بخلاف ذلك .

وقيل : المراد بإتيان المنكر في النادي أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على من مرّ بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط ونحو ذلك ، وقد عرفت ما يقتضيه السياق.

وقوله: «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين» استهزاء وسخرية منهم ، ويظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله وقد قال الله في قصته في موضع آخر : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » القمر : ٣٦ .

قوله تعالى : « قال رب انصرني على القوم المفسدين » سؤال للفتح ودعـــاء منه عليهم ، وقد عدّهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء.

قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هـــذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » إجمال قصة هلاك قوم لوط ، وقـــد كان ذلك برسل من الملائكة أرسلهم الله أولاً إلى إبراهيم عليه‌السلام فبشّروه وبشّروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، والقصة مفصّلة في سورة هود وغيرها .

وقوله : « قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية » أي قالوا لإبراهيم ، وفي الإتيان بلفظ الإشارة القريبة – هـــذه القرية – دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم عليه‌السلام نازلاً بها ، وهي الأرض المقدسة .

وقوله : « إن أهلها كانوا ظالمين » تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قـــد استقرت فيهم رذيلة الظلم ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل : إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون .

قوله تعالى: «قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيّنه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » ظاهر السياق أنه عليه‌السلام كان يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب بأن فيها لوطاً وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب وهم أهله إلا امرأته .

لكنه عليه‌السلام لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل ، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوّفه ويزعره ويفزعه بقهره عليهم بل كان عليه‌السلام يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط ، فاجيب بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ ، فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم عليه‌السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه .

فظاهر كلامه عليه‌السلام في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جاراه الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره وأجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها وعالمون بأن فيها لوطاً ومعه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجّونه وأهله إلا امرأته ، لكن الذي أراده إبراهيم عليه‌السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير اليه آيات سورة هود .

وللقوم في قوله : « إن أهلها كانوا ظالمين » ، وقوله : « قال إن فيها لوطاً » مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى ، من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن » إلى آخر الآية ، ضميرا الجمع في « سيء بهم وضاق بهم » للرسل والباء للسببية أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاقت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء وضعف لوط من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره .

وقوله : « وقالوا لا تخف ولا تحزن » أي لا خطر محتملاً يهددك ولا مقطوعاً يقع عليك فإن الخوف إنما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع .

وقوله : « إنا منجّوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » أي الباقين في العذاب تعليل لنفي الخوف والحزن .

قوله تعالى : « إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » بيان لما يشير اليه قوله : « إنا منجّوك وأهلك » من العذاب ، والرجز العذاب .

قوله تعالى : « ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون » ضمير التأنيث للقرية

والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب .

وهي اليوم مجهولة المحل لا أثر منها وربما يقال : إن الماء غمرها بعد وهي بحر لوط ، لكن الآية ظاهرة – كما ترى – أنها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى : « وإنها لبسبيل مقيم » الحجر : ٧٦ ، وقوله : « وإنكم لتمرُّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » الصافات : ١٣٨ .

قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين » يدعوهم إلى عبادة الله وهو التوحيد وإلى رجاء اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لا يفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها – على ما ذكر في قصتهم في مواضع أخر – نقص الميزان والمكيال .

قوله تعالى : « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب ، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض وهو كناية عن الموت والمعنى : فكذبوا شعيباً فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهم .

وقال في قصتهم في موضع آخر : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » هود : ٩٤ . ويستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحة والرجفة .

قوله تعالى : « وعاداً وثمود قد تبين لكم من مساكنهم » إلى آخر الآية غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد وثمود وكذا في الآية التالية بدأ بذكر قارون وفرعون وهامان بخلاف قصص الامم المذكورين سابقاً حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب . وقوله : « وعاداً وثمود » منصوبان بفعل مقدَّر تقديره واذكر عاداً وثمود .

وقوله : « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة إليهم وتأكيد تعلقهم بها وصده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة ، ولذا قال بعضهم : إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطرة الساذجة .

لكن الظاهر كما تقــدم في تفسير قوله : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح عليه‌السلام وعاد وثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله ودين التوحيد وهو دين الفطرة .

قوله تعالى:«وقارون وفرعون وهامان وقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين » السبق استعارة كنائية من الغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فكلاً أخذنا بذنبــه » إلى آخر الآية أي كل واحدة من الامم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل فقال :« فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » والحاصب الحجارة وقيل : الريح التي ترمي بالحصا وعلى الأول فهم قوم لوط ، وعلى الثاني قوم عاد « ومنهم من أخذته الصيحة » وهم قوم ثمود وقوم شعيب « ومنهم من خسفنا به الأرض » وهو قــارون « ومنهم من أغرقنا » وهم قوم نوح وفرعون وهامان وقومها .

ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة وما انتهى إليه أمر تلك الامم من الأخذ والعذاب فبين ببيان عام أن الذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال :« وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنــة والامتحان وهي السنة الالهية التي لا معدل عنها فمن أهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضلّ فعليها .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه‌السلام في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال : والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة قال تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحيــاة الدنيا ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » يعني يتبرأ بعضكم من بعض . الحديث .

أقول : وروى هذا المعنى في التوحيد عن علي عليه‌السلام في حديث طويل يجيب فيه عما سئل عنه من تهافت الآيات وفيه : والكفر في هذه الآية البراءة يقول : يتبرأ

بعضهم من بعض،ونظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان: « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » وقول إبراهيم خليل الرحمن : « كفرنا بكم « أي تبرأنا » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي ﷺ نهى عن الخذف [١] وهو قول الله : « وتأتون في ناديكم المنكر » .

أقول : وروى هـذا المعنى أيضاً عن عدة من أصحاب الجوامع عن ام هاني بنت أبي طالب ولفظ الحديث: قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: « وتأتون في ناديكم المنكر» قال :كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل ويسخرون منهم.

وفي الكافي بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال : فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا : في إهلاك قوم لوط . فقال لهم : إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم ؟ فقال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيها خمسون ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها ثلاثون ؟ قال : لا. قال: فإن كان فيها عشرون ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها عشرة ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها خمسة ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها واحد ؟ قال : لا . قال : فإن فيها لوطاً ؟ قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

قال الحسن بن علي عليه السلام : لا أعلم هـذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عز وجل : « يجادلنا في قوم لوط » .

* * *

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ــ ٤١ . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ــ ٤٢ .

---

(١) الخذف بالحصاة والنواة الرمي بها من بين السبابتين .

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ــ ٤٣ . خَلَقَ
اللهُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ــ ٤٤ .
أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ
ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ــ ٤٥ .
وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ــ ٤٦ . وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ فَٱلَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ ــ ٤٧ . وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ــ ٤٨ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ
فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ــ ٤٩ .
وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ
وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ــ ٥٠ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ
يُتْلٰى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرٰى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ــ ٥١ . قُلْ كَفٰى
بِٱللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا
بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ــ ٥٢ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ــ ٥٣ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ــ ٥٤ . يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٥٥ .

(بيان)

تتضمن الآيات تذييلاً لقصص اولئك الامم الماضية الهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولياء من دون الله فبيّن فيه أن بناءهم ذلك أوهن البناء ينادي ببطلانه وفساده خلق السماوات والأرض وأنهم ليس لهم من دونه من وليّ كما يذكره هذا الكتاب.

ومن هنا ينتقل إلى أمر النبي ﷺ بتلاوة هذا الكتاب الذي أوحي اليه وإقامة الصلاة ودعوة أهل الكتاب بقول ليّن ومجادلة حسناء ويجيب عن اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غير القرآن وأن يعجّلهم بالعذاب الذي ينذرهم به .

قوله تعالى : «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً» إلى آخر الآية ، العنكبوت معروف ويطلق على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث .

العناية في قوله : « مثل الذين اتخذوا » الخ ، باتخاذ الأولياء من دون الله ولذا جيء بالموصول والصلة كما أن العناية في قوله : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » إلى اتخاذها البيت فيؤل المعنى إلى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتاً له نبأ ، وهو الوصف الذي يدل عليه تنكير « بيتاً » .

ويكون قوله : « إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » بياناً لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت ولم يقل : إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير .

والمعنى : أن اتخاذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولونهم ويركنون

اليهم كاتخاذ العنكبوت بيتاً هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكنُّ شخصاً ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرُّون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ومورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله ، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدبيراً لشأنهم من جلب الخير اليهم ودفع الشر عنهم والشفاعة في حقهم .

والآية – مضافاً إلى إيفـاء هذه النكتة – تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الامور وشأن من الشؤن ولياً من دون الله يركن اليه ويراه مستقلاً في أثره الذي يرجوه منه وإن لم يعدّ من الأصنام إلا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة والمؤمنين كما قال تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» يوسف:١٠٦.

وقوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت مـا اتخذوهم أولياء . كذا قيل .

قوله تعالى : « إن الله يعلم مـا يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » يمكن أن يكون « ما » في « ما يدعون » موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و « من » في « من شيء » على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح الإحتمالات الأولان وأرجحها أولهما .

والمعنى : على الثـاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أي أن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيداً للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً .

والمعنى : على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه ولا يجهـل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله ، وليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها .

ويؤكد هـــذا المعنى الإسمان الكريمان : العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فـــلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق والإيجاد أحد ، الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوّض تدبير خلقه إلى أحد ، وهذا كالتمهيد لما سيبيّن في قوله : « خلق الله السماوات والأرض بالحق » .

قوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلها إلا العالمون » يشير إلى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تقرع أسماع عامة الناس، لكن الإشراف على حقيقة معانيها ولبّ مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الامور ولا ينجمد على ظواهرها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « ولا يعقلها » دون أن يقول : وما يؤمن بها أو ما في معناه .

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلا تلقّي ألفاظها وتصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها وسبر لأغوارها، ومن سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها الأنيقة .

وفيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتاً هو أوهن البيوت ليس بمجرد تمثيل شعري ودعوى خاليـة من البيّنة بل متّـك على حجة برهانية وحقيقة حقة ثابتة وهي التي تشير اليه الآية التالية .

قوله تعالى : « خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين » المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها، كما قال تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لا يتغير وسنة إلهية جارية لا تختلف ولا تتخلف ، والخلق والتدبير لا يختلفان حقيقة ولا ينفك أحدهما عن الآخر[١] ، وإذ كان الخلق والصنع ينتهي اليه تعالى انتهاء ضرورياً ولا محيص فالتدبير أيضاً له ولا محيص وما من شيء غيره تعالى إلا وهو مخلوقه القائم بـه المملوك له لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ومن المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنياً

---

(١) وذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون ومعناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم وترتيب يؤدي الى غايات حقة وحقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق والايجاد باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله وانضمامه اليه فليس وراء الخلق والايجاد شيء منه .

في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه .

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئاً بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جارياً على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير اليه لعباً منه تعالى وتقدّس إذ ليس إلا فرضاً لا حقيقة له ووهماً لا واقع له وهو معنى اللعب.

ومنه يظهر أن ولاية من يدّعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت العنكبوت كذلك .

وقوله : « إن في ذلك لآية للمؤمنين » تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم ولغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم .

قوله تعالى : « اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » الخ ، لما ذكر إجمال قصص الامم وما انتهى اليه شركهم وارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من ذلك – مستأنفاً للكلام – إلى أمره ﷺ بتلاوة ما أوحي اليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك وارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججاً نيرة على الحق وتشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تاليه ومن سمعه .

وشفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خير العمل وعلل ذلك بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة .

فلطبيعة هذا التوجه العبادي – إذ أتى به العبد وهو يكرره كل يوم خمس مرات ويداوم عليه وخاصة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتم فيه بما اهتم به – أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشنعه الذوق الديني كقتل النفس عدواناً وأكل مال اليتيم ظلماً والزنا واللواط ، وعن كل ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاً جامعاً بين التلقين والعمل .

وذلك أنه يلقنه أولاً بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيته تعالى والرسالة وجزاء يوم الجزاء وأن يخاطب ربه بإخلاص العبادة والاستعانة به وسؤال الهداية إلى صراطه

المستقيم متعوذاً من غضبه ومن الضلال ، ويحمله ثانياً على أن يتوجه بروحه وبدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء ويذكر ربه بحمده والثناء عليه وتسبيحه وتكبيره ثم السلام على نفسه وأترابه وجميع الصالحين من عباد الله .

مضافاً إلى حمله إياه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرُّز عن الغضب في لباسه ومكانه واستقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتة ، ولو أنك وكلت على نفسك من يربيها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتحلى بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاة ولا روّضك بأزيد مما تروّضك به .

وقد استشكل على الآية بأنا كثيراً ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر ولا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر .

ولذلك ذكر بعضهم أن الصلاة في الآية بمعنى الدعاء والمراد الدعوة إلى أمر الله والمعنى : أقم الدعوة إلى أمر الله فإن ذلك يردع الناس عن الفحشاء والمنكر . وفيه أنه صرف الكلام عن ظاهره .

وذكر آخرون أن الصلاة في الآية في معنى النكرة والمعنى أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو كذلك وليس المراد الاستغراق حتى يرد الإشكال .

وذكر قوم أن المراد نهيها عن الفحشاء والمنكر ما دامت قائمة والمصلي في صلاته كأنه قيل : إن المصلي ما دام مصلياً في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء والمنكر .

وقال بعضهم : إن الآية على ظاهرها والصلاة بمنزلة من ينهى ويقول : لا تفعل كذا ولا تقترف كذا لكن النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهي الصلاة بأعظم من نهيه تعالى كما في قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » النحل ٩٠ ، ونهيه تعالى لا يستوجب الانتهاء وليس الإشكال إلا مبنياً على توهم استلزام النهي للانتهاء وهو توهم باطل .

وعن بعضهم في دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى : « أقم

الصلاة لذكري » ومن كان ذاكراً لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه وكل من تراه يصلي ويأتي بالفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يصل لكان أشد إتياناً فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره .

وأنت خبير بأن شيئاً من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم والتعليل في الآية فإن الذي يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء والمنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر وتتطهر عن قذارة الذنوب والآثام .

فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني، ولا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلاً بها كما في الجواب الثالث ، ولا أن المراد هو التوسل إلى تلقّي نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها كما في الجواب الرابع، ولا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس .

فالحق في الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجّه خاص عبادي إلى الله سبحانه وهو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب والعلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التي تضعّف الذكر وتقربه من الغفلة والانصراف عن حاق الذكر فكلما قوي الذكر وكمل الحضور والخشوع وتمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر وكلما ضعف ضعف الأثر .

وأنت إذا تأملت حال بعض من تسمّى بالإسلام من الناس وهو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم والحج والزكاة والخمس وعامة الواجبات الدينية ولا يفرق بين طاهر ونجس وحلال وحرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثم إذا قست اليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعاً عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست اليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعاً منه وعلى هذا القياس .

وقوله : « ولذكر الله أكبر » قال الراغب في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره . وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل:الذكر ذكران ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، وكل قول يقال له ذكر . انتهى .

والظاهر أن الأصل فيمعناه هو المعنىالأول وتسمية اللفظ ذكراً إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي والذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل .

والصلاة تسمى ذكراً لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل وتحميد وتنزيه وهي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثل لعبودية العبد لله سبحانه كما قال : « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » الجمعة : ٩ ، وهي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير اليه قوله تعالى : « وأقم الصلاة لذكري » طه : ١٤ .

والذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسياناً أو إدامة استحضاره ، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان وأعلاه كعباً وأعظمه قدراً وأثراً فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للانسان ومفتاح كل خير .

ثم إن الظاهر من سياق قوله:«وأقمالصلاة إن الصلاة تنهى عنالفحشاء والمنكر» أن قوله : « ولذكر الله أكبر» متصل به مبين لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما بيّن قبله، فيقع قوله : « ولذكر الله أكبر » موقع الاضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنه قيل : أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر بل الذيتفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي منالنهي عن الفحشاء والمنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير والنهي عن الفحشاء والمنكر بعض الخير .

ومن المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة

والجملة أيضاً واقعة موقع الإضراب ، والمعنى : بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هـذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و « ذكر الله » على الاحتمالين جميعاً من المصدر المضاف إلى مفعوله والمفضل عليه لقوله : « أكبر » هو النهي عن الفحشاء والمنكر .

ولهم في معنى الذكر وكون المضاف اليه فاعلاً أو مفعولاً للمصدر وكون المفضل عليه خاصاً أو عاماً أقوال أخر .

فقيل : معنى الآية : ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعـالى وذلك أن الله تعالى يذكر من ذكره لقوله : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ ، وقيل : المعنى : ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة ، وقيل: المعنى: لذكر الله العبد أكبر من كل شيء.

وقيل : المعنى : لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل: المعنى : لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة ، وقيل : المعنى : لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله ، وقيل : المعنى : للصلاة أكبر من سائر الطاعـات ، وقيل : المعنى : لذكر العبد لله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما أكبر من زجر الصلاة وردعها ، وقيل : إن قوله : « أكبر » معرّى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضّل عليه كقوله : « ما عند الله خير من اللهو » .

فهذه أقوال لهم متفرقة أغمضنا عن البحث عما فيها إيثاراً للاختصار ، والتدبر في الآية يكفي مؤنة البحث على أن التحكم في بعضها ظاهر لا يخفى .

وقوله: «والله يعلم ما تصنعون» أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حث وتحريض على المراقبة وخاصة على القول الأول .

قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » لمـا أمر في قوله : « اتل ما أوحي اليك » الخ ، بالتبليغ والدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقّبه ببيان كيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس والصابئون - إلا بالمجادلة - التي هي أحسن المجادلة .

والمجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظاً وطعناً وإهانة ، فمن حسنها أن تقارن

رفقاً وليناً في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنو منه حتى يتفقا ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسناً على حسن فكانت أحسن .

ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم ، فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين والاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجدال نوع مذلة وهوان للمجادل ويعتبره تمويهاً واحتيالاً لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادلة بالأحسن .

ولهذا أيضاً عقّب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم وبناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحق فقال : « وقولوا آمنا بالذي أُنزل الينا وأُنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » أي على تلك الصفة وهي الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله أنزلنا اليك القرآن .

وقيل : المعنى : مثل ما أنزلنا إلى موسى وعيسى الكتاب أنزلنا اليك الكتاب وهو القرآن .

فقوله : « فالذين آتيناهم الكتاب » الخ ، تفريع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلاً في الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله ، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يجحد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلا الكافرون وهم الساترون للحق بالباطل .

وقد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين والمشار اليه بهؤلاء أهل الكتاب وهو بعيد، ومثله في البعد إرجاع الضمير في «يؤمن به» إلى النبي ﷺ .

وفي قوله : « ومن هؤلاء من يؤمن به » نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط ، والمراد به

في الآية الثاني بقرينة المقـام ، والخط الكتابة ، والمبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول ، ويقـال أيضاً للذي يبطل الحق أي يدّعي بطلانه ، والأنسب في الآية المعنى الثاني وإن جاز أن يراد المعنى الأول .

وظاهر التعبير في قوله : « ومـا كنت تتلو » الخ ، نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر : « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » يونس : ١٦ .

وقيل المراد به نفي القدرة أي مـا كنت تقدر أن تتلو وتخط من قبله والوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجة وقد أقامها لتثبيت حقية القرآن ونزوله من عنده.

وتقييد قوله : « ولا تخطه » بقوله : « بيمينك » نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل : رأيته بعيني وسمعته باذني .

والمعنى: وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتاباً ولا كان من عادتك أن تخط كتاباً وتكتبه – أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك أمياً – ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لمـا لم تحسن القراءة والكتابة واستمرت على ذلك وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم ومعاشرتك معهم لم يبق محل ريب لهم في أمر القرآن النازل اليك أنه كلام الله تعالى وليس تلفيقاً لفـّقته من كتب السابقين ونقلتـه من أقاصيصهم وغيرهم حتى يرتاب المبطلون ويعتذروا به .

قوله تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» إضراب عن مقدر يستفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه ﷺ التلاوة والخط معاً تحصّل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله : « بل هو – أي القرآن – آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .

وقوله : « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عناداً وتعنتاً .

قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين »لما ذكر الكتاب وأمر النبي ﷺ أن يتلوه ويدعوهم اليه به وأن منهم

من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية والآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة واقتراحهم على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه .

فقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه » اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضاً منهم أنه ليس بآية وزعماً منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد ، وفي قولهم : لولا أنزل عليه ، دون أن يقولوا : لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

وقوله : « قل إنما الآيات عند الله » جواب عن زعمهم أن من يدّعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبي شيء إلا أن يشاء الله ثم زاده بياناً بقصر شأن النبي ﷺ في الإنذار فحسب بقوله : « إنما أنا نذير مبين » .

قوله تعالى : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » إلى آخر الآية توطئة وتمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية ، والاستفهام للانكار والخطاب للنبي ﷺ أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملوّ رحمة وتذكرة للمؤمنين .

قوله تعالى : « قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً » إلقاء جواب إلى النبي ﷺ ليجيبهم به وهو أن الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما نتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فإنه سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله عليّ برسالتي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يجهل شيئاً وكفى بشهادته لي دليلا على دعواي .

وليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات ومنه يعلم أن قوله : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطابياً بل هو بيان استدلالي وحجة قاطعة على ما عرفت .

وقوله : « والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون » قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة وهم بكفرهم بالله

الحق يؤمنون بالباطل ولذلك خسروا في إيمانهم .

قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله : « ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولنّ ما يحبسه » هود : ٨ .

والمراد بالأجل المسمى هو الذي قضاه لبني آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال: « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ ، وقال : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف : ٣٤ .

وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً » الكهف : ٥٨ ، ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إمهال وإنظار ، قال تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أسرى : ٥٩ .

قوله تعالى : « يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب » إلى آخر الآية ، تكرار « يستعجلونك » للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولاً واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم يجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانياً .

والغشاوة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة ، وقوله: « يوم يغشاهم » ظرف لقوله: « محيطة » والباقي ظاهر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « وما يعقلها إلا العالمون » روى الواحدي بالإسناد عن جابر قال : تلا النبي ﷺ هـذه الآية وقال : العالم الذي يعقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه .

وفيه في قوله تعـالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً.

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عمران بن الحصين وابن مسعود وابن عبـاس وابن عمر عنه ﷺ ورواه القمي في تفسيره مضمراً مرسلاً .

وفيه وأيضاً عن النبي ﷺ : لا صلاة لمن لم تطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مسعود وغيره .

وفيه وروى أنس أن فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال : إن صلاته تنهاه يوماً ما .

وفيه روى أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أحبّ أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل،فلينظر هل منعته صلاته عنالفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت صلاته.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: « ولذكر الله أكبر » يقول : ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه ، ألا ترى أنه يقول : « اذكروني أذكركم » .

أقول : وهذا أحد المعاني التي تقدم نقلها .

وفي نور الثقلين عن مجمع البيان وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ذكر الله عندما أحلّ وحرّم .

وفيه عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل .

وفيه وقال ﷺ: يا معاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل ومن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز وجل .

وفي الكافي بإسناده عنالعبدي عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل:«بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » قال : هم الأئمة .

أقول : وهـذا المعنى مروي في الكافي وفي بصائر الدرجات بعدة طرق : وهو من الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية .

وفي البصائر بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قلت له : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فقال : أنتم هم من عسى أن يكونوا؟

وفي الدر المنثور أخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة قال : كان ناس من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : إن أحمق الحمق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم ثم أنزل الله : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الآية .

وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن أبي مليكة قال: أهدى عبدالله بن عامر بن كريز إلى عائشة هدية فظنت أنه عبد الله بن عمر فردتها وقالت : يتتبّع الكتب وقد قال الله : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر فقبلتها .

أقول : ظاهر الروايتين وخاصة الاولى نزول الآية في بعض الصحابة وسياق الآيات يأبى ذلك .

* * *

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ـ ٥٦ .
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ـ ٥٧ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ـ ٥٨ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ـ ٥٩ . وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ـ ٦٠ .

(بيان)

لما استفرغ الكلام في توبيخ من ارتدّ عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة عطف الكلام على بقية المؤمنين ممن استضعفه المشركون بمكة وكانوا يهددونهم بالفتنة والعذاب فأمرهم أن يصبروا ويتوكلوا على ربهم وأن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين وإقامة فرائضه ، وأن لا يخافوا أمر الرزق فإن الرزق على الله سبحانه وهو يرزقهم إن ارتحلوا وهاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم .

قوله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » توجيه للخطاب إلى المؤمنين الذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحق والاستنان بسنته ويدل على ذلك ذيل الآية .

وقوله : « إن أرضي واسعة » الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض التي نعيش عليها وإضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت ، ووسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق والعمل به فهناك نواحٍ غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال .

وقوله : « فإياي فاعبدون » الفاء الاولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي والفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام والظاهر أن تقديم « إياي » لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى : لا تعبدوا غيري بل اعبدوني ، وقوله : « فاعبدون » قائم مقام الجزاء .

ومحصل المعنى : أن أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي اخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها واعبدوني وحدي فيها .

قوله تعالى : «كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » الآية تأكيد للأمر السابق في قوله : « فإياي فاعبدون » وكالتوطئة لقوله الآتي : « الذين صبروا » الخ .

وقوله : « كل نفس ذائقة الموت » من الاستعارة بالكناية والمراد أن كل نفس

ستموت لا محالة ، والالتفات في قوله : « ثم إلينا ترجعون » من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

ومحصّل المعنى: أن الحياة الدنيا ليست إلا أياماً قلائل والموت وراءه ثم الرجوع الينا للحساب فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا – وهي زينة فانية – عن التهيىء للقاء الله بالإيمان والعمل ففيه السعادة الباقية وفي الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنهـّم من الجنة غرفاً » الخ ، بيان لأجر الإيمان والعمل الصالح بعـــد الموت والرجوع إلى الله وفيه حثّ وترغيب للمؤمنين على الصبر في الله والتوكل على الله، والتبوئة الإنزال على وجه الاقامة، والغرف جمع غرفة وهي في الدار ، العليّة العالية .

وقد بيّن تعالى أولاً ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: « ونعم أجر العاملين » ثم فسر العاملين بقوله : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » فعاد بذلك الصبر والتوكل سمة خاصة للمؤمنين فدلّ بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله وتوكل عليه ، فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى وجفوة ما يجـد إلى العيشة الدينية سبيلاً فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج وليهاجر إلى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله.

قوله تعالى : « الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وصف للعاملين ، والصبر أعم من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر على المعصية ، وإن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة .

قوله تعالى : « وكأين من دابـــة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » كأين للتكثير،وحمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الانسان والنمل والفار والنحل من سائر الحيوان .

وفي الآية تطييب لنفس المؤمنين وتقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا ولا يموتون جوعاً فرازقهم ربهم دون أوطانهم ، يقول : وكثير من

الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله ويرزقكم معاشر الآدميين الذين يدّخرون الأرزاق وهو السميع العليم .

وفي تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجة على مضمونها وهو أن الانسان وسائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم اليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه ومقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة » يقول : لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة ، وهو يقول : « فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وفي المجمع : وقال أبو عبدالله عليه‌السلام : معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها الى غيرها .

وفي العيون بإسناده إلى الرضا عليه‌السلام قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لما نزلت « إنك ميت وإنهم ميتون » قلت : يا رب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء ؟ فنزلت « كل نفس ذائقة الموت » .

اقول : ورواه أيضاً في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي، ولا يخلو متنه عن شيء فإن قوله :« إنك ميت وإنهم ميتون » يخبر عن موته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وموت سائر الناس، وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله : أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء .

وفي المجمع عن عطاء عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي : يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله . قال : أنا أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر

إذا بقيت مع قوم يخبؤن رزق سنتهم لضعف اليقين فوالله ما برحنا حتى نزلت «وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم».

اقول: وقد روى الرواية في الدر المنثور وضعّف سندها وهي مع ذلك لا تلائم وقوع الآية في سياق ما تقدمها.

* * *

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ ـــ ٦١. اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ
عِبٰادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ـــ ٦٢. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ ـــ ٦٣. وَمٰا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ
لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ـــ ٦٤.
فَإِذٰا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ ـــ ٦٥. لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ـــ ٦٦. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ـــ ٦٧. وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ ـــ ٦٨. وَالَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَإِنَّ
اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ـــ ٦٩.

(بيان)

الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المعنى خطاب عام يشمل الجميع وإن كان في اللفظ خاصاً به صلى الله عليه وآله وسلم لأن الحجج المذكورة فيها مما يناله الجميع.

والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما ألقي في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فإنهم يعترفون أن خالق السماوات والأرض ومدبر الشمس والقمر – وعليهما مدار الأرزاق – هو الله وأن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم وهم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره ويقيمون في حرم آمن وهو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل ويجحدون الحق ويكفرون بنعمة الله .

وما ختمت به السورة من قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » يلائم ما في مفتتح السورة « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون – إلى أن قال – ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » الخ .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » .

خلق السماوات والأرض من الايجاد وتسخير الشمس والقمر – وذلك بتحويل حالاتها بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض – من التدبير الذي يتفرّع عليه كينونة أرزاق الإنسان وسائر الحيوان وهذا الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر .

وإذا كان الله هو الخالق وبيده تدبير السماوات ويتبعه تدبير الأرض وكينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق وسائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئاً وهو قوله : « فأنى يصرفون » أي فإذا كان الخلق وتدبير الشمس والقمر اليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام وعبادته .

قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء

عليم » في الآية تصريح بما تلوح اليه الآية السابقة ، والقدر التضييق ويقابله البسط والمراد به لازم معناه وهو التوسعة ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : « إن الله بكل شيء عليم » للدلالة على تعليل الحكم ، والمعنى : وهو بكل شيء عليم لأنه الله .

والمعنى : الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء – ولا يشاء إلا على طبق المصلحة – لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها – إلى قوله – لا يعقلون » المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في الربيع .

وقوله : « قل الحمد لله » أي أحمد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام .

وقوله : « بل أكثرهم لا يعقلون » أي لا يتدبرون الآيات ولا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله ويميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل .

قوله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» اللهو ما يلهيك ويشغلك عما يهمك فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان وتشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية .

واللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاماً خيالياً لغاية خيالية كملاعب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه ويتولعون به ساعة ثم يتفرقون وسرعان ما يتفرقون .

على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليه الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدم والتصدّر والرئاسة والمولوية والخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيئاً منها إلا في ظرف الوهم والخيال .

وأما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمة التي لا لهو في الاشتغال بها والجد الذي لا لعب فيها ولا لغو ولا تأثيم ، والبقاء الذي لا فناء معه ، واللذة التي لا ألم عندها ، والسعادة التي لا شقاء دونها ، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة .

وهذا معنى قوله سبحانه : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » .

وفي الآية – كما ترى – قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة اليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كإنّ واللام وضمير الفصل والجملة الإسمية .

وقوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا .

قوله تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » تفريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيراً منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد فإذا ركبوا « الخ » .

والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعدّ بنفسه وتعديته في الآية بفي لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه ، والمعنى : فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين ، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضاً آخر وكفراناً للنعمة .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » اللام في « ليكفروا » و « ليتمتعوا » لام الأمر وأمر الآمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده : « افعل ما شئت » ، قال تعالى : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » حم السجدة : ٤٠ .

واحتمل كون اللام للغاية ، والمعنى : أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة التي آتيناهم وإلى التمتع ، وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية : « فسوف يعلمون » ، ويؤيده قوله في موضع آخر : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » الروم : ٣٤ ، ولذا قرأه من قرأ « وليتمتعوا » بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر .

قوله تعالى : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » الحرم الآمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله مأمناً بدعاء إبراهيم عليه‌السلام والتخطف

كالخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور والتناهب ولا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنهم يحترمون الحرم ولا يتعرضون لمن أقام بها فيها .

والمعنى : أو لم ينظروا أنا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب والحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم .

وقوله : « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلا الاسم .

قوله تعالى: « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشد الظلم وأعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة وأن الله اتخذهم شركاء لنفسه ، وتكذيب الإنسان بالحق لما جاءه والوصفان جميعاً موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام وكذّبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون ومثوى الكافرين ومحل إقامتهم في الآخرة جهنم .

قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس كذا ذكره الراغب .

وقوله: « جاهدوا فينا » أي استقر جهادهم فينا وهو استعارة كنائية عن كون جهده مبذولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد وعمل ، فلا ينصرف عن الإيمان به والإئتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه .

وقوله : « لنهدينهم سبلنا » أثبت لنفسه سبلاً وهي أيضاً كانت تنتهي اليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل وهو غايتها فسبله هي الطرق المقربة منه والهادية اليه تعالى، وإذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبل هداية على هداية فتنطبق على مثل قوله تعالى: « والذين اهتدوا زادهم هدى » محمد : ١٧ .

ومما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: « فينا » إلى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا .

وقوله : « وإن الله لمع المحسنين » قيل : أي معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج اليهما قرينة قوية على إرادة ذلك . انتهى . وهو وجه حسن وأحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة والعناية فيشمل معية النصرة والمعونة وغيرهما من أقسام العنايات التي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم وشمول رحمته لهم ، وهذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينبىء عنه قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور .

وفيه أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا والعرب أكثر منا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله : « أوَلم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً » الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشياعهم .

(سورة الروم مكية ، وهي ستون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . الٓمٓ ــ ١ . غُلِبَتِ الرُّومُ ــ ٢ . فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ــ ٣ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ــ ٤ . بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ــ ٥ . وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ــ ٦ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ــ ٧ . أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ــ ٨ . أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ــ ٩ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ ــ ١٠ . اللهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ــ ١١ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ــ ١٢ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَوا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ـ ١٣.
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ـ ١٤. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ـ ١٥. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ـ ١٦. فَسُبْحَانَ
اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ـ ١٧. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ـ ١٨. يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ
تُخْرَجُونَ ـ ١٩.

(بيان)

تفتتح السورة بوعد من الله وهو أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السورة عن الفرس ثم تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد بيوم يرجع الكل فيه إلى الله وتقيم الحجة على المعاد ثم تنعطف إلى ذكر آيات الربوبية وتصف صفاته تعالى الخاصة به ثم تختتم السورة بوعد النصر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتؤكد القول فيه إذ تقول : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » وقد قيل قبيل ذلك : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ».

فغرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصره دينه وقد قدّم عليه نصر الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد ، وكذا يحتج به ومن طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامة لا ريب فيه .

قوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض » الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطورية وسيعة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريباً من الحجاز فغلبت الفرس وانهزمت الروم ، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للعهد .

قوله تعالى : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ضمير الجمع الأول للروم وكذا الثالث وأما الثاني فقد قيل إنه للفرس والمعنى: والروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون ، ويمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول والضمير للروم كالضميرين قبلها وبعدها فلا تختلف الضمائر والمعنى : والروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون . والبضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

قوله تعالى : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قبل وبعد مبنيان على الضمّ فهناك مضاف اليه مقدّر والتقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

وقيل : المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين ووقت كونهم غالبين والمعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحاً متعيناً .

قوله تعالى : «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم» الظرف متعلق بيفرح وكذا قوله «ينصر» والمعنى: ويوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم ، ثم استأنف وقال : « ينصر من يشاء » تقريراً لقوله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

وقوله : وهو العزيز الرحيم » أي عزيز يعزّ بنصره من يشاء رحيم يخصّ برحمته من يشاء .

وفي الآية وجوه أخر ضعيفة ذكروها :

منها : أن قوله : « ويومئذ » عطف على قوله : « من قبل » والمراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال كأنه قيل: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ ثم ابتدأ وقيل : يفرح المؤمنون بنصر الله . وفيه أنه يبطل

انسجام الآية وينقطع به آخرها عن أولها .

ومنها : أن قوله : « بنصر » متعلق بقوله : « المؤمنون » دون « يفرح » ويدل بالملازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله .

وفيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس ويوم غلبة الروم جميعاً فإن في الغلبة نصراً وكل نصر من الله قال تعالى : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران:١٢٦ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه.

ومنها: أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس وإن توافق النصران زماناً فكأنه قيل : إن الروم سيغلبون في بضع سنين ويوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم .

وفيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد : « ينصر من يشاء » .

ومنها:أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم،وقيل:النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض وتفرق كلمتهم وانكسار شوكتهم . وهذان وما يشبههما وجوه لا يعبؤ بها .

قوله تعالى : « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون »«وعد الله » مفعول مطلق محذوف العامل والتقدير وعد الله وعداً وإخلاف الوعد خلاف إنجازه وقوله : « وعد الله » تأكيد وتقرير للوعد السابق في قوله : « سيغلبون » و « يفرح المؤمنون»كما أن قوله:«لا يخلف الله وعده » تأكيد وتقرير لقوله:«وعد الله».

وقوله : « لا يخلف الله وعده » كقوله : « إن الله لا يخلف الميعاد » الرعد: ٣١ وخلف الوعد وإن لم يكن قبيحاً بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال .

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائماً ويستحيل النقص عليه تعالى .

على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد وهو أصدق الصادقين وهو القائل عز من قائل : « والحق أقول » ص : ٨٤ .

وقوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي هم جهلاء بشؤنه تعالى لا يثقون بوعده ويقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق ويكذب وينجز ويخلف .

قوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » جملة « يعلمون » على ما ذكره في الكشاف بدل من قوله : « لا يعلمون » وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى .

وقيل : الجملة استئنافية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق وأن لله الأمر من قبل ومن بعد وأنه ينصر المؤمنين على الكافرين . انتهى وهذا أظهر .

وتنكير « ظاهراً » للتحقير وظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها وهو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها والعكوف عليها والإخلاد اليها ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها والغفلة عما فيه خيرهم ونفعهم بحقيقة معنى الكلمة .

وقيل : الظهور في الآية بمعنى الزوال واستشهد بقوله :

وعيّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمعنى : يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال .

قوله تعالى : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى » الخ المراد من خلق السماوات والأرض وما بينهما – وذلك جملة العالم المشهود – بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد ويعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض وغاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها .

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق وكل آت خلفاً لماضيه بل هو بأجزائه فانٍ بائد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله : « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما » بقوله : « وأجل مسمّى » بعد تقييده بقوله : « إلا بالحق » .

فقوله : « أولم يتفكروا في أنفسهم » الاستفهام للتعجيب ، وكونهم في أنفسهم استعارة كنائية عن فراغ البال وحضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بامور الدنيا وسعيهم للمعيشة وتشوّش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين

في أنفسهم فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرق فيهديهم إلى الحق ويرشدهم إلى الواقع .

وقيل : المراد بتفكرهم في أنفسهم أن يتفكروا في خلق أنفسهم وأن الواحد منهم محدث والمحدث – بالفتح – يحتاج الى محدث – بالكسر – قديم حي قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثاً بل لغاية مطلوبة وليست تعود اليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق وهو الثواب ولا يكون إلا لصالح العمل فلا بد من دين مشرّع يميز العمل الصالح من السيء فلا بد من دار يمتحنون فيها وهي الدنيا ودار يثابون فيها وهي الآخرة.

وفيه أن الجملة أعني قوله : « أو لم يتفكروا في أنفسهم » صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله : « ما خلق الله السماوات » الخ ، بها يأباه لاستلزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية وذيلها على هذا التقدير .

وقوله : « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم وتقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلاً ولا بعضاً إلا خلقاً ملابساً للحق أو مصاحباً للحق أي لغاية حقيقية لا عبثاً لا غاية له ولا إلى أجل معين فلا يبقى شيء منها إلى ما لا نهاية له بل يفنى وينقطع وإذا كان كل من أجزائه والمجموع مخلوقاً ذا غاية تترتب عليها وليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده وفنائه ، وهذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا وفنائها .

وقوله : « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم كافرون » مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب ، والمراد بلقاء الله هو الرجوع اليه في المعاد ، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يبتدئوا منه ثم لا ينتهوا اليه ، ولذلك أكده بإن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به .

قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى آخر الآية ، لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكّرهم حال الامم الكافرة وما انتهت اليه من سوء العذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر . وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك .

وقوله : « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي بالكفر والمعاصي .

قوله تعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » بيان لما انتهى اليه أمر أولئك الظالمين ولذا عبّر بثم ، و « عاقبة » بالنصب خبر كان واسمه « السوآى » قدّم الخبر عليه لإفادة الحصر و «أساؤا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، والسوآى الخلة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و«أن كذبوا بآيات الله» بحذف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

والمعنى : ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى اليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها .

وقيل : إن « السوآى » مفعول لقوله : « أساؤا » وخبر كان هو قوله : « أن كذبوا » الخ، والمراد أن المعاصي ساقتهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها.

وفيه : أنه في نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأن المقام مقام الاعتبار والإنذار والمناسب له بيان انتهاء معاصيهم الى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرقة الى التكذيب والاستهزاء الذي هو أعظمها .

قوله تعالى : « الله يبدء الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون » بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخّص القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع اليه الجميع ، والمراد بالخلق المخلوقون ، ولذا أرجع اليه ضمير الجمع في « ترجعون » .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع اليه تعالى للحساب والجزاء ، والإبلاس اليأس من الله وفيه كل الشقاء .

قوله تعالى : « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكانوا بعبادة شركائهم كافرين سائرين .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون – إلى قوله – محضرون » قال

في المجمع : الروضة البستان المتناهي منظراً وطيباً . انتهى. وقال في المفردات : الحبر الأثر المستحسن – إلى أن قال – وقوله عز وجل: « في روضة يحبرون » أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم . انتهى .

والمراد بتفرّق الخلق يومئـذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين ودخول هؤلاء النار ودخول اولئك الجنة على ما يشير اليه الآيتان التاليتان .

ولزوم هذا التميّز والتفرّق في الوجود هو الذي أخـذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » الجاثية : ٢١ .

قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمـد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون » لما ذكر أنه يبدء الخلق ثم يعيدهم ويرجعهم للقـائه فيفرّقهم طائفتين : أهل الجنة والنعمة وأهل النار والعذاب ، أما أهل الجنـة فهم المؤمنون العاملون للصالحات وأما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله وقد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة ونعمـة لكنهم نسوا الآخرة وكذبوا بآيات الله واستهزؤا بها حتى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فتحصّل من ذلك أن في دار الخلقة تدبيراً إلهياً متقناً صالحاً جميلاً على أجمل ما يكون وأن للانسان على توالي الأزمنة والدهور آثاماً وخطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه واتخاذ شركاء له وإنكار لقائه إلى سائر المعاصي .

ذيّل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعـد حين وتحميده على صنعه وتدبيره في السماوات والأرض وهو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هـذه الاعتقادات الباطلة والأعمال الرديّة ومحمود في جميع ما خلقه ودبّره في السماوات والأرض .

ومن هناك يظهر :

أولاً : أن التسبيح والتحميد في الآيتين إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى : قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقد تكرّر في كلامه تعـالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله : « سبحان ربك رب العزة » الصافات : ١٨٠ وقوله: « الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده » الفرقان : ١ .

وثانياً : أن المراد بالتسبيح والتحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدّراً . والمعنى : قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله .

وثالثاً : أن قوله : « وله الحمد في السماوات والأرض » معترضة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقوله : « وعشيّاً وحين تظهرون » معطوفان على محل « حين تمسون » لا على قوله : « في السماوات والأرض » حتى يختص المساء والصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشي والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح والأمكنة وما فيها للتحميد .

فالسياق يشير إلى أن ما في السماوات والأرض من خلق وأمر هو لله يستدعي بحسنه حمداً وثنـاء لله سبحانه وأن للانسان على مر الدهور وتغيّر الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى وتقدس .

نعم ههنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أن الأزمنة والأوقات على تغيرها وتصرّمها من جمـلة ما في السماوات والأرض فهي بوجودها يثني على الله تعالى ، ثم كل ما في السماوات والأرض بفقرها اليه تعالى وذلّتها دونه ونقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبحه كما قال : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ ، لكن هذا الاعتبار غير منظور اليه في الآيتين اللتين نحن فيهما .

وللمفسرين في الآيتين أقوال أُخر متفرقة أشرنا إلى المهم منها في الوجوه التي قدمناها .

وتغيير السياق في قوله : « وعشياً » لكون العشي لم يبن منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء والصباح والظهيرة حيث بني منها الإمساء والإصباح والإظهار بمعنى الدخول في المساء والصباح والظهيرة كذا قيل .

والخطاب الذي في الآيتين في قوله : « تمسون وتصبحون وتظهرون » ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الذي للنبي ﷺ منذ شرعت السورة ، والمعنى :

فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزّه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء وحينما دخلتم في صباح وفي العشي وحينما دخلتم في ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات والأرض.

ونظير هـــذا التعميم ما في قوله سابقاً : « وإليه ترجعون » ولاحقاً في قوله : « وكذلك تخرجون » .

قوله تعالى : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعـد موتها وكذلك تخرجون » ظاهر إخراج الحي من الميت وبالعكس خلق ذوي الحيـاة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوي الحياة أرضاً ميتة ، وقـد فسّر بخلق المؤمن من الكافر وخلق الكافر من المؤمن فإنه يعدّ المؤمن حياً والكافر ميتاً ، قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً » الأنعام : ١٢٢ .

وأما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خمودها في الخريف والشتاء ، وقوله : « وكذلك تخرجون » أي تبعثون وتخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها ، وقد تقدم تفسير نظير صدر الآية وذيلها مراراً .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء عن ابن عباس في قوله : « الم غلبت الروم » قال : غُلبت وغَلبت .

قال : كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : أما إنهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ألا جعلته — أراد — قال : دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله : الم غلبت الروم فغُلبت ثم غَلبت بعد .

يقول الله : « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » قال سفيان : سمعت أنهم قد ظهروا يوم بدر .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أن المقامرة كانت بين أبي بكر وأُبيّ بن خلف وفي بعضها أنها كانت بين المسلمين والمشركين وكان أبو بكر من قبل المسلمين وأُبي من قبل المشركين، وفي بعضها أنها كانت بين الطائفتين، وفي بعضها بين أبي بكر وبين المشركين كما في هذه الرواية .

ثم الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين ، وفي بعضها خمس ، وفي بعضها ست ، وفي بعضها سبع سنين .

وفي بعضها أن الأجل المضروب أولا انقضى بمكة وهو سبع سنين فمادهم أبو بكر سنتين بأمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغلبت الروم ، وفي بعضها خلافه .

ثم في بعضها أن الأجل الثاني انقضى بمكة وفي بعضها أنه انقضى بعد الهجرة وكانت غلبة الروم يوم بدر ، وفي بعضها يوم الحديبية .

وفي بعضها أن أبا بكر لما قمرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخطر وهو مائة قلوص وجاء به الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنه سحت تصدّق به .

والذي تتفق فيه الروايات أنه قامرهم فقمرهم وكان القمار بإشارة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووجّه ذلك بأنه كان قبل تحريم القمار فإنه حرّم مع الخمر في سورة المائدة وقد نزلت في آخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد تحقق بما قدمناه في تفسير آية الخمر والميسر أن الخمر كانت محرمة من أول البعثة وكان من المعروف من الدين أنه يحرم الخمر والزنا .

على ان الخمر والميسر من الإثم بنص آية البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير » الآية البقرة : ٢١٩ . والإثم محرم بنص آية الأعراف : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي » الآية الأعراف: ٣٣ ، والأعراف من العتائق النازلة بمكة فمن الممتنع أن يشير النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمقامرة .

وعلى تقدير تأخر الحرمة إلى آخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشكل قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر لما أتى بالخطر اليه إنه سحت ثم قوله : تصدق به . فلا سبيل إلى تصحيح شيء من ذلك

بالموازين الفقهية وقد تكلفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلا إشكالاً .

ثم إن ما في الرواية أن الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ما كان عليه القوم فإنهم وإن كانوا مشركين لكنهم كانوا لا يتخذون أوثاناً .

وفي تفسير القمي في قوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » قال : يرون حاضر الدنيا ويتغافلون عن الآخرة .

وفي الخصال وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: « أولم يسيروا في الأرض» فقال : أولم ينظروا في القرآن .

وفي تفسير القمي وقوله عزّ وجل : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » قال: إلى الجنة والنار .

* * *

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ــ ٢٠.
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ــ ٢١ . وَمِنْ
آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ــ ٢٢ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُمْ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ــ ٢٣ . وَمِنْ آيَاتِهِ
يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ــ ٢٤ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
تَقُومَ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا

أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ــ ٢٥ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ ــ ٢٦ .

(بيان)

يذكر في هذا الفصل عدة من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية ، ويشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير وتداخلها ليتضح بذلك أن الربوبية بمعنى ملك التدبير والالوهية بمعنى المعبودية بالحق لا يستحقها إلا الله الذي خلق الأشياء وأوجدها ، لا كما يزعم الوثني أن الخلق لله وحده والتدبير والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله ،وليس له سبحانه إلا أنه رب الأرباب وإله الآلهة .

قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان إلى الأرض فإن مراتب تكوّن الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضية تنتهي إلى العناصر الأرضية .

وقوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إذا فجائية أي يفاجئكم أنكم اناسي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المترقب منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشراً ذوي حياة وشعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدمير أمر الحياة فقوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » في معنى قوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ .

فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية وكينونة هذا المجموع إنساناً ذا حياة وشعور عقلي آية أو آيات أخر تدل على صانع حي عليم يدبر الأمر ويجري هذا النظام العجيب .

وقد ظهر بهذا المعنى أن « ثم » للتراخي الرتبي والجملة معطوفة على قوله : « خلقكم » لا على قوله : « أن خلقكم »

قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها »

إلى آخر الآية ، قال الراغب : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى من الحيوانات المتزاوجة : زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها : زوج ، قال تعالى : «وجعل منه الزوجين الذكر والانثى » وقال : « وزوجك الجنة » وزوجة لغة رديئة وجمعها زوجات – إلى أن قال – وجمع الزوج أزواج . انتهى .

فقوله : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها » أي خلق لأجلكم – أو لينفعكم – من جنسكم قرائن وذلك أن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزاً يتم فعله بمقارنة الآخر ويتم بمجموعهما أمر التوالد والتناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينسل ، ولهذا النقص والإفتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن اليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله وكل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره وهذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين .

وقوله : « وجعل بينكم مودة ورحمة » المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هو نوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء .

والرحمة نوع تأثر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته يدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه .

ومن أجل موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معاً وخاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يعش النوع قط .

ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة .

والمراد بالمودة والرحمة في الآية الاوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الإخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية .

وقوله : « لآيات لقوم يتفكرون » لانهم إذا تفكروا في الاصول التكوينية التي يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكورة والانوثة الداعيتين الى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياتيه الدنيا والاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم .

قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » الى آخر الآية . الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية والفارسية والاردوية وغيرها وباختلاف الألوان اختلاف الامم في ألوانهم كالبياض والسواد والصفرة والحمرة .

ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق وباختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن .

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلقة على آيات دقيقة دالة على أن الصنع والإيجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلا بالله ولا ينتهي إلا اليه .

قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » الى آخر الآية ، الفضل الزيادة على مقدار الحاجة ويطلق على العطية لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته ، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

وفي خلق الإنسان ذا قوى فعّالة تبعثه الى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثم هدايته الى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب الى وجود الليل والنهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقاً اتبعه .

قال في الكشاف في الآية : هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصّل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد ويجوز أن

يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما ، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسدّ المعاني ما دلّ عليه القرآن . انتهى .

وقد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله: «إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون».

قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها» الظاهر أنالفعل نزّل منزلة المصدر ولذلك لم يصدّر بأن المصدرية كما صدّر به قوله : « أن خلقكم » وقوله : «أن خلق لكم» وتنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة وعليه يحمل المثل السائر : « وتسمع بالمعيديّ خير من أن تراه » ولا ضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله: « منامكم » « يريكم » « أن تقوم » .

واحتمل في قوله : « يريكم » أن يكون بحذف أن المصدرية والتقدير أن يريكم البرق وأيّد بقراءة النصب في يريكم .

واحتمل أن يكون من حذف المضاف ، والتقدير : ومن آياته آية أن يريكم البرق ، واحتمل أن يكون التقدير ومن آياته آية البرق ثم استونف فقيل : يريكم البرق الخ ، واحتمل أن يكون « من آياته » متعلقاً بقوله : « يريكم » ، والتقدير : ويريكم من آياته البرق، واحتمل أن يكون « من آياته » حالا من البرق، والتقدير: ويريكم البرق حال كون البرق من آياته .

وهذه وجوه متفرقة لا يخفى عليك بعدها على أن بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظيرة له كالوجهين الأخيرين .

وقوله : « خوفاً وطمعاً » أي خوفاً من الصاعقة وطمعاً في المطر ، وقوله : « وينزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » تقدم تفسيره كراراً ، وقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقة بهذه المصالح فليس بجرد اتفاق وصدفة .

قوله تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » القيام مقابل القعود ولما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على عامة أعماله استعير لثبوت الشيء واستقراره على أعدل حالاته كما يستعار

لتدبير الأمر ، قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ .

والمراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة وسكون وتغير وثبات بأمره تعالى وقد عرّف أمره بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ .

وقوله : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » « إذا » الاولى شرطية و « إذا » الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و « من الأرض » متعلق بقوله : « دعوة » والجملة معطوفة على محل الجملة الاولى لأن المراد بالجملة أعني قوله : « ثم إذا دعاكم » الخ البعث والرجوع إلى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج عليه سابقاً وسيحتج عليه لاحقاً .

وأما قول القائل : إن الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على « أن تقوم » والتقدير ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض.

فلازمه كون البعث معدوداً من الآيات وليس منها على أن البعث أحد الاصول الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه ، ولا يحتج به على التوحيد مثلاً بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك .

ولما كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب وخلقهم أزواجاً واختلاف ألسنتهم وألوانهم ومنامهم وابتغائهم من فضله وإراءة البرق وتنزيل الماء من السماء كلها آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله : « أن تقوم السماء والأرض » بمعونة السياق ثبات السماء والأرض على وضعهما الطبيعي وحالهما العادية ملائمتين لحياة النوع الإنساني المرتبطة بهما وكان قوله : « ثم إذا دعاكم » الخ مترتباً على ذلك ترتب التأخير أي أن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخرابهما كما ينبىء به آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى .

ويظهر بذلك أيضاً أن المراد من قوله السابق « ومن آياته خلق السماوات والأرض » خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية وينفعانها .

وقد رتبت الآيات المذكورة آخذة من بدء خلق الإنسان وتكونه ثم تصنفه صنفين: الذكر والانثى ثم ارتباط وجوده بالسماء والأرض واختلاف ألسنتهم وألوانهم

ثم السعي في طلب الرزق وسكون المنام ثم إراءة البرق وتنزيل الامطار حتى تنتهي إلى قيام السماء والارض إلى أجل مسمى ليتم لهذا النوع الإنساني مـا قدر له من أمد الحياة ويعقب ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من النكات .

وقد رتبت الفواصل أعني قوله « يتفكرون » « للعالمين » « يسمعون » « يعقلون » على هذا الترتيب لان الإنسان يتفكر فيصير عالماً ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق وعاه ثم عقله والله أعلم .

قوله تعالى : « وله من في السماوات والارض كل له قانتون » كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى وألوهيته كما تقدمت الإشارة اليه ولما إنتهى الكلام إلى ذكر البعث والرجوع الى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجة مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة .

فقوله : « ولـه من في السماوات والأرض » إشارة الى إحاطة ملكه الحقيقي لجميع من في السماوات والارض وهم المحشورون اليـه وذلك لان وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه وهذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف في مملوكية بنقلهم من النشأة الدنيا الى النشأة الآخرة .

وقـد أكد ذلك بقوله : « كل له قانتون » والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع – على ما ذكره الراغب في المفردات – والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية – على ما يعطيه السياق – دون التشريعية التي ربما تخلفت .

وذلك أنهم الملائكة والجن والإنس فأمـا الملائكة فليس عندهم الا خضوع الطاعة ، وأما الجن والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والاسباب الكونية وكلما احتالوا في الغاء أثر علة من العلل أو سبب من الاسباب الكونية توسلوا الى علة أخرى وسبب آخر كوني ثم علمهم وارادتهم كاختيارهم جميعاً من الأسباب الكونية فلا يكون الا ما شاء الله أي الذي تمت علله في الخارج ولا يتحقق مما شاؤا الا ما أذن فيه وشاءه فهو المالك لهم ولما يملكونه .

* * *

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ
ٱلْأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ـ ٢٧ . ضَرَبَ
لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ـ ٢٨ . بَلِ ٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ـ ٢٩ . فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ـ ٣٠. مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ـ ٣١ . مِنَ
الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ـ ٣٢ .
وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً
إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ـ ٣٣ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ـ ٣٤ . أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا
بِهِ يُشْرِكُونَ ـ ٣٥ . وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ـ ٣٦ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْـدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ــ ٣٧ . فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ــ ٣٨ . وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ــ ٣٩ .

(بيان)

لما انساق الاحتجاج على الوحدانية والمعاد من طريق عدّ الآيات الدالة على ذلك بقوله: « ومن آياته » إلى قوله: « وله من في السماوات والأرض » الآية ، وهو من صفات الفعل غيّر سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية وأوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كل فصل شيئاً من صفات الفعل المستوجبة للوحدانية والمعاد وهي قوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده » الخ ، وقوله : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم » الخ ، وقوله : « الله الذي يرسل الرياح » الخ ، وقوله : « الله الذي خلقكم من ضعف » الخ .

وإنما لم يبدأ الفصل الأول باسم الجلالة كما بدأ به في الفصول الاخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به أعني قوله : « وله من في السماوات والأرض كلّ له قانتون » الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين ، فقوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده » فصل في صورة الوصل .

قوله تعالى : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» إلى آخر الآية، بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء .

وقوله : « وهو أهون عليه » الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله : « يعيد » والضمير الثاني راجع اليه تعالى على ما يتبادر من السياق .

وقد استشكل قوله : « وهو أهون عليه » الدال ظاهراً على كون الإعادة أسهل وأهون عليه من البدء وهو ينافي كون قدرته مطلقة غير محدودة فإن القدرة

اللامتناهية لا تختلف حالها في تعلقها بشيء دون شيء فتعلقها بالصعب والسهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل ههنا .

وقد أجيب عنه بوجوه :

منها : أن ضمير « عليه » راجع الى الخلق دونه تعالى والإعادة أهون على الخلق لأنه مسبوق بالابتداء الذي يسهّل الفعل على الفاعل بتحققه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذي لا يسبقه فعل ، فالابتداء أصعب بالطبع بالنسبة الى الإعادة والإعادة بالعكس ، فالمعنى : أن الإعادة أهون من البدء بالنسبة الى الخلق وإذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق .

وفيه أن رجوع الضمير الى الخلق خلاف ظاهر الآية .

ومنها : أن أفعل ههنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هيّن عليه نظير قوله : « ما عند الله خير من اللهو » .

وفيه أنه تحكم ظاهر لا دليل عليه .

ومنها : أن التفضيل إنما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الإبتدائي لا بالنسبة اليه تعالى ووقوع التفضيل بين فعل منه وفعل لا بأس بـه كما في قوله تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

وهذا هو الذي يستفاد من كلام الزمخشري إذ يقول: فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله : « ثم إذا دعاكم » حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثم هوّنت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة لكنها هوّنت بالقياس الى الإنشاء . انتهى .

وفيه أن تقييد الوصف بقوله : « عليه » أصدق شاهد على أن القياس الواقـع بين الإعادة والإنشاء إنما هو بالنسبة اليه تعالى لا بين نفس الإعادة والإنشاء فالإشكال على ما كان .

ومنها: أن التفضيل إنما هو بالنظر الى الاصول الدائرة بين الناس والموازين المتبعة عندهم لا بالنظر الى الأمر في نفسه ، لمـــا يرون أن تكرر الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنه قيل : والإعادة

أهون عليه بالنظر الى أصولكم العلمية المتبعة عندكم وإلا فالإنشاء والإعادة بالنسبة اليه تعالى على السواء .

وفيه : أنه معنى صحيح في نفسه لكن الشأن في استفادته من اللفظ ولا شاهد عليه من جهة لفظ الآية .

ومنها : ما ذكره أيضاً في الكشاف قال : ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة ، وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله ، وإما واجب لا بدّ من فعله ولا سبيل الى الإخلال به .

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الإمتناع واذا كانت أبعدها من الإمتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها واذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء انتهى .

وفيه أولاً : أنه مبني على تحقق الأشياء بالاولوية دون الوجوب وقد تحقّق في محله بطلانه .

وثانياً : أن القرب والبعد اللذين ذكرهما تصوير عقلي محض والسهولة والصعوبة وصفان وجوديان يتصف بهما وجود الشيء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له ولا يبتني الوصف الوجودي على الإعتبار العقلي .

وثالثاً : أن الإنشاء أيضاً كالإعادة في الابتناء على المصلحة وهي الغاية فما لم يكن الإنشاء ذا مصلحة موجبة لم يتحقق كما أن الإعادة كذلك فهما في القرب والبعد من الامتناع على السواء كما قيل .

ورابعاً: أن مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود في الحقيقة إلى الوجه الثالث ويتوجه اليه ما توجه اليه .

والذي ينبغي أن يقـال أن الجملة أعني قوله : « وهو أهون عليه » معلل بقوله بعده : « ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » فهو الحجة المثبتة لقوله : « وهو أهون عليه » .

والمستفاد من قوله : « ولله المثل الأعلى » الخ ، أن كل وصف كمالي يمثل به شيء في السماوات والأرض كالحياة والقدرة والعلم والملك والجود والكرم والعظمة والكبرياء وغيرهـا فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال : « ولله الأسماء الحسنى » الأعراف : ١٨٠ .

وذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما فيالسماوات والأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه ممـا أفاضه الله عليه وهو في نفسه خالٍ عنه فالحيّ منها ميت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته ولذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيّداً بشيء دون شيء وحال دون حال ، وهكذا فالعلم فيها مثلاً ليس مطلقاً غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه وكذلك الحياة والقدرة والملك والعظمة وغيرها .

والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود وصرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممات يقـابل حياته وهكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية والأرضية ـ وهي صفات غير ممحّضة ولا مطلقة ـ ما هو أعلاها أي مطلقها ومحضها .

فكل صفة توجد فيه تعالى وفي غيره من المخلوقات ، فالذي فيه أعلاها وأفضلها والذي في غيره مفضول بالنسبة إلى ما عنده .

ولما كانت الإعادة متصفة بالهون إذا قيس إلى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنـده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة ومشقة بخلاف ما عنـدنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة ومشقة عليه تعـالى لأن المشقة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكلما قلّت القدرة كثرت المشقة وكلمـا كثرت قلّت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس ، وقدرته تعالى غير متناهية فلا يشقّ عليه فعل أصلاً وهو المستفاد من قوله : « إن الله على كل شيء قدير » فإن القدرة إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهية فافهم ذلك .

وقوله : « ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض » تقدم أنه في مقام الحجة بالنسبة إلى قوله : « وهو أهون عليه » ومحصله أن كل صفة كمالية يتصف به شيء مما في السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد ومحضها من غير شوب وصرفها من غير خلط .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « ولله المثل الأعلى » الخ ، أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لا يعرض فعله فتور ، ولو لم تكن صفة من صفاته مثلاً أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستذلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزاً على الإطلاق وأحدث ذاك النقص في فعله ثلمة وفتوراً فلم يكن حكيماً على الإطلاق .

قوله تعالى : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » الخ ، « من » في قوله : « من أنفسكم » لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلاً متخذاً من أنفسكم منتزعاً من الحالات التي لديكم ، وقوله : « هل لكم » شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار ، و « ما » في « مما ملكت » للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء ، و « من » في « من شركاء » زائدة وهو مبتدأ ، وقوله : « فأنتم فيه سواء » تفريع على الشركة ، و « أنتم » خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التغليب ، وقوله : « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدّوا في تصرّف المال المشترك من غير إذن منهم ورضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الاحرار .

وهذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الالوهية والربوبية وقد ألقي المثل في صورة الإستفهام الإنكاري : هل يوجد بين مماليككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الاموال التي رزقناكم ـ والحال أنهم مماليك لكم تملكونهم وما في أيديهم ـ بحيث تخافونهم من التصرف في أموالكم بغير اذن منهم ورضى كما تخافون الشركاء الاحرار من نوع أنفسكم ؟!

لا يكون ذلك أبداً ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله واذا لم

يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجن وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه وآلهة وأربابا من دونه ؟

ثم تمّم الكلام بقوله : « كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون » وفيه تمهيد لما يتلوه من الكلام .

قوله تعالى : « بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين » إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل اتبع الذين أشركوا وإنما بدّله من قوله : « بل اتّبع الذين ظلموا » فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال في قوله : « فمن يهدي من أضلّ الله » فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي ، قال تعالى : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

فقوله : « فمن يهدي من أضلّ الله » استفهام إنكاري مدلوله الإيآس من نعمة الهداية للمشركين المتّبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرّر في كلامه تعالى : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وقوله : « وما لهم من ناصرين » نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال وتبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم ونفي الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء .

وقول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطّرد .

ومعنى الآية : بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم وتعقّل فأضلّهم الله بظلمهم ولا هادي يهديهم وليس لهم ناصرون ينصرونهم .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » الكلام متفرع على ما تحصّل

من الآيات السابقة المثبتة للمبدأ والمعاد أي إذا ثبت أن الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سيبعث ويحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه وأقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنه الدين الذي تدعو اليه الخلقة الإلهية .

وقيل : الكلام متفرع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدال على ما هو الحق وأن المشركين لظلمهم اتبعوا الأهواء وأعرضوا عن التعقل الصحيح فأضلّهم الله ولم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية ولا لمنقذ ينقذهم من الضلال لا أنت ولا غيرك فاستيئس منهم واهتم بخاصة نفسك ومن تبعك من المؤمنين وأقم وجهك ومن تبعك للدين .

فقوله : « فأقم وجهك للدين » المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يميناً وشمالاً والظاهر أن اللام في الدين للعهد والمراد به الإسلام .

وقوله: « حنيفاً » حال من فاعل أقم وجوّز أن يكون حالاً من الدين أو حالاً من الوجه والأول أظهر وأنسب للسياق ، والحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال .

وقوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و « فطرة الله » منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي يهتف به الخلقة ويهدي اليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها .

وذلك أنه ليس الدين إلا سنّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للانسان يتبعها إلا السعادة وقد هدي كل نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ .

فالانسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته ، قال تعالى : « ونفس وما سوّاها

فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، وهو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل ، قال تعالى : « ثم السبيل يسَّره » عبس : ٢٠ .

فللانسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة وسبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلا أن يسلكها خاصة وهو قوله: « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وليس الانسان العائش في هذه النشأة إلا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه وما يضرّه بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن فما للانسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة وشفاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه اليها هادٍ واحد ثابت .

ولكن ذاك الهادي هو الفطرة ونوع الخلقة ولذلك عقّب قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » بقوله : « لا تبديل لخلق الله » .

فلو اختلفت سعادة الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الامم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الانسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن وجيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم ولم يسر الاجتماع الانساني سير التكامل ولم تكن الانسانية متوجهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقق النقص والكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما .

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الانسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد ، فللانسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الانسان وهي التي تدير رحى الانسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة .

وهذا هو الذي يشير إلى قوله بعد : « ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وسنزيد المقام إيضاحاً في بحث مستقل إن شاء الله تعالى .

وللقوم في مفردات الآية ومعناها أقوال أخر متفرقة :

منها : أن المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإن الوجه هو ما يتوجه اليه وهو العمل وإقامته تسديده .

وفيه : أن وجه العمل هو غايته المقصودة منه وهي غير العمل والذي في الآية هو « فأقم وجهك » ولم يقل : فأقم وجه عملك .

ومنها : أن « فطرة الله » منصوب بتقدير أعني والفطرة هي الملّة ، والمعنى : اثبت وأدم الاستقامة للدين أعني الملة التي خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

وفيه : أنه مبني على اختلاف المراد بالفطرة وهي الملة و « فطر الناس » وهو الخلقة والتفكيك خلاف ظاهر الآية ولو أُخذ « فطر الناس » بمعنى الإدانة أي الحمل على الدين وهو التوحيد بقي قوله : « لا تبديل لخلق الله » لا يلائم ما قبله .

على أن فيه خلاف ظاهر آخر وهو حمل الدين على التوحيد ، ولو أُخذ الدين بمعنى الاسلام أو بمجموع الدين كله وأبقيت الفطرة على معناها المتبادر منها وهو الخلقة لم يستقم تقدير « أعني » فإن الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلقة .

ومنها : أن « فطرة » بدل من « حنيفاً » والفطرة بمعنى الملة ويرد عليه ما يرد على سابقه .

ومنها : أن « فطرة » مفعول مطلق لفعل محذوف مقدّر ، والتقدير : فطر الله فطرة فَطر الناس عليها وفساده غني عن البيان .

ومنها : أن معناه اتبع من الدين ما دلّك عليه فطرة الله وهو ما دلّك عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنه خلقهم وركّبهم وصوّرهم على وجه يدل على أن لهم صانعاً قادراً عالماً حياً قديماً واحداً لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

وفيه أنه مبني على كون « فطرة » منصوباً بتقدير اتبع وقد ذكره أبو السعود وقبله أبو مسلم المفسر فيكون المراد من اتباعً الفطرة اتباع دلالة الفطرة بمعنى الخلقة والمراد بعدم تبديل الخلق عدم تغيره في الدلالة على الصانع بما له من الصفات الكريمة ، وهذا قريب من المعنى الذي قدمناه للآية بحمل « فطرة » على الإغراء لكن يبقى عليه أن الآية عامة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد .

ومنها : أن لا في قوله : «لا تبديل لخلق الله» تفيد النهي أي لا تبدّلوا خلق الله أي دينه الذي أمرتم بالتمسك بـه ، أو لا تبدلوا خلق الله بإنكار دلالته على التوحيد ومنه ما نسب إلى ابن عباس أن المراد به النهي عن الخصاء .

وفيه أن لا دليل على أخـذ الخلق بمعنى الدين ولا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الخلقة أو إنكارها تبديلاً لخلق الله . وأما ما نسب إلى ابن عباس ففساده ظاهر.

ومنها : ما ذكره الرازي في التفسير الكبير قال : ويحتمل أن يقال : خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً للانسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية . وهـــذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين : إن الناقص لا يصلح لعبادة الله وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحلّ الله فيه وصار إلهاً فقال: لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك . انتهى .

وفيه أنه مغالطة بين الملك والعبادة التكوينيين والملك والعبادة التشريعيين فإن ملكه تعالى الذي لا يقبل الانتقال والبطلان ملك تكويني بمعنى قيـام وجود الأشياء به تعالى والعبـادة التي بإزائه عبادة تكوينية وهو خضوع ذوات الأشياء له تعالى ولا تقبل التبديل والترك كما في قوله : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده » أسرى : ٤٤ ، وأما العبادة الدينية التي تقبل التبديل والترك فهي عبادة تشريعية بإزاء الملك التشريعي المعتبر له تعالى فافهمه .

ولو دلّ قوله : « لا تبديل لخلق الله » على عدم تبديل الملك والعبادة والعبودية لدل على التكويني منها والذي يبدّله القائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو بعبادة الكواكب أو المسيح فإنما يعني به التشريعي منها .

قوله تعالى : « منيبين إليه واتقوا وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي ﷺ نظير قوله : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » الطلاق : ١ ، وقوله : « فاستقم كما أمرت أنت ومن معك ولا تطغوا » هود : ١١٢ ،

فيؤول المعنى إلى نحو من قولنا : فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت ومن معك منيبين إلى الله ، والإنابة الرجوع بالتوبة .

وقوله : « واتقوه وأقيموا الصلاة » التقوى بحسب دلالة المقـــام يشمل امتثال أوامره والانتهـــاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين .

وقوله : «ولا تكونوا من المشركين» القول في اختصاصه من بين سائر المحرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة ، وقـد قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » « من » للتبيين و « من الذين فرقوا دينهم » الخ ، بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم وهو تفرقهم في دينهم وعودهم شيعة شيعة وحزباً حزباً يفرح ويسرّ كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله :« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين » فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنه لا يهديهم ولا هادي غيره .

ومن المعلوم أن هوى النفس لا يتفق في النفوس بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال وإذا كان هو الاساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها ، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى .

ومن هنا يظهر أن النهي عن تفرق الكلمة في الدين نهي في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل ، وربمـا احتمل كون الآية استئنافاً من الكلام وهو لا يلائم السياق .

وفي الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة والتحزب في الدين .

قوله تعالى : « وإذا مسّ الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم إذا أذاقهم منـه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون » التعبير بالمس للدلالة على القلة والخفة وتنكير ضر

ورحمة أيضاً لذلك والمعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلاً كمرض ما وفقر ما وشدة ما دعوا ربهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعونه ويعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد والشركاء .

أي إنهم كافرون للنعمة طبعاً وإن اعترفوا بها عند الضرّ وقد أخذ لذلك فريقاً منهم لأن منهم من ليس كذلك .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » تهديد لاولئك المشركين عند إذاقة الرحمة واللام في « ليكفروا » للأمر الغائب وقوله : « فتمتعوا » متفرع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعاً للتهديد ، والالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفريطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر ويكفروا إذا كشف .

قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » « أم » منقطعة والمراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازاً ، والسلطان البرهان ، والمراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى: بل أعلمناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلا مجاز في الإنزال والتكلم والمعنى : بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم .

قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون » الإذاقة كالمس تدل على قليل النيل ويسيره ، والقنوط اليأس .

وإذا الاولى شرطية والثانية فجائية ، والمقابلة بين « إذا » في إذاقة الرحمة و « إن » في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية والسيئة قليلة احتمالية ، ونسبة الرحمة اليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية مفاضة منه تعالى والسيئة عدمية هي عدم الإفاضة ولذا عللها بقوله : « بما قدمت أيديهم » ، وفي تعليل السيئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أن الرحمة تفضل .

والتعبير في الرحمة بقوله : « فرحوا » وفي السيئة بقوله : « إذا هم يقنطون » للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمترقب فإن الرحمة والسيئة بيد الله والرحمة واسعة

ولهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم .

والمراد بالآية بيان أن الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة والنقمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم وبمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن ، وإذا فقدوا قطنوا كأن ليس ذلك بإذن من ربهم وإذا لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون .

وبهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق : « وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين اليه » الآية وذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا قطنوا ومدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا دعوا الله وهم قانطون من الشيء وأسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع .

وربما أُجيب بأن المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس في الآية السابقة ولو فرض اتحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال وقنوطهم في حال أخرى .

وأجيب عنه أيضاً بأن الدعاء لساني جار على العادة ولا ينافي القنوط الذي هو أمر قلبي وأنت خبير بما في كل من الجوابين من الفتور .

وأُجيب أيضاً أن المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء . وفيه مضافاً إلى عدم الدليل على ذلك أنه لا يلائم معنى المفاجأة في القنوط .

قوله تعالى : « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » بيان لخطئهم في المبادرة إلى الفرح والقنوط عند إذاقة الرحمة وإصابة السيئة فإن الرزق في سعته وضيقه تابع لمشية الله فعلى الانسان أن يعلم أن الرحمة التي ذاقها والسيئة التي أصابته ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه ولا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده ولا للقنوط مما يرجى زواله .

وأما أنه أمر ظاهر للانسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذي يناله الانسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف وألوف من الأسباب والشرائط ليس الانسان الذي يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب ولا السبب الذي يركن اليه ويطيب به نفساً إلا بعض تلك الأسباب وعامة الأسباب منتهية اليه سبحانه فهو الذي يعطي ويمنع وهو

الذي يبسط ويقدر أي يوسّع ويضيّق ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » الخ ، ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوأ حالاً من الفقير وابن السبيل المسافر ذو الحاجة ، وإضافة الحق إلى الضمير تدل على أن لذي القربى حقاً ثابتاً ، والخطاب للنبي ﷺ ، فظاهر الآية بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس والتكليف للنبي ﷺ ويتبعه غيره ممن كلف بالخمس ، والقرابة على أي حال قرابة النبي ﷺ كما في آية الخمس ، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية وأما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل .

ولعموم الآية معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: « ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » .

قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » الربا نماء المال، وقوله: «ليربو» الخ ، يشير إلى وجه التسمية ، فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله – بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله – فليس يزيد وينمو عند الله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه .

وقوله : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير ، والمضعف ذو الضعف، والمعنى : وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فاولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم .

فالمراد بالربا والزكاة بقرينة المقابلة وما احتف بها من الشواهد ، الربا الحلال وهو العطية من غير قربة ، والصدقة وهي إعطاء المال مع قصد القربة . هذا كله على تقدير كون الآية مكية وأما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم وبالزكاة هي الزكاة المفروضة .

وهذه الآية والتي قبلها أشبه بالمدنيات منها بالمكيات ولا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول .

(بحث روائي)

في العيون عن عبيد الله بن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا خطيباً فقال في آخر خطبته : نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى . الحديث .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم » الآية أن سبب نزولها أن قريشاً كانوا يحجون البيت بحج إبراهيم عليه السلام ويلبّون تلبيته : لبّيك اللهم لبّيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فجاءهم إبليس في صورة شيخ فغير تلبيتهم إلى قول : لبيك اللهم لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فكانت قريش تلبي هذه التلبية حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنكر عليهم ذلك وقال : إنه شرك .

فأنزل الله عز وجل : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء » أي أترضون أنتم فيما تملكون أن يكون لكم فيه شريك ؟ فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكاً فيما أملك ؟ .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً » قال : هي الولاية .

وفيه بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : التوحيد .

أقول : ورواه أيضاً عن الحلبي وزرارة عنه عليه السلام ورواه الصدوق في التوحيد عن العلاء بن فضيل وزرارة وبكير عنه عليه السلام .

وفي روضة الكافي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد ، وهو الفطرة التي فطر الناس عليها .

وفي تفسير القمي بإسناده عن الهيثم الرماني عن الرضا عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي عليهم السلام في قوله عز وجل : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال :

هو لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين وليُّ الله الى ههنا التوحيد .

أقول : وروى هذا المعنى في بصائر الدرجات عن أبي عبدالله عليه السلام، ورواه في التوحيد عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عنه عليه السلام .

ومعنى كون الفطرة هي الشهادات الثلاث أن الإنسان مفطور على الإعتراف بالله لا شريك له بما يجد من الحاجة الى الأسباب المحتاجة الى ما وراءها وهو التوحيد وبما يجد من النقص المحوج الى دين يدين به ليكمله وهو النبوة ، وبما يجد من الحاجة الى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية والفاتح لها في الإسلام هو علي عليه السلام ، وليس معناه أن كل إنسان حتى الإنسان الأوليّ يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث .

والى هذا يؤل معنى الرواية السابقة أنها الولاية فإنها تستلزم التوحيد والنبوّة وكذا ما مرّ من تفسيره الفطرة بالتوحيد فإن التوحيد هو القول بوحدانية الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للمعاد والنبوة والولاية فالمآل في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد .

وفي المحاسن بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : فطرهم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم ؟ .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن نعيم الصحاف عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال : فقال عليه السلام : إن الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرهم عليها لا يعرفون إيماناً بشريعة ولا كفراً بجحود ثم بعث الله عز وجل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أُخر واردة في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » البقرة : ٢١٣ والمراد فيها بالإنسان الفطري الإنسان الساذج الذي يعيش على الفطرة الإنسانية الذي لم يفسده الأوهام الفكرية والأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة وكليات الشرائع الالهية فإنه يعيش ببعث وتحريك من فطرته وخصوص خلقته . وأما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة

وتفاصيل الشرائع الالهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن حمّاد بن عمرو الصفّار قال : سألت قتادة عن قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » فقال : حدثني أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : دين الله .

وفيه أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ قال أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الآية .

أقول : ورواه أيضاً عن مالك وأبي داود وابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولفظه : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء .

ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه‌السلام في حديث قال : قال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه . الحديث .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله ، وأربعة أشهر الصلاة على النبي وأربعة أشهر الدعاء لوالديه .

أقول : هو حديث لطيف ومعناه : أن الطفل في الأربعة أشهر الاولى لا يعرف أحداً وإنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها والرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرّع اليه ويشهد له بالوحدانية .

وفي الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه وبين رافع حاجته من غير أن يعرفهما بشخصيهما والواسطة بينه وبين ربه هو النبي فبكاؤه طلب الرحمة من ربه للنبي حتى يصل بتوسطه اليه .

وفي الأربعة أشهر الثالثة يميّز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاؤه دعاء منه لهما وطلب جريان الرحمة من طريقهما اليه . ففي الحديث ألطف الإشارة إلى كيفية جريان

الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وآتِ ذا القربى حقه » وروى أبو سعيد الخدري وغيره أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً وسلّمه اليها وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم اليماني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: الربا رباءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل ، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل ، وهو قول الله عز وجل : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار .

أقول : ورواه أيضاً في التهذيب عن إبراهيم بن عمر عنه عليه السلام ، وفي تفسير القمي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام ، وفي المجمع مرسلاً عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى : « فاولئك هم المضعفون » قال أمير المؤمنين عليه السلام : فرض الله الصلاة تنزيهاً عن الكبر ، والزكاة تسبيباً للرزق ، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق ، وصلة الأرحام منماة للعدد .

وفي الفقيه خطبة للزهراء عليها السلام وفيها : ففرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق .

(كلام في معنى كون الدين فطرياً ، في فصول)

١ - إذا تأملنا هذه الأنواع الموجودة التي تتكون وتتكامل تدريجاً سواء كانت ذوات حياة وشعور كأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كأنواع النبات أو ميتة غير ذي حياة كسائر الأنواع الطبيعية - على ما يظهر لنا - وجدنا كل نوع منها يسير في وجوده سيراً تكوينياً معيناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض وبعضها بعد بعض يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله وقبل الوصول إلى ما بعده ولا يزال يستكمل بطيّ هذه المنازل حتى ينتهي إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطوية بحركة النوع يلازم كل منها مقامه الخاص به لا يستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله فبينها

رابطة تكوينية يربط بهـا بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه ومن هنا يستنتج أن للنوع غاية تكوينية يتوجه اليها من أول وجوده حتى يبلغها .

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرت في الأرض استقراراً يهيؤها للنمو على اجتماع ما يتوقف عليه النمو من العلل والشرائط كالرطوبة والحرارة وغيرهما أخـذ لبها في النمو وشقّ القشر وشرع في ازدياد من أقطار جسمه ولم يزل يزيد وينمو حتى يصل إلى حد يعود فيه شجرة قوية خضراء مثمرة ولا يختلف حاله في مسيره هـذا التكويني وهو في أول وجوده قاصداً قصداً تكوينياً إلى غايته التكوينية التي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضان مثلاً لا نشك في أنها في أول تكونها جنيناً متوجهة إلى غايتها النوعية التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصها فلا تضل عن سبيلها التكوينية الخاصة بها إلى سبيل غيرها ولا تنسى غايتها يوماً فتسير الى غير غايتها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً فكل نوع من الأنواع التكوينية له مسير خاص في استكمال الوجود ذو مراتب خاصة مترتبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتاً يطلبها طلباً تكوينياً بحركته التكوينية والنوع في وجوده مجهز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجه التكويني لاستناده إلى الله يسمى هداية عامة إلهية وهي كما عرفت لا تضل ولا تخطىء في تسيير كل نوع مسيره التكويني وسوقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجي وباعمال قواه وأدواته التي جهز بهـا لتسهيل مسيره إلى غايته ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أهوى » الأعلى: ٥ .

٢ — نوع الانسان غير مستثنى من كلية الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامة له فنحن نعلم أن النطفة الإنسانية من حين تشرع في التكون متوجهة إلى مرتبة إنسان تام كامل له آثاره وخواصه قـد قطع في مسيره مراحل الجنينية والطفولية والمراهقة والشباب والكهولة والشيب .

غير أن الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانية والنباتية وغيرها فيما نعلم في أمر(١) وهو أنه لسعة حاجته التكوينية وكثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تتميم نواقصه الوجودية ورفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أن الواحد من الانسان لا تتم له حياته الإنسانية وهو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مدني يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاضد فيسعى الكل بجميع قواهم التي جهزوا بها للكل ثم يقسم الحاصل من عملهم بين الكل فيذهب كل بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية .

وقد عرفت في سابق مباحث هذا الكتاب أن المدنية ليست بطبيعية للإنسان بمعنى أن ينبعث اليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد اليه سبيلاً فهو يستخدم الامور الطبيعية ثم أقسام النبات والحيوان في سبيل مقاصده الحيوية فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجرأ لكنه يجد سائر الأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهازات والقوى فيضطر إلى المسالمة وأن يسلم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه .

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاوني ثم يقسم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويعطى منه لكل ما يستحقه .

وكيف كان فالمجتمع الإنساني لا يتم انعقاده ولا يعمّر إلا باصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل وحافظ يحفظها من الضيعة ويجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة .

أما الاصول العلمية فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية ، فإن المذاهب المختلفة مؤثرة في خصوص السنن المعمول بها في المجتمعات فالمعتقدون في الانسان أنه مادي محض ليس له من الحياة إلا الحياة المعجلة المؤجلة بالموت وأن ليس في دار الوجود إلا السبب المادي الكائن الفاسد ينظمون سنن اجتماعهم ، بحيث تؤديهم الى اللذائذ المحسوسة والكمالات المادية ما وراءها شيء .

---

(١) وعامة الحيوان وان كان لها شيء من الاجتماع الحيوي لكنه يسير في جنب الاجتماع لا يعبأ به.

والمعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنية يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيوية والمعتقدون بالمبدأ والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم في الحياة الدنيوية ثم في الحياة المؤبدة التي بعد الموت فصور الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف الاصول الاعتقادية في حقيقة العالم والانسان الذي هو جزء من أجزائه .

وأما القوانين والسنن الاجتماعية فلولا وجود قوانين وسنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلمونها تفرق الجمع وانحل المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضايا كلية عملية صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز وهي أياماً كانت معتبرة في العمل لغايات مُصلحة للاجتماع والمجتمع تترتب عليها تسمى مصالح الأعمال ومفاسدها .

٣ ــ قد عرفت أن الانسان إنما ينال ما قدر له من كمال وسعادة بعقد مجتمع صالح يحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التي تليق به وهذه السعادة أمر أو امور كمالية تكوينيــة تلحق الانسان الناقص الذي هو أيضاً موجود تكويني فتجعله إنساناً كاملاً في نوعه تاماً في وجوده .

فهذه السنن والقوانين ــ وهي قضايا عملية اعتبارية ــ واقعة بين نقص الانسان وكماله متوسطة كالعبرة بين المنزلتين وهي كما عرفت تابعة للمصالح التي هي كمال أو كمالات إنسانية ، وهــذه الكمالات امور حقيقية مسانخة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الانسان الحقيقية .

فحوائج الانسان الحقيقية هي التي وضعت هذه القضايا العملية واعتبرت هذه النواميس الاعتبارية ، والمراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الانسانية بأميالها وعزائمها ويصدّقه العقل الذي هو القوة الوحيــدة التي تميز بين الخير والنافع وبين الشر والضار دون ما تطلبه الأهواء النفسانية مما لا يصدقه العقل فإنه كمال حيواني غير إنساني .

فاصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقية التي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية .

وقد عرفت أن الصنع والايجاد قد جهز كل نوع من الأنواع ــ ومنها الانسان ــ

من القوى والأدوات بما يرتفع بفعاليته حوائجه ويسلك به سبيل الكمال ومنه يستنتج أن للجهازات التكوينية التي جهز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المسماة بالسنن والقوانين التي بالعمل بها يستقر الإنسان في مقر كماله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذّي المعتبرة بما أن الإنسان مجهز بجهاز التغذي والراجعة إلى النكاح بما أن الإنسان مجهّز بجهاز التوالد والتناسل .

فتبين أن من الواجب أن يتخذ الدين – أي الاصول العلمية والسنن والقوانين العملية التي تضمن باتخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقية – من اقتضاءات الخلقة الإنسانية وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطرياً وهو قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

٤ – قد عرفت معنى كون الدين فطرياً فالإسلام يسمى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانية تقتضيه وتهدي اليه .

ويسمى إسلاماً لما أن فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه ، ومصداق الإرادة وهي صفة الفعل تجمّع العلل المؤلفة من خصوص خلقة الإنسان وما يحتف به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء الفعل أو الترك قال تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام».

ويسمّى دين الله لأنه الذي يريده الله من عباده من فعل أو ترك ، بما مر من معنى الإرادة .

ويسمّى سبيل الله لما أنه السبيل التي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله وسعادته ، قال تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا » الأعراف : ٤٥ .

وأما أن الدين الحق يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوة ولا يكفي فيه العقل فقد تقدم بيانه في مباحث النبوة وغيرها من مباحث الكتاب .

* * *

أَللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ــ ٤٠ . ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ــ ٤١ . قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ــ ٤٢ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ــ ٤٣ . مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ــ ٤٤ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ــ ٤٥ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ــ ٤٦ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٤٧ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة التي يحتج فيها بالأفعال الخاصة به وإن شئت فقل : بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء ونفي ربوبيتهم وألوهيتهم وعلى إثبات المعاد.

قوله تعالى : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء » الخ ، اسم الجلالة مبتدأ و « الذي خلقكم » خبره ، وكذا قوله : « من يفعل » الخ مبتدأ خبره « من شركائكم » المقدم عليه والاستفهام إنكاري وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات أخر .

والمعنى : أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفا من أوصاف الالوهية والربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئاً من ذلكم يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء وإذ ليس منهم من يفعل شيئاً من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم وربكم لا إله إلا هو .

ولعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق والإحياء والإماتة مع تكرر تقدم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقاً فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق .

فليس لهم أن يقولوا : إن الرازق وكذا المحيي والمميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة ومدبر كل شأن من شؤون العالم من الخيرات والشرور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق والإيجاد منه تعالى لا يشاركه في ذلك أحد فإذا سلّم ذلك ومن المسلم أن الرزق مثلاً خلق وكذا سائر الشؤون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق اليه تعالى ولم يبق لآلهتهم شأن من الشؤون .

ثم نزّه سبحانه نفسه عن شركهم فقال : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة ، فالمراد بالبرّ والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية .

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان

مستنداً إلى اختيار بعض الناس أو غير مستند اليه . فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش الانساني .

وقوله : « بما كسبت أيدي الناس » أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية الأعراف : ٩٦ ، وأيضاً في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداهما من صلاح الاخرى وفسادها .

وقوله : « ليذيقهم بعض الذي عملوا » اللام للغاية ، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ .

والآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي وإذاقة بعضه لأكله من غير نظر إلى وبال الأعمال الاخروي فما قيل : إن المراد إذاقة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الاخروي إلى يوم القيامة لا دليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام : « ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا مع أن التقدير « ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا » ، لأن الذي يحوجنا إلى تقدير المضاف - لو أحوجنا - هو أن الراجع اليهم ثانياً في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالذي أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا .

وقوله : « لعلهم يرجعون » أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم ومعاصيهم إلى التوحيد والطاعة .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما احتج في الآية السابقة على التوحيد ونزّهه عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك - وهو معصية - من الفساد في الأرض وإذاقة وبال السيئات فبين ذلك بيان عام .

ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكة وقول بعضهم : المراد بالبر القفار التي لا يجري فيها نهر وبالبحر كل قرية على شاطىء نهر عظيم ، وقول بعضهم : البرّ الفيافي ومواضع القبائل والبحر السواحل والمدن التي عند

البحر والنهر، وقول بعضهم: البر البرية والبحر المواضع المخصبة الخضرة، وقول بعضهم: إن هناك مضافاً محذوفاً والتقدير في البر ومدن البحر، ولعل الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ما ورد أن الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي ﷺ على قريش لما لجّوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيما وقعوا من التكلف.

وقول بعضهم: إن المراد بالفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كل سفينة غصباً. وهو كما ترى.

قوله تعالى: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم وعفت آثارهم وبادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

قوله تعالى: «فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون» تفريع على ما تقدمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحق بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيّم.

وقوله: «من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله» متعلق بقوله: «فأقم» والمردّ مصدر ميمي بمعنى الرد وهو بمعنى الراد واليوم الذي لا مردّ له من الله يوم القيامة.

وقوله: «يومئذ يصّدّعون» أصله يتصدعون، والتصدع في الأصل تفرّق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق كما قيل، والمراد به – كما قيل – تفرّقهم يومئذ إلى الجنة والنار.

وقيل: المراد تفرّق الناس بأشخاصهم كما يشير اليه قوله تعالى: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» القارعة: ٤. ولكلٍّ وجه، ولعل الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي.

قوله تعالى: «من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» الظاهر أنه تفسير لقوله في الآية السابقة: «يتفرقون» وقوله: «من كفر فعليه كفره» أي وبال

كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه ناراً يخلد فيها وهذا أحد الفريقين.

وقوله : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » مهد الفراش بسطه وإيطاؤه ، وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد جيء بالجزاء « فلأنفسهم يمهدون » جمعاً نظراً إلى المعنى ، كما أنه جيء به مفرداً في الشرطية السابقة « فعليه كفره » نظراً إلى اللفظ ، واكتفي في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور في الآية التالية .

والمعنى: والذين عملوا عملاً صالحاً – بعد الإيمان – فلأنفسهم يوطؤن ما يعيشون به ويستقرّون عليه .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين » قال الراغب : الجزاء الغناء والكفاية ، قال الله تعالى : « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » ، وقال : « لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ ، يقال : جزيته كذا وبكذا . انتهى .

وقوله : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اللام للغاية ولا ينافي عدّ ما يؤتيهم جزاء – وفيه معنى المقابلة – عدّه من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق وذلك لأنهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئاً حتى يستحقوا به أجراً ، وأين العبودية من الملك والاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق .

لكنه سبحانه بفضله ورحمته اعتبر لهم ملكاً لأعمالهم في عين أنه يملكهم ويملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقاً يستحقونه ، وجعل ما ينالونه من الجنة والزلفى أجراً مقابلاً لأعمالهم وهذا الحق المجعول أيضاً فضل آخر منه سبحانه .

ومنشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبّوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيّم واتّبعوا الرسول فيما دعا اليه فأحبهم الله كما قال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » آل عمران : ٣١ .

ولذا كانت الآية تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة

وتعدّ ذلك من فضله نظراً إلى أن نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشأه حبه تعالى لهم كما يؤمي اليه تذييل الآية بقوله : « إنه لا يحب الكافرين » .

ومن هنا يظهر أن قوله : « إنه لا يحب الكافرين » ، يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي والاثبات جميعاً أي إنه تعالى يخص المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل ويحرم الكافرين منه لأنه يحب هؤلاء ولا يحب هؤلاء .

قوله تعالى : «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله .

وقوله : « وليذيقكم من رحمته » عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة .

وقوله : « ولتجري الفلك بأمره » أي لجريان الرياح وهبوبها. وقوله: « ولتبتغوا من فضله » أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله .

وقوله : « ولعلكم تشكرون » ، غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية ، والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبىء عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه ، وينطبق بالأخرة على عبادته ولذلك جيء بلعلّ المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » قال الراغب : أصل الجرم – بالفتح فالسكون – قطع الثمرة عن الشجر – إلى أن قال – وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر وأتمر وألبن واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه ، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود انتهى .

والآية كالمعترضة وكأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقاً على ربهم وهو نصرهم في الدنيا والآخرة ومنه الانتقام من المجرمين ، وهذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على

نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوباً في نفسه مقهوراً محكوماً لغيره .

وقوله : « فانتقمنا من الذين أجرموا » الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم وأجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقاً علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك مخالفيهم ، وفي الآية بعض الاشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » قال : في البر فساد الحيوان إذا لم يمطر وكذلك هلاك دواب البحر بذلك ، وقال الصادق عليه‌السلام : حياة دواب البحر بالمطر فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البر والبحر ، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي .

أقول : وهو من الجري .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل» فقال: عنى بذلك أي انظروا في القرآن فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم».

وفي المجمع في قوله : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » روى منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهّد له كما يمهد لأحدهم خادمه فراشه .

وفيه وجاءت الرواية عن أم الدرداء أنها قالت: سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: ما من امرىء يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم قرأ : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء .

* * *

أَللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ – ٤٨. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ – ٤٩. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ – ٥٠. وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ – ٥١. فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ – ٥٢. وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ – ٥٣.

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتجة من طريق أفعاله تعالى وإن شئت فقل: أسماء أفعاله وعمدة غرضها الاحتجاج على المعاد، ولما كان عمدة إنكارهم وجحودهم متوجهاً إلى المعاد وبإنكاره يلغو الأحكام والشرائع فيلغو التوحيد عقّب الاحتجاج بإيئاس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمره بأن يشتغل بدعوة في نفسه استعداد الإيمان وصلاحية الإسلام والتسليم للحق.

قوله تعالى: «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء» إلى آخر الآية، الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسماء جهة العلو فكل ما علاك وأظلّك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق

القطر من المطر والخلال جمع خلة وهي الفرجة .

والمعنى: الله الذي يرسل الرياح فتحرك وتنشر سحاباً ويبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات .

قوله تعالى : « وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين » الإبلاس : اليأس والقنوط .

وضمير « ينزل » للمطر وكذا ضمير « من قبله » على ما قيل ، وعليه يكون «من قبله» تأكيداً لقوله:« من قبل أن ينزل عليهم » وفائدة التأكيد – على ما قيل – الإعلام بسرعة تقلّب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله : « من قبل أن ينزل عليهم » يحتمل الفسحة في الزمان فجاء « من قبله » للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال .

وفي الكشاف أن قوله : « من قبله » من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى : « فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها » ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعُد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وربما قيل : إن ضمير « من قبله » لإرسال الرياح ، والمعنى : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآئسين قانطين .

قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » الآثار جمع الأثر وهو ما يبقى بعد الشيء فيدلّ عليه كأثر القدم وأثر البناء واستعير لكل ما يتفرع على شيء ، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح ، وآثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها .

ولذا قال : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها ، فحياة الأرض بعد موتها

من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمار من آثار حياتها وهي أيضاً من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقة الرياح والسحاب والمطر .

وقوله : « إن ذلك لمحيي الموتى » الإشارة بذلك اليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها ، وفي الإشارة البعيدة تعظيم ، والمراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان وغيره من ذوي الحياة .

والمراد بقوله : « إن ذلك لمحيي الموتى » الدلالة على المماثلة بين إحيـــاء الأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كل منها موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياة هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها ، وقد تحقق الإحياء في الأرض والنبات وحياة الإنسان وغيره من ذوي الحيــاة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد ، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال وهو الأرض والنبات فليجز في البعض الآخر .

وقوله: « وهو على كل شيء قدير » تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة ولامتناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلا لزم تقيّدها وقد فرضت مطلقة غير محدودة .

قوله تعالى : « ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلّـوا من بعـده يكفرون » ضمير « فرأوه » للنبات المفهوم من السياق ، وقوله: « لظلّـوا » جواب للقسم قائم مقام الجزاء ، والمعنى : وأقسم لئن أرسلنا ريحاً باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه .

ففي الآية توبيخهم بالتقلب السريع في النعمـة والنقمة ، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار ، وإذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من النعم .

وقيل : ضمير « فرأوه » للسحاب لأن السحاب إذا كان أصفر لم يمطر ، وقيل : للريح فإنه يذكّر ويؤنث ، والقولان بعيدان .

قوله تعالى : « فإنك لا تُسمع الموتى – إلى قوله – فهم مسلمون » تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل : لا تشتغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس واستبشار وكفر ومن عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقّلها فإنهم موتى وصمّ وعمي

وأنت لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدقها فهم مسلمون . وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل .

* * *

أَللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ـــ ٥٤ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ـــ ٥٥ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ـــ ٥٦ . فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ـــ ٥٧ . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ـــ ٥٨ . كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ـــ ٥٩ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ـــ ٦٠ .

(بيان)

هذا هو الفصل الرابع من الآيات وهو كسابقه وفيها ختام السورة .

قوله تعالى : « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » الخ ، الضعف والقوة متقابلان ، و « من » في قوله : « من

ضعف للإبتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتدأكم ضعفاء، ومصداقة على ما تفيده المقابلة أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة .

والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشدّ وبالضعف بعد القوة الشيخوخة ولذا عطف عليه « شيبة » عطف تفسير ، وتنكير « ضعف » و « قوة » للدلالة على الإبهام وعدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك .

وقوله : « يخلق ما يشاء » أي كما شاء الضعف فخلقه ثم القوة بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه وفي ذلك أتمّ الإشارة إلى أن تتالي هذه الأحوال من الخلق وإذ كان هـذا النقل من حال إلى حال في عين أنه تدبير خلقاً فهو لله الخالق للأشياء فليس لقـائل منهم أن يقول : إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان ، مثلاً كما يقوله الوثنية .

ثم تمم الكلام بالعلم والقدرة فقال : « وهو العليم القدير » .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » ، هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادة للآيات والحجج على وحدانيته تعالى والبعث ، وكالتمهيد والتوطئة للآية التي تختتم بها السورة فإنه لما عدّ شيئاً من الآيات والحجج وأشار إلى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبين أنهم في جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلاً والآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها و كذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به .

وهذا الإفك والتقلب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتى قيام الساعة فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلاً .

فقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مـا لبثوا غير ساعة » ، يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيـا ويوم البعث حتى ظنّوه ساعة من ساعات الدنيا .

وقوله : « كذلك كانوا يؤفكون » أي يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق ويقام عليه الحجج والآيات فيظنونه باطلاً من القول وخرافة من الرأي .

قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الخ ، ردّ منهم لقول المجرمين : « ما لبثوا غير ساعة » فإن المجرمين لإخلادهم إلى الأرض وتوغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه وبين الدنيا محكوماً بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم .

فرد عليهم أهل العلم والإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا ويوم البعث وهو الفصل الذي يشير اليه قوله :« ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » المؤمنون : ١٠٠ .

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث ولكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم : « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » ، أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر اللبث .

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله : « أوتوا العلم والإيمان » ، اليقين والالتزام بمقتضاه وأن العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الإلتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية ، ومن هنا يظهر أيضاً أن المراد بكتاب الله الكتب [1] السماوية أو خصوص القرآن لا غيره وقول بعضهم: إن في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به .

قوله تعالى :«فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون» الاستعتاب طلب العتبى، والعتبى إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم .

قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » الخ ، إشارة

---

(١) ويمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلك استدلالاً على قولهم بكتاب الله ويكون نظير ما في قوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » ، الجاثية : ٢٩ بناء على ما سيأتي من معناه « منه » .

إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها ، ولذا عقبه بقوله : « ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » أي جاؤن بالباطل وهـذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلاً ، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول .

قوله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » ، أي يجهلون بالله وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتيابهم .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » ، أي فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم : « إن أنتم إلا مبطلون » وسائر تهكماتهم ، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أومأ اليه بقوله : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه .

وقول بعضهم: إن المعنى لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينات بتكذيبهم لها وإيذائهم لك بأباطيلهم ، ليس بشيء وقد بدأت السورة بالوعد وختمت بالوعد والوعدان جميعاً بالنصرة .

(سورة لقمان مكية ، وهي أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . الٓم ــ ١ . تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ
ٱلْحَكِيمِ ــ ٢ . هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ــ ٣ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ــ ٤ . أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً
مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ــ ٥ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي
لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ــ ٦ . وَإِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ
لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ــ ٧ . إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ــ ٨ . خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ
اللهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ــ ٩ . خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا
وَأَلْقىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ــ ١٠ . هٰذَا
خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ــ ١١ .

(بيان)

غرض السورة كما يومي اليه فاتحتها وخاتمتها ويشير اليه سياق عامة آياتها الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكليات شرائع الدين .

ويلوح من صدر السورة أنها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » الآية ، وسيوافي حديثه . فنزلت السورة تبيّن أُصول عقائد الدين وكليات شرائعه الحقة وقصّت شيئاً من خبر لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها . ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » الآية .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين – إلى قوله – يوقنون » تقدم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة .

وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام فيه ليداخله لهو الحديث وباطل القول ، ووصفه أيضاً بأنه هدى ورحمة للمحسنين تتميماً لصفة حكمته فهو يهدي إلى الواقع الحق ويوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما يهمه ، وهو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة .

ووصف المحسنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما العمدتان في الأعمال وبالإيقان بالآخرة ويستلزم التوحيد والرسالة وعامة التقوى ، كل ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث المصغي اليه لمن يستمع لهو الحديث .

قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً » الخ ، اللهو ما يشغلك عما يهمّك ، ولهو الحديث : الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية إلى الفساد والفجور ، أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي والمزامير والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث .

وقوله: « ليضلَّ عن سبيل الله بغير علم » مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقة الاعتقادية والعملية وخاصة قصص الأنبياء وأممهم الخالية فإن لهو الحديث والأساطير المزوّقة المختلقة تعارض أولاً هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقة وتوهنها في أنظار الناس .

ويؤيد ذلك قوله بعد : « ويتخذها هزواً » فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولاً الحديث ويتخذه سخرياً .

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص والمعارف وكأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضلّ الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزواً بأنه حديث مثله وأساطير كأساطيره .

وقوله : « بغير علم » متعلق بيضلّ وهو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضاً لا علم لهم ثم هددهم بقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي مذل يوهنهم ويذلهم حذاء استكبارهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً » الخ ، وصف لذاك الذي يشتري لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن ويهزء به والوقر الحمل الثقيل والمراد بكون الوقر على أذنيه أن يشدّ عليهما ما يمنع من السمع وقيل : هو كناية عن الصمم .

والمعنى : وإذا تتلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أي القرآن ولى وأعرض عنها وهو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم .

وقد اعيد إلى من يشتري ضمير الأفراد أولاً كما في « يشتري » و « ليضل » و « يتخذها » باعتبار اللفظ وضمير الجمع ، ثانياً باعتبار المعنى ثم ضمير الإفراد باعتبار اللفظ كما في « عليه » وغيره كذا قيل ، ومن الممكن أن يكون ضمير « لهم » في الآية السابقة راجعاً إلى مجموع المضل والضالين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة إلى « من » مفردة جميعاً .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم — إلى قوله — العزيز الحكيم » رجوع بعد إنذار ذاك المشتري وتهديده بالعذاب المهين ثم العذاب

الأليم إلى تبشير المحسنين وتطييب أنفسهم بجنة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى ووعده الحق .

ولما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضله بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره ويهين به وكان لا يعتني بما تتلى عليه من الآيات مستكبراً وذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولاً ما وعده للمحسنين بقوله: « وعد الله حقاً » ثم وصف ثانياً نفسه بالعزة المطلقة ، فلا يطرأ عليه ذلة وإهانة والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة .

ثم وصفه ثالثاً بأنه الذي يدبر أمر السماء والأرض والنبات والحيوان والإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة واولئك بالعذاب وهو قوله : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ .

قوله تعالى : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ ، تقدم في تفسير قوله تعالى : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها » الرعد : ٢ ، أن قوله : « ترونها» يحتمل أن يكون قيداً توضيحياً ، والمعنى أنكم ترونها ولا أعمدة لها ، وأن يكون قيداً احترازياً والمعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعاراً بأن هناك أعمدة غير مرئية .

وقوله : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » ، أي ألقى فيها جبالاً شامخة لئلا تضطرب بكم وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة .

وقوله: « وبثّ فيها من كل دابة » أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها.

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء وأنبتنا فيها من كل زوج كريم » أي وأنزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر وأنبتنا فيها شيئاً من كل زوج نباتي شريف فيه منافع وله فوائد ، وفيه إشارة إلى تزوّج النبات وقد تقدم الكلام فيه في نظيره .

والالتفات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل .

قوله تعالى : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » ، لما أرام خلقه وتدبيره تعالى للسماوات والأرض وما عليها فأثبت به ربوبيته والوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئاً من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة وأرباباً فإن

لم يقدروا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في الوهيته وربوبيته .

وإنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم – وهم يعترفون أن الخلق لله وحده ولا يسندون إلى آلهتهم خلقاً وإنما ينسبون اليهم التدبير فقط ، لأنه نسب إلى الله خلقاً هو بعينه تدبير من غير انفكاك ،فلو كان لآلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره وإذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره .

وقد سيقت الآية خطاباً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن نوع هذا الخطاب « فأروني ماذا خلق الذين من دونه » لا يستقيم من غيره صلى الله عليه وآله وسلم

(بحث روائي)

في المجمع : نزل قوله تعالى :« ومن الناس من يشتري لهو الحديث » في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصيّ بن كلاب كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدّث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن . عن الكلبي .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس ، ولا يبعد أن يكون ذلك سبب نزول تمام السورة كما تقدمت الإشارة اليه .

وفي المعاني بإسناده عن يحيى بن عبادة عن أبي عبد الله عليه السلام قلت : قوله عز وجل : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : منه الغنا .

أقول : وروى هذا المعنى في الكافي بإسناده عن مهران عنه عليه السلام ، وبإسناده عن الوشّا عن الرضا عنه عليهما السلام ، وبإسناده عن الحسن بن هارون عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : الغنا مما أوعد الله عليه النار وتلا هذه الآية : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنيات

فقال : التي يدخل عليها الرجال حرام والتي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس وهو قول الله عز وجل : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » .

وفي المجمع وروى أبو أمـامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يحلّ تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله : « ومن النـاس من يشتري لهو الحديث » الآية .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن جمّ غفير من أصحاب الجوامع عن أبي أمامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به إذ قال : يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقّوم الذي يخوّفكم به صاحبكم ؟ ثم أرسل إلى زبد وتمر فقال : هذا هو الزقّوم الذي يخوّفكم به . قال : ومنه الغنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين قال : ما قدّست أمة فيها البربط .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي ، وكان النضر ذا رواية لأحاديث النـاس وأشعارهم ، يقول الله عز وجل : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولـّى مستكبراً » الآية .

وفيه عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله تعـالى : « والسماء ذات الحبك » قال : هي محبوكة إلى الأرض وشبّك بين أصابعه . فقلت : كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » ؟ فقال : سبحان الله أليس يقول : « بغير عمد ترونها » ؟ فقلت : بلى . فقال : فثمّ عمد ولكن لا ترونها .

* * *

وَلَقَـدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ــ ١٢ . وَإِذْ قَالَ لُقْمٰنُ
لِاَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ــ ١٣.
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلىٰ وَهْنٍ وَفِصٰالُهُ فِي عٰامَيْنِ
أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ــ ١٤ . وَإِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ
تُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا وَصٰاحِبْهُمٰا فِي الدُّنْيٰا
مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ــ ١٥ . يٰا بُنَيَّ إِنَّهٰا إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي
صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ ــ ١٦ . يٰا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلٰوةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ
وَٱصْبِرْ عَلىٰ مٰا أَصٰابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ــ ١٧ . وَلاٰ تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنّٰاسِ وَلاٰ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ
فَخُورٍ ــ ١٨ . وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ
ٱلْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ــ ١٩ .

(بيان)

في الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة ونبذة من حكمه ومواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة ويناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممثلة حكمة وموعظة لما قصّ من حديث من كان يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً .

قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » الخ ، الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة . وقوله: « أن اشكر لي » قيل : هو بتقدير القول أي وقلنا: أن اشكر لي.

والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول ، وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم ، وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمه وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة .

وفي قوله : « أن اشكر لله » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر .

وقوله : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه ومن يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً ولا ضراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر .

وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدالّ على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرّة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرّة منه .

قوله تعالى : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له .

وقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدّر بقدر .

قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه » إلى آخر الآية ، اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنما اطّرد ههنا للدلالة على وجوب

شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيته وأمره تعالى ، فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكر .

وقوله: « حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين » ذكر بعض ما تحملته أمه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعياً له إلى شكرهما وخاصة الام .

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهناً على وهن، والفصال الفطم وترك الإرضاع،ومعنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقق العامين فيؤل إلى كون الإرضاع عامين ، وإذا ضمّ إلى قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » الأحقاف : ٤٦ ، بقي لأقلّ الحمل ستة أشهر ، وستكرر الإشارة اليه فيما سيأتي [١] .

وقوله : « أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير » تفسير لقوله : « وصينا » الخ ، في أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، وقوله : « إليّ المصير » إنذار وتأكيد للأمر بالشكر .

والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله : « أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير » الخ ، من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق : « أن اشكر لله » .

قوله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » إلى آخر الآية . أي إن ألحّا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكاً لي فلا تطعهما ولا تشرك بي ، والمراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوماً مجهولاً مطلقاً لا يتعلق به علم فيؤل المعنى : لا تشرك بي ما ليس بشيء ، هذا محصّل ما ذكره في الكشاف وربما أيده قوله تعالى : « أتنبئونه بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض » يونس : ١٨ .

وقيل : « تشرك » بمعنى تكفر و « ما » بمعنى الذي ، والمعنى : وإن جاهداك أن تكفر بي كفراً لا حجة لك به فلا تطعهما ويؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك

---

(١) في بحث روائي في ذيل آية الأحقاف .

في كلامه تعالى كقوله : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » يوسف : ٤٠ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : « وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ » الجملتان كالتلخيص والتوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتهما إن جاهدا على الشرك بالله .

يقول سبحانه : يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الامور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحاباً معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياماً معدودة متصرمة ، وأما الدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فسبيل غيرهما ممن أناب الى الله .

ومن هنا يظهر أن في قوله : « واتبع سبيل من أناب إليّ » إيجازاً لطيفاً فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرهما ممن أناب الى الله .

وقوله : «ثم إليّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون» أي هذا الذي ذكر ، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون الى يوم القيامة فاظهر لكم حقيقة أعمالكم التي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر .

وبما مرّ يظهر أن قوله : « في الدنيا » يفيد أولاً قصر المصاحبة بالمعروف في الامور الدنيوية دون الدينية ، وثانياً : تهوين أمر الصحبة وأنها ليست إلا في أيام قلائل فلا كثير ضير في تحمل مشاق خدمتها ، وثالثاً المقابلة ليوم الرجوع الى الله المشار اليه بقوله : « ثم إليّ مرجعكم » الخ .

قوله تعالى : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله » الخ ، ذكروا أن الضمير في « إنها » للخصلة من الخير والشر لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كان و « مثقال حبة » خبره ، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض ، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء .

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعاً إلى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال، والمعنى: يا بني إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر أخف الأشياء وأدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات .

قوله تعالى : « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور » الآية وما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة .

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة .

وقوله :« إن ذلك من عزم الامور » الإشارة إلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيع وقول بعضهم : إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر عدّ الصبر من عزم الامور في كلامه تعالى كقوله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الامور » الشورى : ٤٣ ، وقوله : « إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور » آل عمران : ١٨٦ .

والعزم – على ما ذكره الراغب – عقد القلب على إمضاء الأمر وكون الصبر – وهو حبس النفس في الأمر – من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه وهو من قدرة النفس وشهامتها .

وقول بعضهم : إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الامور بعيد وكذا قول بعضهم : إن العزم هو الجزم وهو لغة هذيل .

قوله تعالى : « ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور » قال الراغب : الصعر ميل في العنق والتصعير إمالته عن النظر كبراً قال : « ولا تصعر خدك للناس » وقال : المرح شدة الفرح والتوسع فيه انتهى .

فالمعنى : لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً ولا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء – وهو التكبر بتخيل الفضيلة – ويكثر من الفخر . وقال بعضهم إن معنى : « لا تصعر خدك للناس » لا تلو عنقك لهم تذللاً عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية .

قوله تعالى : « واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض – على ما ذكره الراغب – النقصان من الطرف والصوت فغض الصوت النقص والقصر فيه .

والمعنى : وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : إن من الكبائر عقوق الوالدين واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وقد روي : أكبر الكبائر الشرك بالله .

وفي الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين عليه‌السلام : حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .

قال : وأما حق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك ، وتعطش وتسقيك ، وتعرى وتكسوك ، وتضحى وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحر والبرد لتكون لها فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه .

وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك فإنك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : جاء رجل

إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله من أبرّ ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أباك .

وفي المناقب : مرّ الحسين بن علي عليه السلام على عبد الرحمان بن عمرو بن العاص فقال عبد الله : من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر الى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفين .

فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين عليه السلام فقال له الحسين عليه السلام : أتعلم أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأبي يوم صفين ؟ والله إن أبي لخير مني فاستعذر وقال إن النبي ﷺ قال لي: أطع أباك. فقال له الحسين عليه السلام: أما سمعت قول الله عز وجل : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » وقال رسول الله ﷺ : إنما الطاعة بالمعروف، وقوله : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي الفقيه في ألفاظه ﷺ الموجزة : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول : اتقوا المحقّرات من الذنوب فإن لها طالباً ، يقول أحدكم أذنب وأستغفر إن الله عز وجل يقول : « سنكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » وقال عز وجل : « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » .

وفيه بإسناده إلى معاوية بن وهب قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحبّ ذلك إلى الله عز وجل فقال : ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال : الصلاة قربان كل تقي .

وفي المجمع : « واصبر على ما أصابك » من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . عن علي عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تصعّر خدك للناس » أي ولا تمل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به ، وهذا المعنى قول ابن عباس و أبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني وابن عديّ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : « ولا تصعّر خدك للناس » قال : إليّ الشدق .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً إلا أن يكون داعياً أو يقرأ القرآن .

أقول : وفي جميع هذه المعاني وخاصة في العقوق روايات كثيرة متظافرة .

(كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه ، في فصلين)

١ – لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان ولم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عزّ من قائل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار .

ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله قال : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » قال : الفهم والعقل .

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه ومنّ عليه بالحكمة .

كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن هو عزم علي فسمعاً وطاعة فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني .

فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحكم أشدّ المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كل مكان إن وفى فبالحري أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ،ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً ومن تخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة .

فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فاعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم كان يوازر داود بحكمته فقال له داود : طوبى لك يا لقمان اعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : كان حبشياً .

٢ - وفي تفسير القمي بإسناده عن حماد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل ، فقال : أما والله ما اوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال .

ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله ساكتاً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره ، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ولم يغضب قط ، ولم يمازح إنساناً قط ، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موت أحد منهم .

ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتى تحابا ، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه ، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء ،وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به ،ويرحم الملوك والسلاطين لغرتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك ، ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر ، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك اوتي الحكمة ومنح العصمة .

وإن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني وإن هو خيّرني قبلت العافية .

فقالت الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل وأكثر

فتناً وبلاء يخذل ولا يعان ويغشاه الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً ، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما تزول هذه ولا تدرك تلك .

قال : فتعجب الملائكة من حكمته واستحسن الرحمان منطقه فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه الى قدمه وهو نائم وغطّاه بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه ، وخرج على النـاس ينطق بالحكمة ويبثّها فيها .

قال : فلما أُوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عز وجل الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عز وجل الخلافـة في الأرض وابتلي بها غير مرة كل ذلك يهوي في الخطأ يقيله الله ويغفر له ، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه ، وكان داود يقول له : طوبى لك يا لقمان أُوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة.

ثم قـال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » قال : فوعظ لقمان ابنه باثار (١) حتى تفطّر وانشق .

وكان فيما وعظه به يا حماد أن قال : يا بنيّ إنك منذ سقطت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدارٌ أنت اليها تسير أقرب اليك من دار أنت عنها متباعد . يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك ، وخـذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، ولا تدخل فيها دخولا يضر بآخرتك ، وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام .

يا بني : إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان واجعل شراعها التوكل ، واجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن

---

(١) باثار اسم ابنه والتفطر والانشقاق كناية عن كمال التأثر .

هلكت فبذنوبك .

يا بني : إن تأدبت صغيراً انتفعت به كبيراً ومن عنى بالأدب اهتم به ، ومن اهتم به تكلف علمه ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ومن اشتد له طلبه أدرك منفعته فاتخذه عادة فإنك تخلف في سلفك وينتفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب ويخشى صولتك راهب ، وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره فإن غُلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة وإذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيباً في طلب العلم فإنك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه ولا تمارِنّ فيه لجوجاً ولا تجادلنّ فقيهاً ولا تعادين سلطاناً ، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه ولا تواخين فاسقاً ولا تصاحبن متّهماً واخزن علمك كما تخزن ورقك .

يا بنيّ : خفْ الله عز وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك وارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك .

فقال له ابنه : يا أبت كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد ؟ فقال له لقمان : يا بني : لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز وجل ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله ، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض .

فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً ومن أطاع الله خافه ، ومن خافه فقد أحبه ، ومن أحبه فقد اتبع أمره ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته ، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله .

يا بني : لا تركن الى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين .

وفي قرب الأسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليه السلام قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته .

وفي البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان

فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال : يا بنيّ : إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت ، وقال : قال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تقترب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتهان ، كل دابة تحب مثلها وابن آدم [1] لا يحب مثله . لا تنشر [2] بزّك إلا عند باغيه ، وكما ليس بين الكبش والذئب خلّة كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلة ، من يقترب من الزفت تعلّق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرقه ، من يحب المراء يشتم ، ومن يدخل مدخل السوء يتهم ، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال : يا بني صاحب مائة ولا تعاد واحداً ، يا بني إنما هو خلاقك وخلقك فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس فلا تبغضن اليهم وتعلّم محاسن الأخلاق .

يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار . يا بني أدّ الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين . يا بني لا تُرِ الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : كان فيما وعظ به لقمان لابنه يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له ، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها ، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع اليها آخر الدهر اخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها .

واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيما

---

(١) أي أن ابن آدم لا يحب أن يكافيه غيره في مزية من المزايا .

(٢) أي لا تظهر متاعك إلا عند طالبه .

أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته ، فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرك ، وجدّ في أمرك ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرّض لمعروف ربك ، وجدّد التوبة في قلبك ، واكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك ، ويقضى قضاؤك ، ويحال بينك وبين ما تريد .

وفي البحار عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق عليه‌السلام قال : قال لقمان : يا بني إياك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب ، والزم نفسك التؤدة [١] في أمورك وصبّر على مؤنات الإخوان نفسك ، وحسّن مع جميع الناس خلقك .

يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضل به على إخوانك فلا يعدمنك حسن الخلق وبسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجانبه الفجار ، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم .

أقول : والأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إيثاراً للاختصار .

* * *

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ــ ٢٠ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ــ ٢١ . وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ

---

(١) التؤدة ـ بضم التاء كهمزة ـ السكون والرزانة .

مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ـــ ٢٢ .
وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ـــ ٢٣ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ
غَلِيظٍ ـــ ٢٤ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ
قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ـــ ٢٥ . لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ
وَٱلْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ـــ ٢٦ . وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ
مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ
اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ـــ ٢٧ . مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ
وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ـــ ٢٨ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى
أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ـــ ٢٩ . ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ
ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ـــ ٣٠.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي
ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ـــ ٣١ . وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَٱلظُّلَلِ
دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا
يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ـــ ٣٢ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا
رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ

وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ــ ٣٣ . إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ــ ٣٤ .

(بيان)

رجوع إلى ما قبل القصة من آيات الوحدانية ونفي الشريك وأدلتها المنتهية إلى قوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » رجوع إلى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب .

وعليه فصدر الآية من تتمة كلام النبي ﷺ ويتصل بقوله : « هــذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ولا التفات في قوله : « ألم تروا » .

وعلى تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله : « ألم تروا » التفات من سياق الغيبة الذي في قوله : « بل الظالمون في ضلال مبين » إلى الخطاب ، والالتفات في مثل هــذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم وتأكد غيظه من جهل المخاطبين وتماديهم في غيّهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما هو بمرئى منهم ومسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم وينتزعوا عن غفلتهم .

وكيف كان فالمراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان وهم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة والإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخر الله الكون لأجله .

والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة وكما يسخر المولى عبده والمخدوم خادمه في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريده الله من نظام يدبر به العالم الإنساني .

ومما مر يظهر أن اللام في «لكم» للتعليل الغائي والمعنى لأجلكم والمسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان، وربما احتمل كون اللام للملك والمسخر بالكسر هو الإنسان بمشية من الله تعالى كما يشاهد من تقدم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون واستخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله : « ألم تروا » .

وقوله : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » الإسباغ الإتمام والإيساع أي أتم وأوسع عليكم نعمه ، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذ منه ، والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع والبصر وسائر الجوارح والصحة والعافية والطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحس كالشعور والإرادة والعقل .

وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحس كما تقدم وكالدين الذي به ينتظم أمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدم وكالمقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل .

وقوله : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » رجوع الخطاب إلى النبي ﷺ على ما كان في السياق السابق، والمجادلة المخاصمة النظرية بطريق المغالبة ، والمقابلة بين العلم والهدى والكتاب تلوّح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية ، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحي أو الإلهام ، وبالكتاب الكتاب السماوي المنتهى اليه تعالى بالوحي النبوي ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها .

فمعنى قوله : يجادل في الله بغير كذا وكذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية بغير حجة يصح الركون اليها بل عن تقليد .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه

آباءنا » الخ ، ضمائر الجمع راجعة إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد في الآية السابقة راجع اليه باعتبار اللفظ .

وقوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال : اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل : وإذا دعوا إلى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه ، وبعبارة أُخرى إذا أُلقي اليهم القول مع الحجة قابلوه بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .

وقوله : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصلية معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان ولو دعاهم .

ومحصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل وكان اتباعاً يدعوهم به الى الشقاء وعذاب السعير وهو كذلك فإنه اتباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره .

قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الامور » استئناف ويحتمل أن يكون حالاً من مفعول « يدعوهم » وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد اليهم ، والمعنى : أولو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا والحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجا وأفلح والحال أن عاقبة الامور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود .

وإسلام الوجه إلى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عمن سواه . والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسّره به في أول السورة « هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » والعروة الوثقى المستمسك الذي لا انفصام له .

والمعنى : ومن وحّد الله وعمل صالحاً مع اليقين بالمعاد فهو ناجٍ غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها إلى الله وهو الذي يعده بالنجاة والفلاح .

ومن هنا يظهر أن قوله :« وإلى الله عاقبة الامور » في مقام التعليل لقوله:« فقد

استمسك بالعروة الوثقى » بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة والفلاح .

قوله تعالى : « ومن كفر فلا يحزنك كفره – إلى قوله – إلى عـــذاب غليظ » تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن وهم بالآخرة راجعون اليه تعـالى فينبئهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم وتبعاتها وهي النار .

وقوله : « يمتعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ » كشف عن حقيقـة حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق «إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين في الدنيـا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جيء بهـــذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط وإنما يمتعهم في الدنيا قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال وأمرهم إلى الله دائماً لن يعجزوا الله في حال التنعم ولا غيرها .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيـد معترفون به من حيث لا يشعرون ، فإنهم إن سئلوا عمن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عزّ اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدبر لهـا هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق ، وإذا كان مدبر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويُرجى ويُخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون .

ولذلك أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال :« قل الحمد لله » ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال : « بل أكثرهم لا يعلمون » نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

قوله تعالى : « لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميـــد » لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنمـا يثبت التوحد بالربوبية والالوهية إذا كان التدبير والتصرف اليه تعالى وكان نفس الخلق كافياً في استلزامه اكتفى به في تمام الحجة واستحمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستجهل القوم لغفلتهم .

ثم احتجّ عليه ثانياً من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنياً محموداً مطلقاً وتقريره أنه تعالى مبدء كل خلق ومعطي كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنياً من جهة من الجهات لم يكن مبدء له معطياً لكماله هذا خلف ، وإذا كان غنياً على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير وتصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان مالكه ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير والتصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه .

وهذا هو الذي يشير اليه قوله : « لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني» فقوله: « لله ما في » الخ ، حجة على وحدانيته وقوله: « إن الله هو الغني » تعليل للملك.

وأما قوله : « الحميد » أي المحمود في أفعاله فهو مبدء آخر للحجة وذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري وكل جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق ولو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب اليه لكان الحمد والثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميداً على الإطلاق وبالنسبة إلى كل شيء وقد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف .

قوله تعالى: « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » الخ، « من شجرة » بيان للموصول والشجرة واحد الشجر وتفيد في المقام – وهي في سياق «لو» – الاستغراق أي كل شجرة في الأرض ، والمراد بالبحر مطلق البحر ، وقوله : « يمده من بعده سبعة أبحر » أي يعينه بالإنضياف اليه سبعة أمثاله والظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدال على معنى ، وقد أطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى ، وقد قال: « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، وقد أطلق على المسيح عليه‌السلام الكلمة في قوله : « وكلمته ألقاها الى مريم » النساء : ١٧١ .

فالمعنى : ولو جعل جميع أشجار الأرض أقلاماً وأخذ البحر وأضيف اليه سبعة أمثاله وجعل المجموع مداداً فكتب كلمات الله – بتبديلها ألفاظاً دالة عليها – بتلك

الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية .

ومن هنا يظهر أن في الكلام إيجازاً بالحذف وأن قوله : «إن الله عزيز حكيم» في مقام التعليل ، والمعنى : لأنه تعالى عزيز لا يعزّه ولا يقهره شيء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوّض التدبير إلى غيره .

والآية متصلة بما قبلها من حيث دلالته على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره وكثرة أوامره التكوينية في الخلق والتدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مداداً وكتبت به أشجار الأرض المجعولة أقلاماً قبل أن ينفد أوامره وكلماته .

قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير » سوق للكلام إلى إمكان الحشر وخاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى واختلاطهم بالأرض من غير تميّز بعضهم من بعض .

فقال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » في الإمكان والتأتي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبة اليه الواحد والجمع ، وذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة والصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة والصعوبة .

ويشهد لما ذكر إضافة الخلق والبعث إلى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة ، والمعنى : ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنه ليس يجهل شيئاً منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وبعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة .

وبما مرّ يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير وبعثهم كنفس واحدة أن يعلل بمثل قولنا : إن الله على كل شيء قدير أو قوي عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الذي لا ارتباط له بالخلق والبعث .

وذلك أن الإشكال الذي تعرضت الآية لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال وهي

على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالإشكال متوجه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله : « فننبئهم بما عملوا » وقد أجيب بأنه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال وهو سميع بصير لا يشذّ عن مشاهدته قول ولا فعل .

وقد كان ذيّل قوله السابق : « فننبئهم بما عملوا » بقوله : « إن الله عليم بذات الصدور » وهو مبني على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسيئة كما يشير اليه قوله : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ ، وجواب عن هذا الإشكال لو وجّه إلى ما تحمله القلوب على كثرته فيجاب عنه أن الله عليم بذات الصدور ولو وجّه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية التي نحن فيها : « إن الله سميع بصير » ، فالإشكال والجواب بوجه نظير ما وقع في قوله تعالى : « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى » طه : ٥٢ ، فافهم .

وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « ألم ترَ أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمى » الخ ، استشهاد لما تقدم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه ، وكذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعها وغروبها واختلاف جريانها ومسيرهما بحسب الحس وكلٌّ منها يجري لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوّش في النظام الدقيق الذي لها فهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبرة من مدبّرها .

فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وبإيلاج النهار في الليل عكس ذلك ، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعها إلى وقت محدود مقدّر ثم عودها إلى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري وأمعن فيه لم يشك في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل وليس ذلك عن صدفة واتفاق .

وقوله: « وأن الله بما تعملون خبير » عطف على موضع « أن الله يولج » والتقدير ألم تر أن الله بما تعملون خبير وذلك لأن من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليماً بجلائل أعماله ودقائقها ، كذا قيل .

وفيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل والنهار والشمس والقمر وإن صحّ في نفسه فهو علم حدسي لا مصحح لتسميتها رؤية وهو ظاهر .

ولعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنساني موزّعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعّالة أو من جهة إلى بعض القوى والأدوات أو كلها ومن جهة إلى جاذبة ودافعة ومن جهة إلى سني العمر من طفولية ورهاق وشباب وشيب إلى غير ذلك .

ثم في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس إلى وضع كلٍّ في موضعه الذي يليق به وحركته بهذه القافلة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال وسعادتها في المآل وتورّطها في ورطات عالم المادة وموطن الزينة والفتنة فمن ناجٍ أو هالك .

فإذا أمعن في هذا النظام المحيّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدّره ربه ونظام نظمه صانعه العليم القدير ومشاهدة هذا النظام العلمي العجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير ، والله العالِم .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليّ الكبير » لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند اليه في وجوده وتدبير أمره وأن إليه عود كل شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنه ليس إلى من يدعون من دونه خلق ولا أمر ، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيراً إلى ما تقدّم : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل » الخ .

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته ، وقوله : « أن الله هو الحق » بما فيه من ضمير الفصل وتعريف

الخبر باللام يفيد القصر أعني حصر المبتدأ في الخبر .

فقوله : « بأن الله هو الحق » قصر له تعالى في الثبوت ، أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان وبعبارة اخرى هو ثابت من جميع الجهات وبعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروري وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته .

وإذا كان حقية الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته وغيره إنما يحق ويتحقق به.

وإذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً : أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها اليه تعالى وأيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامة وفي النظامات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها وكل فرد من أفرادها اليه تعالى .

وثانياً : أن الكمالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة والخلق والملك والغنى والحمد والخبرة — مما عدّ في الآيات السابقة أو لم يعدّ — صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه وعز قدسه لأنها صفات وجودية والوجود قائم به تعالى فهي إما عين ذاته كالعلم والقدرة وإما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة .

وثالثاً : أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكل ما يحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبية كنفي الشريك ونفي التعدد ونفي الجسم والمكان والزمان والجهل والعجز والبطلان والزوال الى غيرها .

فإن إطلاق وجوده وعدم تقيده بقيد ينفي عنه كل معنى عدمي أي إثبات الوجود مطلقاً فإن مرجع نفي النفي إلى الإثبات .

ولعل قوله: « وأن الله هو العلي الكبير » يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم « العلي » يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو يجمع الصفات السلبية والكبير يفيد سعته لكل كمال وجودي فهو يجمع الصفات الثبوتية .

وأن صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية والسلبية جميعاً على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال

فهو الله عز اسمه .

وقوله : « وأن ما يدعون من دونه الباطل » يجري فيه ما يقابل ما جرى في قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الالوهية والربوبية باطلا لا حقّ فيه وإذ كان باطلاً على كل تقدير فلا يستند اليه خلق ولا تدبير مطلقاً .

والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا : المستجمع لصفات الكمال .

قوله تعالى : « ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته » الخ ، الباء في « بنعمة الله » للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

والمعنى : ألم ترَ أن الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك .

واحتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة .

وقد تم الآية بقوله: «إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور» والصبّار الشكور أي كثير الصبر عند الضرّاء وكثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل .

قوله تعالى : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » الخ ، قال الراغب : الظلة سحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره، قال : « كأنه ظلة » « عذاب يوم الظلة » انتهى .

والمعنى : وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد .

وقوله : « فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد » المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلّتهم عليه فطرتهم إذ ذاك، وفي التعبير بمن التبعيضية

استقلال عدتهم أي فلما نجّا الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البر فقليل منهم المقتصدون .

وقوله : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختّار كفور » الختّار مبالغة من الختر وهو شدة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : «يا أيها الناس اتقوا ربكم» لما ساق الحجج والمواعظ الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عام يدعوهم إلى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يغني فيه مغن إلا الإيمان والتقوى .

قال الراغب : الجزاء الغنى والكفاية، وقال : يقال : غررت فلاناً أصبت غرته ونلت منه ما أريد والغرة غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة ، إلى أن قال: فالغرور كل ما يغر الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين وبالدنيا لما قيل : الدنيا تغر وتضر وتمر انتهى .

فمعنى الآية : « يا أيها النـاس اتقوا ربكم » وهو الله سبحانه « واخشوا يوماً » وهو يوم القيامة « لا يجزي » لا يغني « والد عن ولده ولا مولود هو جاز » مغن كاف « عن والده » شيئاً « إن وعد الله » بالبعث « حق » ثابت لا يخلف « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » بزينتها الغارّة « ولا يغرنكم بالله الغرور » أي جنس ما يغر الإنسان من شؤن الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان .

قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر .

وقد عدّ سبحانه أموراً ثلاثة مما تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلا هو ويدل على القصر قوله : « إن الله عنده علم الساعة » وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلا أن يعلمه غيره .

وعدّ أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كل ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله : « ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً » وقوله : « ولا تدري نفس بأي أرض تموت » .

وكأن المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دقّ وجلّ حتى مثل الساعة التي لا يتيسر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهم ما يهمكم من العلم فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به وتتمردوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم .

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى حماد بن أبي زياد قال : سألت سيدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فقال : النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الإمام الغائب .

أقول : هو من الجري والآية أعم مدلولاً .

وفي تفسير القمي بإسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » قال : أما النعمة الظاهرة فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا . الحديث .

أقول : وهو كسابقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وأسبغ عليكم » الآية ، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه فقال : يا ابن عباس أما ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله من خلقك وما أفاض عليك من الرزق وأما ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به ، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاثة جعلتهن للمؤمن ولم يكنّ له : صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله ، وجعلت له ثلث ماله أكفّر به عنه خطاياه ، والثالث سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم .

أقول : روى ما يقرب منه في الدر المنثور بطرق عن ابن عباس ، والحديث كسابقيه من الجري .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر بن أذينة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه فذلك قوله عز وجل : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله » قال : السفن تجري في البحر بقدرة الله .

وفيه في قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور » قال : الذي يصبر على الفقر والفاقة ويشكر الله عز وجل على جميع أحواله .

وفي المجمع في الآية وفي الحديث: الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر .

أقول : وهو مأخوذ من الآية فقد مرّ أنه كناية عن المؤمن .

وفي تفسير القمي فيقوله تعالى: « إلا كل ختّار كفور » قال : الختّار الخدّاع وفي قوله : « إن وعد الله حق » قال : ذلك القيامة .

وفي إرشاد المفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذمّ الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوّد منها ، مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ، ومصلّى ملائكته ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمّها ؟ وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها ، فشوّقت بسرورها إلى السرور ، وحذّرت ببلائها البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً .

فيا أيها الذامّ للدنيا والمغترّ بتغريرها متى غرّتك ؟ أبمصارع آبائك في البلى أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم علّلت بكفيك ومرّضت بيديك تبتغي لهم الشفاء واستوصفت لهم الأطباء ، وتلتمس لهم الدواء ، لم تنفعهم بطلبك ولم تشفعهم بشفاعتك مثّلت بهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا تغني عنك أحبّاؤك.

وفي الخصال عن أبي أسامة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال: ألا أخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه ؟ قال : قلت : بلى. قال : « إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إن الله عليم خبير » .

أقول : هناك روايات كثيرة جداً عن النبي والأئمة عليهم السلام تخبر عن مستقبل حالهم وعن زمان موتهم ومكانه وهي تقيّد هذه الرواية وما في معناها من الروايات بالتعليم الإلهي لكن بعض الروايات يأبى التقييد ولا يعبأ بأمرها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الورّاث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، متى تقوم الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية .

أقول : الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال .

وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : لم يعم على نبيكم ﷺ إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة .

(سورة السجدة مكية ، وهي ثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . الٓمٓ ــ ١ . تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ٢ . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ــ ٣ . أَللهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ــ ٤ .
يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ــ ٥ . ذٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ــ ٦ . أَلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَءَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ ــ ٧ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ــ ٨ . ثُمَّ
سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ
قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ــ ٩ . وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي
خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ــ ١٠ . قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ
ٱلْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ــ ١١ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ

ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ــ ١٢ . وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ــ ١٣ . فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ١٤ .

(بيان)

غرض السورة تقرير المبدء والمعاد وإقامة الحجة عليها ودفع ما يختلج القلوب في ذلك مع إشارة إلى النبوة والكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقاً والفاسقون الخارجون عن زيّ العبودية ووعد أولئك بما هو فوق تصوّر المتصورين من الثواب ووعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلّد وأنهم سيذوقون عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر ، وتختتم السورة بتأكيد الوعيد وأمر النبي ﷺ بالانتظار كما هم منتظرون .

وهي مكية إلا ثلاث آيات نزلت – كما قيل – بالمدينة وهي قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » إلى تمام ثلاث آيات .

والذي أوردناه من آياتها يتضمّن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي أشرنا اليه .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ، أي هذا تنزيل الكتاب ، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى : هذا هو الكتاب المنزّل لا ريب فيه .

وقوله : « من رب العالمين » فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوحدانية والمعاد اللذين ينكرهما الوثنية لما مرّ مراراً أنهم لا يقولون برب

العالمين بل يثبتون لكل عالم إلهاً ولمجموع الآلهة إلهاً هو الله تعالى عما يقولون علوّاً كبيراً.

قوله تعالى: « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » الخ ، أم منقطعة ، والمعنى : بل يقولون افترى القرآن على الله وليس من عنده فردّه بقوله : « بل هو الحق من ربك لتنذر » الخ .

وقوله : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » قيل : يعني قريشاً فإنهم لم يأتهم نبي قبله ﷺ بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العبسي وحنظلة على ما في الروايات .

وقيل : المراد به أهل الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العبادة وفيه أن معنى الفترة هو عدم انبعاث نبي له شريعة وكتاب وأما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها وخلو جميع الزمان وهو قريب من ستة قرون من النبي مطلقاً .

وقوله : « لعلهم يهتدون » غاية رجائية لإرسال الرسول والترجي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم في نظائره .

قوله تعالى: « الله الذي خلق السماوات والأرض – إلى قوله – أفلا تتذكرون » تقدم الكلام في تفسير قوله : « خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش » في نظائره من الآيات وتقدم أيضاً أن الإستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع ولذا أتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله : « ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار » الأعراف : ٥٤ وقوله : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » يونس : ٣ ، وقوله : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض » الحديد : ٤ ، وقوله : « ذو العرش المجيد فعّال لما يريد » البروج : ١٦ .

والوجه في ذكر الإستواء على العرش ، بعد ذكر خلق السماوات والأرض إن الكلام في اختصاص الربوبية والالوهية بالله وحده ومجرد استناد الخلقة اليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئاً فإنهم لا ينكرون استناد الخلقة اليه وحده وإنما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الالوهية وهي المعبودية بآلهتهم ولله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب وإله الآلهة .

فكان من الواجب عند إقامة الحجة لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلقة ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء وخالقها هو الذي يربها ويدبر أمرها فيكون رباً وحده وإلهاً وحده كما أنه موجد خالق وحده .

ولذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة في الآية التي نحن فيها إذ قيل : « خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » فالولاية والشفاعة كالاستواء على العرش من شؤون التدبير .

وقوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلوم أن أمورنا والشؤون التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة وما يخص بنا من نظام خاص ، والنظام أياً ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة اليه تعالى فهو تعالى وليّنا القائم بأمرنا المدبّر لشؤوننا وأمورنا ، كما هو وليّ كل شيء كذلك وحده لا شريك له .

والشفيع ـ على ما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب ـ هو الذي ينضم إلى سبب ناقص فيتمم سببيته وتأثيره ، والشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبقناها على الأسباب والمسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة وشرائطها بعضها شفيعاً لبعض لتتميم حصة من الأثر منسوبة اليه كما أن كلا من السحاب والمطر والشمس والظل وغيرها شفيع للنبات .

وإذ كان موجد الأسباب وأجزائها والرابط بينها وبين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتمّم نقصها ويقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره .

وببيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض اليهم فهو تعالى يرزقهم مثلاً بما أنه رازق جواد غني رحيم ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رؤف رحيم ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا .

فما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء وبين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض وبين الرؤف الرحيم والرحيم يتوسط بينه وبين القدير وهكذا .

والتوسط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره وينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة فافهم .

وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعاً بنفسه عند نفسه وحقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء وصفة من صفاته كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته ومن عدله إلى فضله ، وأما كونه تعالى شفيعاً بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة .

والقوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيع عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيعاً عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال :

فقال بعضهم : إن دون في قوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » بمعنى عند و « من دونه » حال من ضمير « لكم » والمعنى : ما لكم حال كونكم مجاوزين دونه ومن عنده ولي ولا شفيع أي لا ولي لكم ولا شفيع ففيه نفي الولي والشفيع لهم عند الله .

وفيه أن دون وإن صح كونه بمعنى عند لكن وجود «من» قرينة على أنه بمعنى غير، ولا معنى لأخذ المجاوزة ورجوع «ما لكم من دونه » إلى معنى «ما لكم عنده».

وقال بعضهم : إن الشفيع في الآية بمعنى الناصر مجازاً ودون بمعنى غير و « من دونه » حال من « وليّ » والمعنى : ما لكم ولي ولا ناصر غيره ، وفيه أنه تجوز من غير موجب .

وقال بعضهم إن إطلاق الشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم : هؤلاء شفعاؤنا ويزعمون أن كل واحد منهم شفيع لهم والمعنى: على هذا لو فرض وقدر أن الإله ولي شفيع ما لكم وليّ ولا شفيع غير الله سبحانه .

وقال بعضهم : إن دون بمعنى عند والضمير في « من دونه » للعذاب، والمعنى : ليس لكم من دون عذابه وليّ ، أي قريب ينفعكم ويرد عذابه عنكم ولا شفيع يشفع لكم .

وفيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكّم من غير دليل ، ويرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده وقد عرفت أن المعنى تحليلي والشفيع والمشفوع عنده واحد .

وقوله : « أفلا تتذكرون » استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك والتدبير لله سبحانه وهو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي ولا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم .

قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه وهذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي .

والتدبير وضع الشيء في دابر الشيء والإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحداً بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء والارض وقد قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وقال : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ .

وقوله : « ثم يعرج اليه » بعد قوله : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » لا يخلو من إشعار بأن « يدبّر » مضمن معنى التنزيل والمعنى : يدبر الأمر منزلاً أو ينزله مدبراً ــ من السماء إلى الأرض ولعله الامر الذي يشير اليه قوله : « فسوّاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ .

وفي قوله : « يعرج اليه » إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي اليه أزمة الامور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها ، ولم يذكر هنـــاك إلا علو هو السماء ، وسفل هو الأرض ونزول وعروج فالنزول من السماء والعروج إلى الله يشعر بأن السماء هو مقـــام الحضور الذي يصدر منه تدبير

الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو السماء والله المحيط بكل شيء ينزّل التدبير الأرضي من هذا الموطن ، ولعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله : « وأوحى في كل سماء أمرها » .

وقوله : « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون » معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبّق على ما في الأرض من زمان الحوادث ومقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدّره ما نعدّه من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي .

وإذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان اليه كان المراد أنه وعاء لو طبّق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدّون .

وأما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن « في يوم » قيد لقوله : « يعرج اليه » فقط كما وقع في قوله : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المعارج : ٤ .

ثم على تقدير كون الظرف قيداً للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة ، وأما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفاً كل موقف مقداره ألف سنة .

ثم المراد بقوله : « مقداره ألف سنة » هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله : « يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة » البقرة : ٩٦ ، أي يعمّر عمراً طويلاً جداً وإن كان هذا الاحتمال بعيداً من السياق .

والآية - كما ترى - تحتمل الاحتمالات جميعاً ولكل منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون « في يوم » قيداً لقوله : « ثم يعرج اليه » وكون المراد بيوم عروج الأمر مشهداً من خمسين مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » تقدم تفسير مفردات الآية ، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة .

قوله تعالى: « الذي أحسن كل شيء خلقه » قال الراغب: الحسن عبارة عن كل مبهج ــ بصيغة الفاعل ــ مرغوب فيه وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس. انتهى. وهذا تعريف له من جهة خاصته وانقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

وحقيقته ملاءمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للغرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم وغيرها، وحسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدني وهو نيل كل ذي حق حقه، وهكذا.

والتدبر في خلقة الأشياء وكل منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله وسعادته تجهيزاً لا أتم ولا أكمل منه يعطي أن كلاً منها حسن في نفسه حسناً لا أتم وأكمل منه بالنظر إلى نفسه.

وأما ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلأحد أمرين: إما لكون الشيء السيىء ذا عنوان عدمي يعود اليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم والزنا فإن الظلم ليس بسيىء قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت والزنا ليس بسيىء قبيح من جهة نفس العمل الخارجي الذي هو مشترك بينه وبين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية.

أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة والقبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطيخ وقياس الشوك إلى الورد وقياس العقرب إلى الإنسان فإن المساءة إنما تطرء هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثم قياسها إلى طبعنا، ويرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأول بالحقيقة.

وكيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة ويدل عليه الآية « الذي أحسن كل شيء خلقه » إذا انضمّ إلى قوله: « الله خالق كل شيء » الزمر:٦٢ فينتجان أولاً: أن الخلقة تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

وثانياً: أن كل سيىء وقبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيىء قبيح كالمعاصي والسيئات من حيث هي معاص وسيئات والأشياء السيئة من جهة القياس.

قوله تعالى: « وبدء خلق الإنسان من طين » المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه

من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من أب وأم كآدم وزوجه عليهما السلام ، والدليل على ذلك قوله بعده : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق وبين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين ، ولو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال : ثم جعله سلالة من ماء مهين فافهمه .

وقوله: « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السلالة كما في المجمع الصفوة التي تنسل أي تنزع من غيرها ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه ، والمهين من الهون وهو الضعف والحقارة وثم للتراخي الزماني .

والمعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى : « ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه » التسوية التصوير وتتميم العمل ، وفي قوله: « نفخ فيه من روحه » استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفَس الذي يتنفس به ثم نفخه في قالب من سوّاه ، وإضافة الروح اليه تعالى إضافة تشريفية ، والمعنى: ثم صوّر الإنسان المبدو خلقه من الطين والمجعول نسله من سلالة من ماء مهين ونفخ فيه من روح شريف منسوب اليه تعالى .

قوله تعالى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكريات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكلية العقلية .

وقوله : « قليلاً ما تشكرون » أي تشكرون شكراً قليلاً ، والجملة اعتراضية في محل التوبيخ وقيل : الجملة حالية ، والمعنى : جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم تشكرون قليلاً ، والجملة على أي حال مسوقة للبث والشكوى والتوبيخ .

والالتفات في قوله : « وجعل لكم » الخ ، من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإنعام الإلهي الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون.

قوله تعالى : « وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » حجة من منكري البعث مبنية على الاستبعاد . والضلال في الأرض قيل : هو الضيعة كما يقال : ضلّت النعمة أي ضاعت ، وقيل : هو بمعنى الغيبة ، وكيف

كان مرادهم به : إنا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا تميّز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا نقع في خلق جديد ونخلق ثانياً خلقنا الأول ؟

والاستفهام للإنكار ، والخلق الجديد هو البعث .

وقوله: « بل هم بلقاء ربهم كافرون » إضراب عن فحوى قولهم : « ءإذا ضللنا في الأرض » كأنه قيل : إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا على ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع الينا ولقائنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدلُّ على الرجوع .

قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » توفي الشيء أخذه تاماً كاملاً كتوفي الحق وتوفي الدّين من المديون .

وقوله : « ملك الموت الذي وكل بكم » قيل : أي وكل بإماتتكم وقبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك .

وقد نسب التوفي في الآية إلى ملك الموت ، وفي قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر:٤٢ اليه تعالى، وفي قوله: « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفّته رسلنا» الأنعام : ٦١ ، وقوله : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » النحل : ٢٨ ، إلى الرسل والملائكة نظراً إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجري لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى ومسبّب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة والإنسان كاتب .

وقوله:« ثم إلى ربكم ترجعون » هو الرجوع الذيعبر عنه في الآية السابقة باللقاء وموطنه البعث المترتب على التوفي والمتراخي عنه ، كما يدلّ عليه العطف بثم الدالة على التراخي .

والآية – على أي تقدير – جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث ومن المعلوم أن إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله: « ثم إلى ربكم ترجعون » دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدللة والكلام

الإلهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من الحاجة .

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلاناً لكم وضلالاً منكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعني بلفظة « كم » محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض وإنما يضل الأبدان وتتغير من حال إلى حال وقد كانت في معرض التغير من أول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها .

وبهذا يندفع حجتهم على نفي المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الإنسان فينعدم ولا معنى لإعادة المعدوم فإن حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها بقول « أنا » وهي غير البدن والبدن تابع لها في شخصيته وهي لا تتلاشى بالموت ولا تنعدم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب والجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

وظهر بما تقدم أولاً وجه اتصال قوله : « قل يتوفاكم » الخ بقوله : « إذا ضللنا في الأرض » الخ وأنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة ، وقد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفي بمطلق الإماتة من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفي فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم .

وثانياً : أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » نكس الرأس إطراقه وطأطأته ، والمراد بالمجرمين بقرينة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الذين يجحدون المعاد ويقولون : « ءإذا ضللنا في الأرض » الخ .

وفي التعبير عن البعث بقوله : « عند ربهم » محاذاة لما تقدم من قوله : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » أي واقفون موقفاً من اللقاء لا يسعهم إنكاره ، وقولهم : « أبصرنا

وسمعنا » ومسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقيني وبقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فيتم لهم سببا النجاة .

والمعنى : ولو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رؤسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الخزي والذل والندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملاً صالحاً إنا موقنون والمحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء ولو تراهم إذ أحاط بهم الخزي والذل فنكسوا رؤسهم واعترفوا بما ينكرونه اليوم وسألوا العود إلى ههنا ولن يعودوا .

قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » إلى آخر الآية أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة والكافرة الهدى الذي يختص بها ويناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر وإرادته أن يتلبّس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه وإرادة من دون أن ينجر إلى الإلجاء والاضطرار فيبطل التكليف ويلغو الجزاء . .

وقوله : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » أي ولكن هناك قضاء سابق مني محتوم وهو إملاء جهنم من الجنة والناس أجمعين وهو قوله لإبليس لما امتنع من سجدة آدم وقال : « فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » : « فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ ، فقضى أن يدخل متّبعي إبليس العذاب المخلّد .

ولازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم وفسقهم بالخروج عن زي العبودية كما قال : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ، « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٨٠ ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم » إلى آخر الآية ، تفريع على قوله : « ولكن حقّ القول مني » والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة ويكنّى به عن عدم الاعتناء بما يهمّ الشيء وهو المراد في الآية .

والمعنى: فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب

عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتى جحدتموه ولم تعملوا صالحاً تثابون به فيه لأنا لم نعتن بما يهمكم في هـذا اليوم من السعادة والنجاة ، وقوله : « وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » تأكيد وتوضيح لسابقه أي إن الذوق الذي أمرنا به ذوق عـذاب الخلد ونسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج النحاس عن ابن عبـاس قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات « أفمن كان مؤمناً » إلى تمام الآيات الثلاث .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن علي قال : عزائم سجود القرآن الم تنزيل السجدة ، وحم تنزيل السجدة ، والنجم ، واقرأ باسم ربك الذي خلق .

وفي الخصال عن أبي عبـد الله عليه السلام قال : إن العزائم أربـع : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، والنجم ، وتنزيل السجدة ، وحم السجدة .

وفي الدر المنثور أخرج أحمـد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً قد أسبل إزاره فقـال له : ارفع إزارك ، فقال : يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتاي . قال : ارفع إزارك كل خلق الله حسن .

وفي الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وعن قول الله عز وجل : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم » وعن قول الله عز وجل : « الذين يتوفاهم الملائكة طيبين » « والذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » وعن قول الله عز وجل : « توفته رسلنا » وعن قوله عز وجل : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة » وقد يموت في الدنيا في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، فكيف هذا ؟

فقال: إن الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فيتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ، ويتوفاها الله تعالى من ملك الموت .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل من الأنصار يعوده فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله ﷺ : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال : أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق .

واعلم يا محمد أني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول: والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر وما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم وليلة خمس مرات حتى أني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد إني لا أقدر أن أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذي يأمر بقبضه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » قال : لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا .

أقول : العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية وما قدمناه في تفسير الآية .

(كلام في كينونة الانسان الاولى)

تقدم في تفسير أول سورة النساء كلام في هذا المعنى وكلامنا هذا كالتكلة له .

قدمنا هناك أن الآيات القرآنية ظاهرة ظهوراً قريباً من الصراحة في أن البشر الموجودين اليوم – ونحن منهم – ينتهون بالتناسل إلى زوج أي رجل وامرأة بعينهما وقد سمي الرجل في القرآن بآدم وهما غير متكونين من أب وأم بل مخلوقان من تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تعبيرات القرآن .

فهذا هو الذي يفيده الآيات ظهوراً معتداً به وإن لم تكن نصة صريحة لا تقبل التأويل ولا المسألة من ضروريات الدين نعم يمكن عدّ انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضرورياً من القرآن وأما أن آدم هذا هل أريد به آدم النوعي أعني الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأشخاص أو عدّة معدودة من الأفراد هم أصول النسب والآباء والامهات الأولية أو فرد إنساني واحد بالشخص ؟

وعلى هذا التقدير هل هو فرد من نوع الانسان تولد من نوع آخر كالقردة مثلاً على طريق تطوّر الأنواع وظهور الأكمل من الكامل والكامل من الناقص وهكذا أو هو فرد من الانسان كامل بالكمال الفكري تولّد من زوج من الانسان غير المجهّز بجهاز التعقل فكان مبدأ لظهور النوع الانساني المجهز بالتعقل القابل للتكليف وانفصاله من النوع غير المجهز بذلك فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الانسان ينتهي أفراده إلى الانسان الأول الكامل الذي يسمى بآدم ، وينشعب هذا النوع الكامل بالتولد تطوراً من نوع آخر من الانسان ناقص فاقد للتعقل وهو يسير القهقرى في أنواع حيوانية مترتبة حتى ينتهي إلى أبسط الحيوان تجهيزاً وأنقصها كمالاً وإن أخذنا من هناك سائرين لم نزل ننتقل من ناقص إلى كامل ومن كامل إلى أكمل حتى ننتهي إلى الانسان غير المجهز بالتعقل ثم إلى الانسان الكامل كل ذلك في سلسلة نسبية متصلة مؤلفة من آباء وأعقاب .

أو أن سلسلة التوالد والتناسل تنقطع بالاتصال بآدم وزوجه وهما متكونان من الأرض من غير تولد من أب وأم فليس شيء من هذه الصور ضرورياً .

وكيف كان فظاهر الآيات القرآنية هو الصورة الأخيرة وهي انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه المتكونين من الأرض من غير أب وأم .

غير أن الآيات لم تبين كيفية خلق آدم من الأرض وأنه هل عملت في خلقه علل وعوامل خارقة للعادة ؟ وهل تمت خلقته بتكوين إلهي آني من غير مهل فتبدل الجسد المصنوع من طين بدناً عادياً ذا روح إنساني أو أنه عاد إنساناً تاماً كاملاً في أزمنة معتدّ بها يتبدل عليه فيها استعداد بعد استعداد وصورة وشكل بعد صورة وشكل حتى تم الاستعداد فنفخ فيه الروح وبالجملة اجتمعت عليه من العلل والشرائط نظير ما تجتمع على النطفة في الرحم .

ومن أوضح الدليل عليه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، فإن الآية نزلت جواباً عن احتجاج النصارى على بنوة عيسى بأنه ولد من غير أب بشري ولا ولد إلا بوالد فأبوه هو الله سبحانه ، فرد في الآية بما محصله أن صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم

الأرض بغير والد يولده فلمَ لا يقولون بأن آدم ابن الله ؟

ولو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكونين من النطف إلى الأرض كان المعنى: أن صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلقته كسائر الناس إلى الأرض ، ومن المعلوم أن لا خصوصية لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ ويقاس اليه عيسى فيفسد معنى الآية في نفسه ومن حيث الاحتجاج به على النصارى .

وبهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك، على المطلوب كقوله : « إني خالق بشراً من طين » ص : ٧١ ، وقوله : « وبدأ خلق الإنسان من طين » الم السجدة : ٧ .

وأما قول من قال : إن المراد بآدم هو آدم النوعي دون الشخصي بمعنى الطبيعة الإنسانية الخارجية الفاشية في الأفراد، والمراد ببنوّة الأفراد له تكثّر الاشخاص منه بانضمام القيود اليه وقصة دخوله الجنة وإخراجه منها لمعصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تخييلي لمكانته في نفسه ووقوفه موقف القرب ثم كونه في معرض الهبوط باتباع الهوى وطاعة إبليس .

ففيه أنه مدفوع بالآية السابقة وظواهر كثير من الآيات كقوله: « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً » النساء : ١ ، فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعي لم يبق لفرض الزوج لها محل ونظير الآية الآيات التي تفيد أن الله أدخله وزوجه الجنة وأنه وزوجه عصيا الله بالأكل من الشجرة .

على أن أصل القول بآدم النوعي مبني على قدم الأرض والأنواع المتأصلة ومنها الإنسان وأن أفراده غير متناهية من الجانبين والاصول العلمية تبطل ذلك بتاتاً .

وأما القول بكون النسل منتهياً إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ببياض اللون وسواده وحمرته وصفرته أو أزواج من الانسان ناشئين بعضهم بالدنيا القديمة وبعضهم بالدنيا الحديثة والأراضي المكشوفة أخيراً وفيها بشر قاطنون كأمريكا واستراليا .

فمدفوع بجميع الآيات الدالة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه فإن المراد بآدم فيها إما شخص واحد إنساني وإما الطبيعة الإنسانية الفاشية في الافراد وهو آدم

النوعي وأما الأفراد المعدودون فلا يحتمل لفظ الآيات ذلك البتة .

على أنه مبني على تباين الاصناف الاربعة من الانسان : البيض والسود والحمر والصفر وكون كل من هذه الاصناف نوعاً برأسه ينتهي إلى زوج غير ما ينتهي اليه الآخر أو كون قارات الارض منفصلاً بعضها عن بعض انفصالاً أبدياً غير مسبوق بالعدم ، وقد ظهر بطلان هذه الفرضيات اليوم بطلاناً كاد يلحقها بالبديهيات .

وأما القول بانتهاء النسل إلى زوج من الانسان أو أزيد انفصلا أو انفصلوا من نوع آخر هو أقرب الانواع اليه كالقرد مثلاً انفصال الأكمل من الكامل تطوراً .

ففيه أن الآيات السابقة الدالة على خلق الانسان الأول من تراب من غير أب وأم تدفعه .

على أن ما أقيم عليه من الحجة العلمية قاصر عن إثباته كما سنشير اليه في الكلام على القول التالي .

وأما القول بانتهاء النسل إلى فردين من الانسان الكامل بالكمال الفكري من طريق التولد ثم انشعابهما وانفصالهما بالتطور من نوع آخر من الانسان غير الكامل بالكمال الفكري ثم انقراض الأصل وبقاء الفرع المتولد منهما على قاعدة تنازع البقاء وانتخاب الأصلح .

فيدفعه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ، على التقريب المتقدم وما في معناه من الآيات .

على أن الحجة التي أقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته ، فانها شواهد مأخوذة من التشريح التطبيقي وأجنة الحيوان والآثار الحفرية الدالة على التغير التدريجي في صفات الانواع وأعضائها وظهور الحيوان تدريجاً آخذاً من الناقص إلى الكامل وخلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشد تركيباً .

وفيه أن ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيوية بعد الناقص زماناً لا يدل على أزيد من تدرج المادة في استكمالها لقبول الصور الحيوانية المختلفة فهي قد استعدت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة والشريفة بعد الخسيسة وأما كون الكامل من الحيوان منشعباً من الناقص بالتولد والاتصال النسبي فلا ولم يعثر هذا الفحص والبحث على غزارته وطول زمانه على فرد نوع كامل متولد من فرع نوع آخر على أن

يقف على نفس التولد دون الفرد والفرد .

وما وجد منها شاهداً على التغير التدريجي فإنما هو تغير في نوع واحد بالانتقال من صفة لها إلى صفة أخرى لا يخرج بذلك عن نوعيته والمدّعي خلاف ذلك .

فالذي يتسلم أن نشأة الحيـــاة ذات مراتب مختلفة بالكمال والنقص والشرف والخسة وأعلى مراتبها الحياة الإنسانية ثم ما يليها ثم الأمثل فالأمثل وأمـــا أن ذلك من طريق تبدّل كل نوع ممـــا يجاوره من النوع الأكمل ، فلا يفيده هـــذا الدليل على سبيل الاستنتاج .

نعم يوجب حدساً ما غير يقيني بذلك فالقول بتبدل الأنواع بالتطور فرضية حدسية تبتني عليها العلوم الطبيعية اليوم ومن الممكن أن يتغير يوماً إلى خلافها بتقدّم العلوم وتوسع الأبحاث .

وربما استدل على هـــذا القول بقوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ ، بتقريب أن الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشيء وإنما يصدق الانتخاب فيما إذا كان هناك جماعة يختار المصطفى من بينهم ويؤثر عليهم كما اصطفى كل من نوح وآل إبراهيم وآل عمران من بين قومهم ولازم ذلك أن يكون مع آدم قوم غيره فيصطفى من بينهم عليهم ، وليس إلا البشر الأولي غير المجهز بجهاز التعقل فاصطفى آدم من بينهم فجهّز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعيتهم إلى مرتبة الإنسان المجهّز بالعقل الكامل بالنسبة اليهم ثم نسل وكثر نسله وانقرض الإنسان الأولي الناقص .

وفيه أن « العالمين » في الآية جمع محلى باللام وهو يفيد العموم ويصدق على عامة البشر إلى يوم القيامة فهم مصطفون على جميع المعاصرين لهم والجائين بعدهم كمثل قوله: « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فما المانع من كون آدم مصطفى مختاراً من بين أولاده ما خلا المذكورين منهم في الآية ؟

وعلى تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين وعليهم ما هو المانع من كونه مصطفى مختاراً من بين أولاده المعاصرين له ولا دلالة في الآية على كون اصطفائه أول خلقته قبل ولادة أولاده .

على أن اصطفاء آدم لو كان على الإنسان الأولي كما يذكره المستدل كان ذلك بما أنه مجهز بالعقل وكان ذلك مشتركاً بينه وبين بني آدم جميعاً على الإنسان الاولى فكان تخصيص آدم في الآية بالذكر تخصيصاً من غير مخصص .

وربما استدل بقوله : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الآية الأعراف : ١١ ، بناء على أن « ثم » تدل على التراخي الزماني فقد كان للنوع الإنساني وجود قبل خلق آدم وأمر الملائكة بالسجدة له .

وفيه أن « ثم » في الآية للترتيب الكلامي وهو كثير الورود في كلامه تعالى على أن هناك معنى آخر أشرنا اليه في تفسير الآية في الجزء الثامن من الكتاب .

وربما استدل بقوله : « وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه » الآيات وتقريبه أن الآية الاولى المتعرضة لأول خلق الإنسان تذكر خلقته الأولية من تراب التي يشترك فيها جميع الأفراد ، والآية الثالثة تذكر تسويته ونفخ الروح فيه وبالجملة كماله الإنساني والعطف بثم تدل على توسط زمان معتد به بين أول خلقته من تراب وبين ظهوره بكماله .

وليس هذا الزمان المتوسط إلا زمان توسط الأنواع الاخرى التي تنتهي بتغيرها التدريجي إلى الإنسان الكامل وخاصة بالنظر إلى تنكر « سلالة » المفيد للعموم .

وفيه أن قوله : « ثم سواه » عطف على قوله « بدأ » والآيات في مقام بيان ظهور النوع الإنساني بالخلق وأن بدأ خلقه وهو خلق آدم كان من طين ثم بدّل سلالة من مـاء في ظهور أولاده ، ثم تمّت الخلقة سواء كان فيه أو في أولاده بالتسوية ونفخ الروح .

وهذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ ولا يلزم منه حمل قوله: « ثم جعل نسله من سلالة ماء مهين » على أنواع متوسطة بين الخلق من الطين وبين التسوية ونفخ الروح ، وكون « سلالة » نكرة لا يستلزم العموم فإن إفادة النكرة للعموم إنما هو فيما إذا وقعت في سياق النفي دون الإثبات .

وقد استدل بآيات أخرى مربوطة بخلقة الإنسان وآدم بنحو مما مر يعلم الجواب عنها بما قدمناه فلا موجب لنقلها وإطالة الكلام بالجواب عنها .

* * *

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ــ ١٥ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ــ ١٦ . فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ١٧ . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ ــ ١٨ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ١٩ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ــ ٢٠ . وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ــ ٢١ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ــ ٢٢ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ــ ٢٣ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ــ ٢٤ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ــ ٢٥ . أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ــ ٢٦ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ

إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ
أَفَلَا يُبْصِرُونَ ــ ٢٧ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ــ ٢٨.
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ــ ٢٩.
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ــ ٣٠ .

(بيان)

الآيات تفرّق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان وبين الفاسقين والظالمين وتذكر لكل ما يلزمه من الآثار والتبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا وتأمر النبي ﷺ بانتظار الفتح وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » لما ذكر شطراً من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه ويستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق لما ذكّروا ووعظوا .

فقوله : « إنما يؤمن بآياتنا » حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم ومعناه أن علامة التهيّؤ للإيمان الحقيقي هو كذا وكذا .

وقوله: « الذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّداً » ذكر سبحانه شيئاً من أوصافهم وشيئاً من أعمالهم، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية وعدم استكبارهم عن الخضوع لله وتسبيحه وحمده وهو قوله : « إذا ذكروا بآيات ربهم » أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وما يلزمها من المعاد والدعوة النبوية إلى الإيمان والعمل الصالح «خرّوا سجّداً» أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللاً واستكانة «وسبّحوا بحمد ربهم » أي نزّهوه مقارناً للثناء الجميل عليه . والسجدة والتسبيح والتحميد وإن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذلل والخضوع لمقام الربوبية والالوهية ، ولذا أردفها بصفة تلازمها فقال : « وهم لا يستكبرون » .

قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » هذا معرّفهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرّفهم من حيث أوصافهم .

فقوله : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » التجافي التنحّي والجنوب جمع جنب وهو الشق ، والمضاجع جمع مضجع وهو الفراش وموضع النوم ، والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم .

وقوله : « يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تنام العيون وتسكن الانفاس لا خوفاً من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمعاً في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفاً وطمعاً فيؤثرون في دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم اليه الهدى وهذا التجافي والدعاء ينطبق على النوافل الليلية .

وقوله : « ومما رزقناهم ينفقون » عمل آخر لهم وهو الإنفاق لله وفي سبيله .

قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب .

ووقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وإضافة قرّة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أُخفي لهم قرّة عين كل ذي عين .

والمعنى: فلا تعلم نفس من النفوس – أي هو فوق علمهم وتصوّرهم – ما أخفاه الله لهم مما تقرّ به عين كل ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا .

قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » الإيمان سكون علمي خاص من النفس بالشيء ولازمه الالتزام العملي بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها ومآل معناه الخروج عن زيّ العبودية .

والاستفهام في الآية للانكار ، وقوله: « لا يستون » نفي لاستواء الفريقين تأكيداً لما يفيده الإنكار السابق .

قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا

يعملون » المأوى المكان الذي يأوي اليه ويسكن فيه الانسان ، والنزل بضمتين كل ما يعدّ للنازل في بيت من الطعام والشراب، ثم عمّم كما قيل لكل عطية، والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » إلى آخر الآية ، كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقّبه بقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » ، وقوله : « وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » دليل على أن المراد بالذين فسقوا هنم مسكروا المعاد وخطابهم وهم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم وكثيراً ما كانوا يشمتون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد .

قوله تعالى : «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو والرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال ودون العذاب الذي بعد الموت وحينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة .

والمعنى : أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل ونحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون الينا بالتوبة من شركهم وجحودهم .

قيل : سمّي عذاب الدنيا أدنى ولم يقل : الأصغر، حتى يقابل الأكبر لأن المقام مقام الإنذار والتخويف ولا يناسبه عدّ العذاب أصغر ، وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » كأنه في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذّبون فعلله بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم .

فقوله : « ومن أظلم » الخ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله : « إنا من المجرمين منتقمون » ، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منهم ، والله منتقم من المجرمين .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل » المراد بالكتاب التوراة والمرية الشك والريب .

وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله : « من لقائه » ومعنى الكلمة فقيل : الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقائك موسى وقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيراه .

وقيل : الضمير لموسى والمعنى: فلا تكن في مرية من لقائك موسى يوم القيامة.

وقيل : الضمير للكتاب والتقدير فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب .

وقيل : التقدير من لقائك الكتاب أو من لقاء الكتاب إياك .

وقيل : الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى : فلا تكن في مرية من لقاء الاذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خبير بأن الطبع السليم لا يقبل شيئاً من هذه الوجوه – على أنها لا تفي لبيان وجه اتصال الآية بما قبلها .

ومن الممكن – والله أعلم – أن يرجع ضمير لقائه اليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم ، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » ، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله : « ناكسوا رؤسهم عند ربهم » .

فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه صلى الله عليه وآله وسلم بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن،ويؤيده قوله بعد : « وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » الخ .

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التامّ اليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعاً إلى ما في صدر السورة من قوله:« تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ، وذيل الآية أشد تأييداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم .

وقوله : « وجعلناه هدى لبني إسرائيل » أي هادياً فالمصدر بمعنى اسم الفاعل

أو بمعناه المصدري مبالغة .

قوله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين وكانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا .

وقد تقدم البحث عن معنى الامامة وهداية الامام بأمر الله في تفسير قوله : « قال إني جاعلك للناس إماماً » البقرة : ١٢٤ ، وقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، وغير ذلك من الموارد المناسبة .

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه إلى الحق ، وأنها أنشأت في حجر تربيتها أناساً اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها ومباركة بعد العمل .

قوله تعالى : « إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغياً بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب – إلى أن قال – فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية: ١٧ .

فالمراد بقوله: « يفصل بينهم » القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم » الخ ، العطف على محذوف كأنه قيل : ألم يبين لهم كذا وكذا ، أولم يهد لهم الخ ، والهداية بمعنى التبيين أو هو مضمّن معنى التبيين ولذا عدّي باللام .

وقوله: « كم أهلكنا من قبلهم من القرون » مشير إلى الفاعل قائم مقامه ، والمعنى: أولم يبين لهم كثرة من أهلكنا من القرون والحال أنهم يمشون في مساكنهم .

وقوله : « إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّي إلى طاعة الحق وقبوله .

قوله تعالى : « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » الخ ، قال في المجمع : السوق الحث على السير من ساقه يسوقه ،

وقال : الجرز الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها . انتهى . والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع .

والآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء وخاصة ذوي الحياة منها كالأنعام والإنسان ، والمراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار اليها ، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض وخروج الزرع واغتذاء الإنسان والأنعام التي يسخّرها ويربّيها لمقاصد حياته .

وقوله : « أفلا يبصرون » تنبيه وتوبيخ وتخصيص هذه الآية بالإبصار ، والآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاك الامم الماضين إنما هو بالاخبار التي تنال من طريق السمع وأما العلم بسوق الامطار إلى الارض الجرز وإخراج الزرع واغتذاء الانعام والإنسان فالطريق اليه حاسة البصر .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الفتح – إلى قوله – ولا هم ينظرون » قال الراغب : الفتح إزالة الإغلاق والإشكال – إلى أن قال – وفتح القضية فتاحاً فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها ، قال : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . انتهى .

وقد تقدم في الآيات السابقة مما يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران : أحدهما فصل بينهم يوم القيامة ، والآخر إذاقة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا ولذا فسّر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين هو معنى قولهم المحكي كراراً في كلامه تعالى : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

وفسّره بعضهم بيوم بدر فإنه لم ينفع الذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل.

وذكر بعضهم أن المراد به فتح مكة ولا يلائمه الجواب المذكور في قوله : « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون » إلا أن يقول قائل : إن إيمانهم يومئذ – وقد عاندوا الحق وقاتلوا النبي ﷺ سنين وجاهدوا في إطفاء نور الله – لم يكن إيماناً إلا نفاقاً من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم وقد ألزموا بالإيمان ولم ينظروا .

ويمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي ﷺ وبين الامة ويكون ذلك في

آخر الزمان كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله : « ولكل أمة رسول » الآية « يونس : ٤٧ .

وكيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح والجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفساً إيمانها ولا أن العذاب يمهلهم وينظرهم.

قوله تعالى : « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » أمر بالإعراض عنهم وانتظار الفتح كما أنهم ينتظرون وإنما كانوا منتظرين موته أو قتله ﷺ وبالجملة انقطاع دابر دعوته الحقة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل والمحقّ على المبطل .

ومن هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوي .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ، قال : هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير .

أقول : ورواها أيضاً فيه بطرق أخرى موصولة وموقوفة ، وروى صدر الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق عليه السلام في الآية ولفظه كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

وفي الكافي باسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال : ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه ؟ قلت : بلى جعلت فداك . قال: أما اصله فالصلاة وفرعه الزكاة وذروة سنامه الجهاد .

ثم قال : إن شئت أخبرتك بأبواب الخير : قلت : نعم جعلت فداك . قال : الصوم جنة والصدقة تذهب بالخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

أقول : وروى هذا المعنى في المحاسن باسناده عن علي بن عبد العزيز عن الصادق عليه‌السلام وفي المجمع عن الواحدي بالإسناد عن معـاذ بن جبل عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ورواه في الدر المنثور عن الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن معاذ عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه فقال : تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والطبراني وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل ابن سعد قال : بينما نحن عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى .

ثم قال : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآيتين .

وفي المجمع وروي عن أبي عبد الله عليه‌السلام أنه قال : ما من حسنة إلا ولها ثواب مبين في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها قال : « فلا تعلم نفس » الآية .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمان بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : ما من عمل حسن يعمله العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز وجل لم يبين ثوابهـا لعظيم خطره عنده ، فقال جل ذكره : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ـ إلى قوله ـ يعملون » .

ثم قال : إن الله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكاً معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة فيقول : استأذنوا لي على فلان فيقال له هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه : أي شيء ترين علي أحسن ؟ فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث اليك ربك فيتزر بواحدة ويتعطّف بالاخرى فـلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد .

فإذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فإذا نظروا اليه أي إلى رحمته خرّوا

سجداً فيقول : عبادي ارفعوا رؤسكم ليس هنا يوم سجود ولا عبادة قد رفعت عنكم المؤنة فيقولون : يا ربنا وأي شيء أفضل ممـا أعطيتنا ؟ أعطيتنا الجنة فيقول : لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة .

فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفاً مثل ما في يديه وهو قوله: «ولدينا مزيد» وهو يوم الجمعة إن ليلهـــا ليلة غرّاء ويومها يوم أزهر فأكثروا من التسبيح والتهليل والتكبير والثناء على الله عز وجل والصلاة على رسول الله ﷺ .

قال : فيمرّ المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى أزواجه فيقلن : والذي أباحنا الجنة،يا سيدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة . فيقول : إني نظرت إلى نور ربي – إلى أن قال – : قلت جعلت فداك زدني . فقال : إن الله تعالى خلق جنة بيده ولم يرها عين ولم يطّلع عليها مخلوق يفتحها الرب كل صباح فيقول : ازدادي ريحاً ازدادي طيباً وهو قول الله : « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

أقول : ذيل الرواية تفسير لصدرها وقوله: أي إلى رحمة ربه. من كلام الراوي.

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أطعم مؤمناً حتى يشبعه لم يدر أحـــد من خلق الله جل وعز ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلا الله ربُّ العالمين .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجـــارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » قال : إن علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا فقال الفاسق وليد بن عقبة : أنا والله أبسط منك لساناً وأحدُّ منك سناناً وأمثل منك جثوّاً في الكتيبة . فقال علي عليه السلام : اسكت إنمـــا أنت فاسق فأنزل الله « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » .

أقول : ورواه في المجمع عن الواحدي عن ابن عباس وفي الدر المنثور عن كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه وأيضاً عن ابن اسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار وعن ابن أبي حاتم عن السدي عنه وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله .

وفي الاحتجاج عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يحاجّ فيه رجالاً عند معاوية: وأما أنت يا وليد بن عقبة فوالله ما ألومك أن تبغض علياً وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر أم كيف تسبّه وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات من القرآن وسماك فاسقاً وهو قول الله عز وجل : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال : سألت عبادة ابن الصامت عن قول الله : « ولنذيقنـّهم من العذاب الادنى دون العذاب الأكبر » فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فقـال : هي المصائب والأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قـال : زكاة وطهور .

وفي المجمع في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : أن العذاب الأدنى الدابة والدجّال .

(سورة الأحزاب مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَـا النَّبِيُّ ٱتَّقِ اللهَ وَلاٰ تُطِـعِ
ٱلْكٰافِرِينَ وَٱلْمُنٰافِقِينَ إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً ــ ١ . وَٱتَّبِـعْ مٰا
يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ــ ٢ . وَتَوَكَّلْ
عَلَىٰ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ــ ٣ . مٰا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِ وَمٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اللاّٰئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَمٰا جَعَلَ
أَدْعِيٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ
يَهْدِي السَّبِيلَ ــ ٤ . أُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْـدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ
تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوٰالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ
فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِنْ مٰا تَعَمَّـدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكٰانَ اللهُ غَفُوراً
رَحِيماً ــ ٥ . أَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ
وَأُولُوا ٱلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اللهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُهٰاجِرِينَ إِلاّٰ أَنْ تَفْعَلُوا فِي أَوْلِيٰائِكُمْ مَعْرُوفاً كٰانَ ذٰلِكَ فِي
ٱلْكِتٰابِ مَسْطُوراً ــ ٦ . وَإِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ

نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً – ٧ . لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً – ٨ .

(بيان)

تتضمن السورة تفاريق من المعارف والأحكام والقصص والعبر والمواعظ وفيها قصة غزوة الخندق وإشارة إلى قصة بني القريظة من اليهود ، وسياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً » أمر للنبي ﷺ بتقوى الله وفيه تمهيد للنهي الذي بعده « ولا تطع الكافرين والمنافقين » .

وفي سياق النهي – وقد جمع فيه بين الكافرين والمنافقين ونهى عن إطاعتهم – كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمراً لا يرتضيه الله سبحانه وكان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم ويلحّون ، أمراً كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهي بخلافه ، أمراً خطيراً لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فحذّر النبي ﷺ عن إجابتهم إلى ملتمسهم وأمر بمتابعة ما أوحى الله إليه والتوكل عليه .

وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أُحد دخلوا المدينة بأمان من النبي ﷺ وسألوا النبي ﷺ أن يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإلهه فنزلت الآيات ولم يجبهم النبي إلى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي .

وبما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله : « إن الله كان عليماً حكيماً » ، وكذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها .

قوله تعالى : « واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً »

الآية عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون والمنافقون واتباعه إجراؤه عملاً بدليل قوله : « إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

قوله تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » الآية كالآية السابقة في أنها عامة في حد نفسها ، لكنها لوقوعها في سياق النهي السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة والإضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف .

قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين وقوله : « في جوفه » يفيد زيادة التقرير كقوله: « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » الحج:٤٦.

قيل : الجملة توطئة وتمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار والتبني فإن في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الام وفي التبني والدعاء جعل ولد الغير ولداً لنفسه والجمع بين الزوجية والامومة وكذا الجمع بين بنوة الغير وبنوة نفسه جمع بين المتنافيين ولا يجتمعان إلا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ولا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق : « لا تطع الكافرين والمنافقين » « واتبع ما يوحى اليك من ربك » فإن طاعة الله وولايته وطاعة الكفّار والمنافقين وولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد والشرك لا يجتمعان في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

قوله تعالى : « وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنت مني كظهر أمي أو ظهرك عليّ كظهر أمي فيشبّه ظهرها بظهر أمه وكان يسمى ذلك ظهاراً ويعد طلاقاً لها ، وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن بقول ظهرك عليّ

كظهر أمي أمهات لكم وإذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجعل تشريعي .

قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » الأدعياء جمع دعي وهو المتخذ ولداً المدعو ابناً وقد كان الدعاء والتبني دائراً بينهم في الجاهلية وكذا بين الامم الراقية يومئذ كالروم وفارس وكانوا يرتبون على الدعي أحكام الولد الصلبي من التوارث وحرمة الازدواج وغيرهما وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصلبيّين .

قوله تعالى : «ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما تقدم من الظهار والدعاء أو إلى الدعاء فقط وهو الأظهر ويؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب .

وقوله : « قولكم بأفواهكم » أي إن نسبة الدعي إلى أنفسكم ليس إلا قولاً تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله : « كلا إنها كلمة هو قائلها » المؤمنون : ١٠٠ .

وقوله : « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » معنى كون قوله : هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقاً لما أخبر به وإن أنشأ حكماً ترتب عليه آثاره وطابقته المصلحة الواقعية .

ومعنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التي فيها الخير والسعادة وفي الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله .

قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » إلى آخر الآية . اللام في « لآبائهم » للاختصاص أي ادعوهم وهم مخصوصون بآبائهم أي انسبوهم إلى آبائهم وقوله: « هو أقسط عند الله » ، الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله : « ادعوهم » نظير قوله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « أقسط » صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل .

والمعنى : انسبوهم إلى آبائهم – إذا دعوتموهم – لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله .

وقوله : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » ، المراد بعدم

علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم ، والموالي هم الأولياء ، والمعنى : وإن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالاخوّة والولاية الدينية .

وقوله: «ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم» أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم بـه لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم ولكن الذي تعمّدته قلوبكم ذنب أو ولكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب .

وقوله : « وكان الله غفوراً رحيماً » راجع إلى ما أخطىء به .

قوله تعالى : «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم : ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالمحصّل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة وإنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه .

ففيما إذا توجه شيء من المخاطر إلى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه وليكن النبي أحب اليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه ولو دعته نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي ﷺ وطاعته وتقديمه على نفسه .

وكذا النبي ﷺ أولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل : إن المراد أنه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه ويعصوا أنفسهم ، فتكون الآية في معنى قوله : « وأطيعوا الرسول » النساء : ٥٩ ، وقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ ، وما أشبه ذلك من الآيات وهو مدفوع بالإطلاق .

وكذا ما قيل: إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله: «فسلّموا على أنفسكم» النور: ٦١ ، ويؤول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله : «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» براءة : ٧١. وفيه أن السياق لا يساعد عليه .

وقوله : « وأزواجه أمهاتهم » جعل تشريعي أي إنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح بـه في قوله : « ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » .

فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الامومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالامهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم وكصيرورة آبائهن وأمهاتهن أجداداً وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالا وخالات للمؤمنين .

قوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » الخ، الأرحام جمع رحم وهي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنيناً فيتولد ، وإذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحـــدة عبّر عن القرابة بالرحم فسمي ذوو القرابة أولي الأرحام .

والمراد بكون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية في التوارث ، وقوله: « في كتاب الله » المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة ، وقوله : « من المؤمنين والمهاجرين » مفضّل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، والمعنى: وذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمواخاة الدينية ، وهذه الأولوية في كتاب الله وربما احتمل كون قوله : « من المؤمنين والمهاجرين » بياناً لقوله : « وأولوا الأرحام » .

والآية ناسخة لما كان في صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين .

وقوله: «إلا تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً» الاستثناء منقطع،والمراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشيء من التركة ، وقد حدّ شرعاً بثلث المال فما دونه، وقوله: « كان ذلك في الكتاب مسطورا » أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة .

قوله تعالى : « وإذ أخـذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثـــاق

المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيّون وهو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير اليه في قوله: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» الأعراف: ١٧٢.

وقد ذكر أخذ الميثاق من النبيين في موضع آخر وهو قوله: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا» آل عمران: ٨١.

والآية المبحوث عنها وإن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم وإن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه كما في قوله: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» الأنبياء: ٩٢، وقوله: «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه» الشورى: ١٣.

وقد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمّى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال: «ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم» ومعنى العطف إخراجهم من بينهم وتخصيصهم بالذكر كأنه قيل: وإذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة ومن باقي النبيين.

ولم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم وأصحاب شرائع وكتب وقد عدّهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليهم السلام، لكن قدّم ذكر النبي ﷺ وهو آخرهم زماناً لفضله وشرفه وتقدمه على الجميع.

وقوله: «وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً» تأكيد وتغليظ للميثاق نظير قوله: «فلما جاء أمرنا نجّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ» هود: ٥٨.

قوله تعالى: «ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً» اللام في «ليسأل» للتعليل أو للغاية وهو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وإذ أخذنا» وقوله: «وأعدّ» معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق

ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما .

ولم يقل : وليعدّ للكافرين عذاباً، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق وإنما النقص من ناحيتهم والخلف من قبلهم .

وأما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل : المراد بالصادقين الأنبياء وسؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم وكأنه مأخوذ من قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » المائدة : ١٠٩ .

وقيل : المراد سؤال الصادقين في توحيد الله وعدله والشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه ، وقيل : المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم ، وقيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره ؟ إلى غير ذلك من الوجوه وهي كما ترى .

والتأمل فيما يفيده قوله : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » يرشد إلى خلاف ما ذكروه ، ففرق بين قولنا : سألت الغني عن غناه وسألت العالم عن علمه ، وبين قولنا : سألت زيداً عن ماله أو عن علمه ، فالمتبادر من الأولين أني طالبته أن يظهر غناه وأن يظهر علمه، ومن الأخيرين أني طالبته أن يخبرني هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لي ما له من المال أو من العلم .

وعلى هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول والفعل وهو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم وهذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة اخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » الآيات .

وبالجملة الآيتان من الآيات المنبئه عنعالم الذر المأخوذ فيه الميثاق وتذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام وترتب شأنهم وعملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه .

ولمكان هـذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين

والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل : أخذنا ميثاقاً غليظاً من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلّغونه ليسأل الصادقين ويطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد والعمل ففعلوا فقدّر لهم الثواب وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً .

ومن هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « ليسأل الصادقين » الخ ، وذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له وإن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله : « أخذنا » « وأخذنا » فالمطالب لصدق الصادقين والمعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله » الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبيّ بعد غزوة أُحد بأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكلموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل : إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك . فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال عمر بن الخطاب : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم ، فقال : إني أعطيتهم الأمان وأمر فاخرجوا من المدينة ونزلت الآية «ولا تطع الكافرين» من أهل مكة أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة «والمنافقين» ابن أبي وابن سعيد وطعمة .

أقول : وروي إجمال القصة في الدر المنثور عن جرير عن ابن عباس ، وروي أسباب أخر لنزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة ورأى زيداً يباع ورآه غلاماً كيّساً حصيناً فاشتراه فلما نبّىء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاه إلى الاسلام فأسلم وكان يدعى زيد مولى محمد .

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة وكان رجلاً جليلاً فأتى أبا طالب فقال : يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي وبلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إما أن يبيعه وإما أن يفاديه وإما أن يعتقه .

فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله : هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له : يا بني الحق بشرفك وحسبك ، فقال زيد : لست أفارق رسول الله ، فقال له أبوه : فتدع حسبك ونسبك وتكون عبداً لقريش ؟ فقال زيد : لست أفارق رسول الله ما دمت حياً ، فغضب أبوه فقال : يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه وليس هو ابني ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني. فكان زيد يدعى ابن محمد وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبه وسماه زيد الحب .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زوّجه زينب بنت جحش وأبطأ عنه يوماً فأتى رسول الله منزله يسأل عنه فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيبها بفهر لها فدفع رسول الله الباب ونظر اليها وكانت جميلة حسنة فقال : سبحان الله رب النور وتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم رجع رسول الله إلى منزله ووقعت زينب في قلبه موقعاً عجيباً .

وجاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله فقال لها زيد : هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله ؟ فقالت : أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني رسول الله. فجاء زيد إلى رسول الله فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرتني زينب بكذا وكذا فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها ؟ فقال له رسول الله : لا اذهب واتق الله وامسك عليك زوجك ، ثم حكى الله فقال : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها – إلى قوله – وكان امر الله مفعولاً » فزوجه الله من فوق عرشه .

فقال المنافقون: يحرم علينا نساء أبنائنا ويزوّج امرأة ابنه زيد فأنزل الله في هذا « وما جعل أدعياءكم أبناءكم – إلى قوله – يهدي السبيل » .

أقول : وروى قريباً منه مع اختلاف مّا في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك ديناً فإليّ ، ومن ترك مالاً فهو لورثته .

أقول : وفي معناه روايات أُخر من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال : غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغير وقال : يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعلي مولاه .

وفي الاحتجاج عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه وعلي بين يديه في البيت .

أقول : ورواه في الكافي باسناده عن جعفر عنه صلى الله عليه وآله وسلم والأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء .

وفي الكافي بإسناده عن حنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء للموالي؟ فقال : ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز وجل : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قيل : يا رسول الله متى أخذ ميثاقك ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد .

أقول :وهو بلفظه مروي بطرق مختلفة عنه صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه كون الميثاق مأخوذاً في نشأة غير هذه النشأة وقبلها .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيراً ــ ٩ . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ــ ١٠ . هُنَالِكَ
ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ــ ١١ . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ــ ١٢ .
وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ــ ١٣ . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ
سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ــ ١٤ . وَلَقَدْ كَانُوا
عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً ــ ١٥ .
قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ
قَلِيلاً ــ ١٦ . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءً
أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ــ ١٧ .
قَدْ يَعْلَمُ اللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ
يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ــ ١٨ . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ــ ١٩ .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
إِلاَّ قَلِيلاً ــ ٢٠ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ــ ٢١ . وَلَمَّا رَأَى
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ــ ٢٢ . مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ــ ٢٣ . لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ــ ٢٤ .
وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ــ ٢٥ . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ــ ٢٦ . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً
لَمْ تَطَؤُهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ــ ٢٧ .

(بيان)

قصة غزوة الخندق وما عقبها من أمر بني قريظة ووجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد ونقضه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود » الخ ، تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم وصرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنوداً مجندة من شعوب وقبائل شتى كغطفان وقريش والأحابيش وكنانة ويهود بني قريظة والنضير أحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم فسلّط الله عليهم الريح وأنزل ملائكة يخذلونهم .

وهو قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ » ظرف للنعمة أو لثبوتها « جاءتكم جنود » من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان وقريش وغيرهما « فأرسلنا » بيان للنعمة وهو الإرسال المتفرع على مجيئهم « عليهم ريحاً » وهي الصبا وكانت باردة في ليال شاتية « وجنوداً لم تروها » وهي الملائكة لخذلان المشركين « وكان الله بما تعملون بصيراً » .

قوله تعالى : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم » الخ الجاؤن من فوقهم وهو الجانب الشرقي للمدينة غطفان ويهود بني قريظة وبني النضير والجاؤن من أسفل منهم وهو الجانب الغربي لها قريش ومن انضم اليهم من الأحابيش وكنانة فقوله : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم » عطف بيان لقوله : « إذ جاءتكم جنود » .

وقوله : «إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر» عطف بيان آخر لقوله : « إذ جاءتكم » الخ ، وزيغ الأبصار ميلها والقلوب هي الأنفس والحناجر جمع حنجر وهو جوف الحلقوم .

والوصفان أعني زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم إلى حال المحتضر الذي يزيغ بصره وتبلغ روحه الحلقوم .

وقوله : « وتظنون بالله الظنونا » أي يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول : إن الكفار سيغلبون ويستولون على المدينة ، وبعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع ، وبعضهم يقول : إن الجاهلية ستعود كما كانت ، وبعضهم يقول : إن الله غرّهم ورسوله إلى غير ذلك من الظنون .

قوله تعالى : « هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا » هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان والمراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود وكان شديداً عليهم

لغاية بعيدة، والابتلاء الامتحان،والزلزلة والزلزال الاضطراب، والشدة القوة وتختلفان في أن الغالب على الشدة أن تكون محسوساً بخلاف القوة ، قيل : ولذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد .

والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون واضطربوا خوفاً اضطراباً شديداً.

قوله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وإنما سمي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

والغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته في صورة الخير والاغترار احتماله له . قال الراغب: يقال: غررت فلاناً أصبت غرّته ونلت منه ما أريد ، والغرّة - بكسر الغين - غفلة في اليقظة . انتهى .

والوعد الذي يعدّونه غروراً من الله ورسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح وظهور الإسلام على الدين كله وقد تكرر في كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا : يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء .

قوله تعالى : « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، والمقام بضم الميم الإقامة ، وقولهم : لا مقام لكم فارجعوا أي لا وجه لإقامتكم ههنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفاً على قوله : قالت طائفة : « ويستأذن فريق منهم » أي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض « النبي » في الرجوع « يقولون » استئذاناً « إن بيوتنا عورة » أي فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق وزحف العدو « وما هي بعورة إن يريدون » أي ما يريدون بقولهم هذا « إلا فراراً » .

قوله تعالى : « ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبّثوا بها إلا يسيراً » ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب ، والضمير في « دخلت » للبيوت ومعنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولاً عليهم ، والأقطار جمع قطر وهو الجانب، والمراد بالفتنة بقرينة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها

طلبها منهم ، والتلبث التأخر .

والمعنى : ولو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها وهم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسؤلهم وما تأخروا بالردة إلا يسيراً من الزمان بمقدار الطلب والسؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجموا .

قوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولـّون الادبار وكان عهد الله مسؤلا » اللام للقسم ، وقوله : « لا يولون الادبار » أي لا يفرون عن القتال وهو بيان للعهد ولعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسوله ومما جاء به : الجهاد الذي يحرم الفرار فيه ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتـّعون إلا قليلا » إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئاً .

وقوله : « وإذاً لا تمتـّعون إلا قليلا » أي وإن نفعكم الفرار فمتـّعتم بتأخر الأجل فرضاً لا يكون ذلك التمتيع إلا تمتيعاً قليلاً أو في زمـان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة .

قوله تعالى : « قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » كانت الآية السابقة تنبيهاً لهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف وفي هذه الآية تنبيه على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محضاً لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى والقرار على أمره بالتوكل عليه .

ولما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي ﷺ بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال : « ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا » .

قوله تعالى : «قد يعلم الله المعوّقين منكم ــ إلى قوله ــ يسيراً » التعويق التثبيط والصرف ، وهلم اسم فعل بمعنى أقبل ، ولا يثنـّى ولا يجمع في لغـة الحجاز ، والبأس الشدة والحرب ، وأشحّة جمع شحيح بمعنى البخيل ، والذي يغشى عليه هو الذي أخذته

الغشوة فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران ، والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطعن.

ومعنى الآيتين : أن الله ليعلم الذين يثبّطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال وهم المنافقون ويعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفة الإيمان تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم .

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظراً لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشي عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بألسنة حِداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير الذي نلتمسوه .

أولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الإيمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم وأحبطها وكان ذلك على الله يسيرا .

قوله تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » إلى آخر الآية ، أي يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب – وهم جنود المشركين المتحزبون على النبي ﷺ – لم يذهبوا بعد « وإن يأت الأحزاب » مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة « يودّوا » ويحبوا « أنهم بادون » أي خارجون من المدينة إلى البدو « في الأعراب يسألون عن أنبائكم » وأخباركم « ولو كانوا فيكم » ولم يخرجوا منها بادين « ما قاتلوا إلا قليلاً » أي ولا كثير فائدة في لزومهم إياكم وكونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا لا يعتدّ به .

قوله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » الاسوة القدوة وهي الاقتداء والاتّباع، وقوله: « في رسول الله » أي في مورد رسول الله والاسوة التي في مورده هي تأسّيهم به واتباعهم له والتعبير بقوله : « لقد كان لكم » الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفاً ثابتاً مستمراً .

والمعنى : ومن حكم رسالة الرسول وإيمانكم به أن تتأسوا به في قوله وفعله وأنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله وحضوره في القتال وجهاده في الله حق جهاده .

وفي الكشاف : فإن قلت: فما حقيقة قوله: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ؟ وقرىء أسوة بالضم. قلت : فيه وجهان : أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة

أي قدوة وهو الموتسى أي المقتدى به كما تقول : في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد . والثاني : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتّبع وهي المواساة بنفسه انتهى وأول الوجهين قريب مما قدمناه .

وقوله: « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » بدل من ضمير الخطاب في « لكم » للدلالة على أن التأسي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كلّ من تسمّى بالإيمان ، وإنما يتصف بها جمع ممن تلبّس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فآمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحاً ومع ذلك ذكر الله كثيراً فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي في أفعاله وأعماله .

وقيل : قوله : « لمن كان » الخ ، صلة لقوله : « حسنة » أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب ومآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد .

قوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله »،وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب ونزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم وتبصّرهم في الإيمان وتصديقهم لله ولرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الإرتياب وسيىء القول ، وبذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله ورسوله .

وقوله : « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجرداً عن سائر الخصوصيات ، كما في قوله : « فلما رأى الشمس بازغة قال هـذا ربي » ، الأنعام : ٧٨ .

والوعد الذي أشاروا اليه قيل : هو ما كان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم .

وقيل : إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » البقرة : ٢١٤ فتحققوا

أنهم سيصيبهم مـا أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدة والمحنة التي تزلزل القلوب وتدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود وأن الله سينصرهم على عدوهم .

والحق هو الجمع بين الوجهين نظراً إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله .

وقوله : « وصدق الله ورسوله » شهادة منهم على صدق الوعد ، وقوله : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » أي إيماناً بالله ورسوله وتسليماً لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله .

قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا مـا عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومـا بدّلوا تبديلا » ، قال الراغب : النحب النذر المحكوم بوجوبه ، يقال : قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى : « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » ، ويعبّر بذلك عمن مات كقولهم : قضى أجله واستوفى أكله وقضى من الدنيا حاجته . انتهى .

وقوله : « صدقوا مـا عاهدوا الله عليه » أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لاقوا العدو ، ويشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن في الآية محاذاة لقوله السابق في المنافقين والضعفاء الإيمان : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار » كما أن في الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقاً من ارتياب القوم وعدم تسليمهم لأمر الله .

وقوله : « فمنهم من قضى نحبه » الخ ، أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله ومنهم من ينتظر ذلك وما بدّلوا شيئاً مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا .

قوله تعالى : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما» اللام للغاية وما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين .

فقوله : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم » المراد بالصادقين المؤمنين وقـد ذكر صدقهم قبل ، والباء في « بصدقهم » للسببية أي ليجزي المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم .

وقوله : « ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أي وليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم وذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفوراً رحيما .

وفي الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هي أن المعاصي ربما كانت مقدمة للسعادة والمغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة والشقوة إلى حيث تتوحش النفس وتتنبّه فتتوب إلى ربها وتنتزع عن معاصيها وذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية .

قوله تعالى : «وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا » الغيظ الغم والحنق والمراد بالخير ما كان يعدّه الكفار خيراً وهو الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين .

والمعنى : وردّ الله الذين كفروا مع غمّهم وحنقهم والحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه وكفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا وكان الله قوياً على ما يريد عزيزاً لا يغلب.

قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم - إلى قوله - قديراً » المظاهرة المعاونة ، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الذي يتمنع به ولعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها ومن أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها ومحاصريهم .

والمعنى : « وأنزل الذين ظاهروهم » أي عاونوا المشركين وهم بنو قريظة « من أهل الكتاب » وهم اليهود « من صياصيهم » وحصونهم «وقذف » وألقى « في قلوبهم الرعب » والخوف « فريقاً تقتلون » وهم الرجال « وتأسرون فريقاً » وهم الذراري والنساء « وأورثكم » أي وملككم بعدهم « أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها » وهي أرض خيبر أو الأرض التي أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وأما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم وفارس فلا يلائمه سياق الآيتين « وكان الله على كل شيء قديرا » .

(بحث روائي)

في المجمع ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا : كان من

حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحييّ بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم.

فقالت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد ؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم «ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً — إلى قوله — وكفى بجهنم سعيراً » فسرّ قريشاً ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه فأجمعوا لذلك واتّعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون عليه وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم .

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بني أسد وهما حليفان أسد وغطفان وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مدداً لقريش .

فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار اليه سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه .

فما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال : حدثني أبي عن أبيه قال : خطّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف : فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرّن

وستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً ، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدوّرة فكسرت حديدنا وشقّت علينا فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه ، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو مضروب عليه قبة فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدوّرة فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما يحكّ فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق وأخذ المعول وضرب بها ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعني لابتي المدينة حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح فكبّر المسلمون ثم ضرب ضربة اخرى فلمعت برقة اخرى ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة اخرى .

فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ فقال: أما الاولى فإن الله عز وجل فتح عليّ بها اليمن وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بهـا المشرق فاستبشر المسلمون بذلك وقالوا : الحمد لله موعد صادق .

قال : وطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يحدّثكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنهـا تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا (١) .

ومما ظهر فيه أيضاً من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال حدثني أيمن المخزومي قال: سمعت جابر بن عبدالله قال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية وهي الجبل فقلنا : يا رسول الله إن كدية عرضت فيه فقال رسول الله ﷺ رشوا عليها ماء ثم قام وأتاها وبطنه معصوب الحجر (٢) من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثاً ثم ضرب فعادت كثيباً (٣)

---

(١) أي تقضوا حاجتكم بالتخلي .
(٢) الحجر حضن الانسان وهو ما دون الابط الى الكشح .
(٣) أي تلا من الرمل .

أهيل فقلت : ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء ؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق[١] فطحنت الشعير فعجنته وذبحت العناق وسلختها وخليت بين المرأة وبين ذلك .

ثم أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة ثم قلت : ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن عندنا طعيماً لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال : وكم هو؟فقلت: صاع من شعير وعناق فقال للمسلمين جميعاً : قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت : جاء بالخلق إلى صاع شعير وعناق .

فدخلت على المرأة وقلت : قد افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت: نعم. فقالت : الله ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غماً شديداً .

فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم فجعل رسول الله ﷺ يثرد ويفرق اللحم ثم يحم هذا ويحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا .

ثم قال رسول الله ﷺ : كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع أورده البخاري في الصحيح .

قالوا : ولما فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف[٢] والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[٣] في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام[٤] .

---

(١) الانثى من أولاد المعز .
(٢) مكان خارج المدينة .
(٣) جبل بالمدينة .
(٤) حصون لأهل المدينة .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال : ويحك يا حيي إنك رجل مشؤم ، إني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقاً . قال: ويحك افتح لي حتى أكلمك . قال : ما أنا بفاعل . قال : إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك .

فاحفظ[١] الرجل ففتح له فقال:ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام[٢] جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه . فقال كعب : جئتني والله بذل الدهر بجهام[٣] قد اهراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء .

فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة[٤] والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده وبرىء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة ابن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن

---

(١) أحفظ الرجل : أغضبه .
(٢) الطام : البحر العظيم.
(٣) السحاب الذي لا ماء فيه .
(٤) الذروة والغارب أعلى الشيء وأصله مثل مأخوذ من فتل ذروة البعير الصعب وغاربه لوضع الخطام في أنفه .

كان حقاً فالحنوا لنا لحناً نعرفه ولا تفتّوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

وخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم. قالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد ، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه ، وقال سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة .

ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : عضل والقارة – لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله خبيب بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع – فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظنّ المؤمنون كل ظن وظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر ابن لويّ وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله قد تلبّسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيّؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم مَن الفرسان ؟

ثم أقبلوا تعنق[1] بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا وأقبلت الفرسان نحوهم .

وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتثّ وأثبته الجراح ولم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده ، وكان يعدّ بألف فارس وكان يسمى فارس يليل لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا بيليل – وهو واد قريب من بدر – عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه : امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم أن يصلوا اليه فعُرِف بذلك .

---

(١) أعنق به فرسه : سار به سيراً واسعاً فسيحاً مسيطراً ممتداً .

وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المُذاد وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك :

عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المذاد وكان فارس يليل

وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود كان ينادي : من يبارز ؟ فقام علي وهو مقنّع في الحديد فقال : أنا له يا نبي الله ، فقال : إنه عمرو اجلس . ونادى عمرو : ألا رجل ؟ وهو يؤنّبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ فقام علي فقال : أنا له يا رسول الله . ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بححت عن النداء بجمعكم هل من مبارز ؟
ووقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام علي فقال: يا رسول الله أنا له، فقال: إنه عمرو، فقال : وإن كان عمرواً فاستأذن رسول الله ﷺ فأذن له .

قال ابن إسحاق : فمشى اليه وهو يقول :

لا تعجلنّ فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّةٍ وبصيرةٍ والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيم عليك ناحية الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو : مَن أنت ؟ قال : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فقال : غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإني أكره أن أهريق دمك. فقال علي : لكني والله ما أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو ونزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضباً فاستقبله علي بدرقته [1] فضربه عمرو بالدرقة فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه ، وضربه علي على حبل العاتق فسقط .

---

(١) الدرقة : الجنة .

وفي رواية حذيفة : وتسيّف علي رجليه بالسيف من أسفل فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة فسمع علي يكبّر فقال رسول الله ﷺ : قتله والذي نفسي بيده فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله قتله فجز ّ على رأسه وأقبل نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل .

قال حذيفة : فقال النبي ﷺ : أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو ، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو .

وعن الحاكم أبي القاسم أيضاً بالإسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : كان يقرأ « وكفى الله المؤمنين القتال بعلي » .

وخرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزّى جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم اقاتله فقتله الزبير بن العوام ، وذكر ابن إسحاق : أن علياً طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق .

وبعث المشركون إلى النبي ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي : هو لكم لا نأكل ثمن الموتى ، وذكر علي أبياتاً منها :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت رب محمد بصواب
فضربته وتركته متجدلاً ... كالجذع بين دكادك ورواب
وعففت عن أثوابه لو أنني ... كنت المقطّر بزّني أثوابي

قال ابن اسحق : ورمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم وقال : خذها وأنا ابنُ العرفة فقطع أكحله فقال سعد : عرف الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليّ أن اجاهد من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة .

قال: وجاء نعيم بن مسعود الأشجعي الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك فقال له النبي ﷺ : إنما أنت فينا

رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة .

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم : إني لكم صديق ، والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحـــدة إن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاؤا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا الى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ولا طاقـة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم تستوثقون بـــه أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمداً . فقالوا له : قد أشرت برأي .

ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش فقال : يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً ودينه وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا عليّ . فقالوا : نفعل ما أنت عندنا بمتهم . قال : تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد فبعثوا اليه أنــه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهناً من أشرافهم وندفعهم اليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك . فقـال : بلى فإن بعثوا اليكم يسألونكم نفراً من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا .

ثم جاء غطفان وقال : يا معشر غطفان إني رجل منكم ، ثم قال لهم ما قـال لقريش .

فلما أصبح أبو سفيان وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث اليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود إن الكراع والخف قد هلكا وإنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه.

فبعثوا اليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمداً.

فقال أبو سفيان: والله لقد حذّرنا هذا نعيم فبعث اليهم أبو سفيان: إنا لا نعطيكم رجلاً واحداً فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا ، فقالت اليهود : هـذا والله الذي قال لنا نعيم . فبعثوا اليهم إنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهناً ، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين .

قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان: والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله وقام رسول الله ﷺ يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة . قال حذيفة : فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع ، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بداً من إجابته . قلت : لبيك قال : اذهب فجيء بخبر القوم ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع .

قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال : يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه ؟ قال حذيفة : فبدأت بالذي عن يميني فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان .

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال : يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهـذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثم عجّل فركب راحلته وإنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها .

قال : قلت في نفسي : لو رميت عدو الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن شيئاً حتى ترجع . قال فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله وهو يصلي فلما سمع حسي فرّج بين رجليه فدخلت تحته ، وأرسل على طائفة من مرطه [1] فركع وسجد ثم قال : ما الخبر ؟ فأخبرته .

وعن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا فكان كما قال ، فلم يغزهم قريش بعد ذلك وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة .

أقول : هذا ما أورده الطبرسي في مجمع البيان من القصة أوردناه ملخصاً وروى القمي في تفسيره قريباً منه وأورده في الدر المنثور في روايات متفرقة .

وفي المجمع أيضاً روى الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال:

---

(١) كساء من صوف ونحوه يؤتزر به .

لما انصرف النبي ﷺ عن الخندق ووضع عنه اللأمة واغتسل واستحم تبدى له جبريل فقال : عذيرك من محارب ألا أراك أن قد وضعت عنك اللأمة وما وضعناها بعد .

فوثب رسول الله ﷺ فزعاً فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم : إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة فإنما نحن في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، وصلى طائفة من الناس احتسابا وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها حين جاؤا بني قريظة احتساباً فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين .

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب على المقدّم ودفع اليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله على آثارهم فمرّ على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله ﷺ فزعموا أنه قال : مرّ بكم الفارس آنفاً فقالوا : مرّ بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك بدحية ولكنه جبرائيل أرسل الى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

قالوا : وسار علي حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : أظنك سمعت لي منهم أذى ؟ فقال : نعم يا رسول الله فقال : لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : يا إخوة القردة والخنازير ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان حييّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا : ما هن ؟

قال: نبايع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبيّن لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال: فإذا أبيتم عليّ هذا فهلمّوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالاً مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً يهمنا وإن نظهر لنجدن النساء والأبناء . فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير في العيش بعدهم .

قال : فإن أبيتم عليّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا فعلّنا نصيب منهم غرّة . فقالوا : نفسد سبتنا ؟ ونحدث فيه ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ ؟ فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته امه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

قال الزهري : وقال رسول الله ﷺ حين سألوه أن يحكّم فيهم رجلاً : اختاروا من شئتم من أصحابي ، فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك النبي ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم فجعل في قبّته وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار اسامة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم وتغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار: إنكم ذو عقار وليس للمهاجرين عقار ، فكبّر رسول الله ﷺ وقال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل ، وفي بعض الروايات : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة - وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا .

فقتل رسول الله مقاتليهم ، وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل ، وقيل : قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلاً وسبى سبعمائة وخمسين ، وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالاً : يا كعب ما ترى يصنع بنا ؟ فقال كعب : أفي كل موطن تقولون ؟ ألا ترون أن الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل .

وأُتي بحييّ بن أخطب عدو الله عليه حلة فاختية قد شقّها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة لئلا يسلبها مجموعة يـــداه إلى عنقه بحبل ، فلما بصر برسول الله ﷺ فقال : أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم قال: يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه .

ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين وبعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً ، قالوا : فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجّعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد .

وروي عن جابر بن عبد الله قال : جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هـــذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء وتحرّك له العرش فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض .

أقول : وروى القصة القمي في تفسيره مفصلة وفيه : فاخرج كعب بن اسيد مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر اليه رسول الله ﷺ قال له : يا كعب أما نفعك وصية ابن الحواس الحبر الذكي الذي قدم عليكم من الشام فقال: تركت الخمر والخمير وجئت الى البؤس والتمور لنبي يبعث مخرجه بمكة ومهاجرته في هـــذه البحيرة يجتزي بالكسيرات والتميرات ، ويركب الحمـــار العري ، في عينيه حمرة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يضع سيفه على عاتقه ، لا يبالي من لاقى منكم ، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر فقال قد كان ذلك يا محمد ولولا أن اليهود يعيّروني أني جزعت عند القتل لآمنت بك وصدّقتك ولكني على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت. فقال رسول الله ﷺ : قدّموه واضربوا عنقه فضربت .

وفيه أيضاً : فقتلهم رسول الله ﷺ في البردين بالغـــداة والعشيّ في ثلاثة أيام وكان يقول : اسقوهم العذب وأطعموهم الطيب وأحسنوا أساراهم حتى قتلهم كلهم فأنزل الله عز وجل فيهم : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم – إلى قوله – وكان الله على كل شيء قديراً » .

وفي المجمع : روى أبو القاسم الحسكاني عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي عليه‌السلام قال : فينا نزلت « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فأنا والله المنتظر ما بدّلت تبديلا .

* * *

يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلحَيوٰةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً ــ ٢٨ . وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أجراً عَظيماً ــ ٢٩ . يا نِساءَ النَّبيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها ٱلعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسيراً ــ ٣٠ . وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أجرَها مَرَّتَيْنِ وَأعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَريماً ــ ٣١ . يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِٱلقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ــ ٣٢ . وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلجاهِلِيَّةِ ٱلأُولىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلوٰةَ وَآتينَ الزَّكوٰةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ ٱلبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ــ ٣٣ . وَٱذْكُرْنَ ما يُتْلىٰ في بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَٱلحِكْمَةِ إنَّ اللهَ كانَ لَطيفاً خَبيراً ــ ٣٤ . إنَّ ٱلمُسْلِمينَ وَٱلمُسْلِماتِ وَٱلمُؤْمِنينَ وَٱلمُؤْمِناتِ وَٱلقانِتينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ــ ٣٥ .

(بيان)

آيات راجعة إلى أزواج النبي ﷺ تأمره أولاً : أن ينبئهن أن ليس لهن من الدنيا وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي ﷺ ، ثم تخاطبهن ثانياً: أنهن واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلوّ والشرف فإن اتّقين الله يؤتين أجرهن مرتين وإن أتين بفاحشة مبيّنة يضاعف لهن العذاب ضعفين ويأمرهن بالعفة ولزوم بيوتهن من غير تبرّج والصلاة والزكاة وذكر ما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعداً بالمغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى تمام الآيتين ، سياق الآيتين يلوّح أن أزواج النبي أو بعضهن كانت لا ترتضي ما في عيشتهن في بيت النبي ﷺ من الضيق والضنك فاشتكت اليه ذلك واقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها .

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيّرهن بين أن يفارقنه ولهن ما يردن وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود .

وقد ردّد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، وهذا الترديد يدل أولاً : أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والعيشة في بيته مما لا يجتمعان .

وثانياً : أن كلاً من طرفي الترديد مقيّد بما يقابل الآخر ، والمراد بإرادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد ، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك .

ثم الجزاء أعني نتيجة اختيارهن كلاً من طرفي الترديد مختلف فلهنّ على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي ﷺ أن يطلّقهن ويمتعهن جمعاء من مال الدنيا ، وعلى تقدير بقائهن على زوجية النبي ﷺ واختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان والعمل الصالح .

ويتبين بذلك أن ليس لزوجية النبي ﷺ من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه وإنما الكرامة لزوجيته المقارنة للاحسان والتقوى ولذلك لما ذكر ثانياً علوّ منزلتهن قيّده أيضاً بالتقوى فقال : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » وهذا كقوله في النبي وأصحابه : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً – إلى أن قال – وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أجراً عظيماً » حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولاً ثم قيّد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح .

وبالجملة فإطلاق قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٠ على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك .

فقوله: « يا أيها النبي قل لأزواجك » أمر النبي ﷺ أن يبلغ الآيتين أزواجه ولازمه أن يطلقهن ويمتعهن إن اخترن الشق الأول ويبقيهن على زوجيته إن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

وقوله : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » إرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها وتعلق القلب بتمتعاتها والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة .

وقوله : « فتعالين أمتعكن وأسرّحكن سراحاً جميلا» قال في الكشاف: أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت في

استعماله الأمكنة ، ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول : أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني . انتهى .

والتمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالاً يتمتعن به والتسريح هو التطليق والسراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة ومشاجرة بين الزوجين .

وفي الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون والحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي ﷺ ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره وتفصيل القول في الفقه .

وقوله : « وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة » فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة وبين قوله : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » الخ ، تقيد كلاً منهما بخلاف الاخرى وعدمها ، فمعنى الجملة : وإن كنتن تردن وتخترن طاعة الله ورسوله وسعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش والحرمان من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش وإلا لم يصح اشتراط الإحسان في الأجر الموعود وهو ظاهر .

فالمعنى : وإن كنتن تردن وتخترن البقاء على زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش فإن الله هيأ لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكنّ محسنات في أعمالكنّ مضافاً إلى إرادتكن الله ورسوله والدار الآخرة فإن لم تكنّ محسنات لم يكن لكنّ إلا خسران الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » الخ ، عدل عن مخاطبة النبي ﷺ فيهن إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف وزيادة التوكيد ، والآية والتي بعدها تقرير وتوضيح بنحو لما يستفاد من قوله : « فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » إثباتاً ونفياً .

فقوله : « من يأت منكن بفاحشة مبيّنة » الفاحشة الفعلة البالغة في الشناعة والقبح وهي الكبيرة كإيذاء النبي ﷺ والافتراء والغيبة وغير ذلك ، والمبيّنة هي الظاهرة .

وقوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » أي حال كونه ضعفين والضعفان المثلان

ويؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد : « نؤتها أجرها مرتين » فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله .

وختم الآية بقوله : « وكان ذلك على الله يسيراً » للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية ونحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى وزوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى وأما مع المعصية فلا تزيد إلا بعداً ووبالا .

قوله تعالى : « ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين » الخ ، القنوت الخضوع ، وقيل: الطاعة وقيل: لزوم الطاعة مع الخضوع ، والإعتاد التهيئة ، والرزق الكريم مصداقه الجنة .

والمعنى : ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع ويعمل عملاً صالحاً نعطها أجرها مرتين أي ضعفين وهيأنا لها رزقاً كريماً وهي الجنة .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله : « نؤتها » و « أعتدنا » للإيذان بالقرب والكرامة ، خلاف البعد والخزي المفهوم من قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » .

قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » الخ ، الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين وترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي والأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله : فلا تخضعن بالقول وقرن ولا تبرّجن الخ ، وهي خصال مشتركة بين نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر النساء .

فتصدير الكلام بقوله : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه ، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل : لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف وتحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء .

وتؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيراً وشراً كما دلّت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف .

وقوله : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » بعد ما بيّن علوّ

منزلتهن ورفعة قدرهن لمكانهن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشرط في ذلك التقوى فبيّن أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام وتليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة وتثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض وهو فقدانه قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء .

وقوله : « وقلن قولاً معروفاً » أي كلاماً معمولاً مستقيماً يعرفه الشرع والعرف الإسلامي وهو القول الذي لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرّى عن الإيماء إلى فساد وريبة .

قوله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى – إلى قوله – وأطعن الله ورسوله » «قرن» من قرّ يقر إذا ثبت وأصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن ولزومهن لها ، والتبرّج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها . والجاهلية الاولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة ، وقول بعضهم : إن المراد به زمان ما بين آدم ونوح عليهما السلام ثمان مائة سنة ، وقول آخرين إنها ما بين إدريس ونوح ، وقول آخرين زمان داود وسليمان وقول آخرين أنه زمان ولادة إبراهيم ، وقول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوال لا دليل يدل عليها .

وقوله : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » أمر بامتثال الأوامر الدينية وقد أفرد الصلاة والزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات والمعاملات ثم جمع الجميع في قوله : « وأطعن الله ورسوله » .

وطاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعية وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » كلمة « إنما » تدل على حصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وكلمة أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحاً أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس والتطهير بالمخاطبين بقوله : « عنكم » ، ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وقصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت .

وليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عنكم» ولم يقل: عنكن فإما أن يكون الخطاب لهن ولغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام وهم المتقون لقوله تعالى: « إن أولياؤه إلا المتقون » أو أهل مسجد رسول الله ﷺ أو أهل بيت النبي ﷺ وهم الذين يصدق عليهم عرفاً أهل بيته من أزواجه وأقربائه وهم آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي أو النبي ﷺ وأزواجه، ولعل هـذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة وعروة إنها في أزواج النبي ﷺ خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبي من آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي.

وعلى أي حال فالمراد بإذهاب الرجس والتطهير مجرد التقوى الديني بالاجتناب عن النواهي وامتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف اليكم وإنما يريد إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم على حد قوله: « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم » المائدة: ٦، وهذا المعنى لا يلائم شيئاً من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البينة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

وإن كان المراد بإذهاب الرجس والتطهير التقوى الشديد البالغ ويكون المعنى: أن هذا التشديد في التكاليف المتوجهة اليكن أزواج النبي وتضعيف الثواب والعقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس ويطهركم ويكون من تعميم الخطاب لهن ولغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن وهو ظـــاهر ولا عموم الخطاب لهن ولغيرهن فإن الغير لا يشاركهن في تشديد التكليف وتضعيف الثواب والعقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجهاً اليهن مع النبي ﷺ وتكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه ﷺ مؤيد بعصمة من الله وهي موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف وتضعيف الجزاء بالنسبة اليه مقدمة أو سبباً لحصول

التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآية ولذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجها اليهن مع النبي ﷺ فقط أحد من المفسرين وإنما احتملناه لتصحيح قول من قال : إن الآية خاصة بأزواج النبي ﷺ .

وإن كان المراد إذهاب الرجس والتطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقاً لا بتوجيه مطلق التكليف ولا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافياً لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية .

وبهذا الذي تقدم يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم .

وهي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلة بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي وعبد الله بن جعفر وعلي والحسن بن علي عليهما السلام في قريب من أربعين طريقاً .

وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وأم سلمة وأبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً .

فإن قيل : إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ولا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي ﷺ كما يفيده وقوع الآية في سياق خطابهن.

قلنا : إن كثيراً من هذه الروايات وخاصة ما رويت عن أم سلمة – وفي بيتها نزلت الآية – تصرح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي وسيجيء الروايات وفيها الصحاح .

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لهن كوقوع الآية في سياق خطابهن.

قلنا : إنما الشأن كل الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة في نزول الآية وحدها ، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي ولا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج

النبي كما ينسب إلى عكرمة وعروة ، فالآية لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي ولا متصلة بها وإنما وضعت بينها إما بأمر من النبي ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة ، ويؤيده أن آية « وقرن في بيوتكن » على انسجامها واتصالها لو قدّر ارتفاع آية التطهير من بين جملها ، فموقع آية التطهير من آية « وقرن في بيوتكن » كموقع آية « اليوم يئس الذين كفروا » من آية محرمات الأكل من سورة المائدة، وقد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب .

وبالبناء على ما تقدم تصير لفظة أهل البيت اسماً خاصاً – في عرف القرآن – بهؤلاء الخمسة وهم النبي وعلي وفاطمة والحسنان عليهم الصلاة والسلام لا يطلق على غيرهم ، ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صحّ بحسب العرف العام إطلاقه عليهم .

والرّجس – بالكسر فالسكون – صفة من الرجاسة وهي القذارة ، والقذارة هيئة في الشيء توجب التجنب والتنفر منها ، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير ، قال تعالى : « أو لحم الخنزير فإنه رجس » الأنعام : ١٤٥ ، وبحسب باطنه – وهو الرجاسة والقذارة المعنوية – كالشرك والكفر وأثر العمل السيىء، قال تعالى: «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون» التوبة : ١٢٥ ، وقال : « ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

وأياً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيىء وإذهاب الرجس – واللام فيه للجنس – إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطىء حق الاعتقاد والعمل فتنطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيىء العمل .

على أنك عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد في التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت،وعرفت أيضاً أن إرادة ذلك لا تناسب مقام النبي ﷺ من العصمة .

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بالتطهير في قوله : « ويطهّركم تطهيراً » – وقد أكد بالمصدر – إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله

بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضاً غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكاليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلا .

والمعنى : أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الإعتقاد الباطل وأثر العمل السيىء عنكم أهل البيت وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم وهي العصمة .

قوله تعالى : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وجّه إليهن من التكاليف ، وفي قوله : « في بيوتكن » تأكيد آخر .

والمعنى : واحفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وليكن منكن في بال حتى لا تغفلن ولا تتخطين مما خط لكم من المسير .

وأما قول بعضهم : إن المراد واشكرن الله إذ صيّركن في بيوت يتلى فيهن القرآن والسنة فبعيد من السياق وخاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية : « إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » الخ ، الإسلام لا يفرّق بين الرجال والنساء في التلبس بكرامة الدين وقد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالا في مثل قوله : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ ، ثم صرّح به في مثل قوله : « أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى » آل عمران : ١٩٥ ، ثم صرح به تفصيلا في هذه الآية .

فقوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتها نوعاً من المغايرة والذي يستفاد منه نحو مغايرتها قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم

– إلى أن قال – إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » الحجرات : ١٥ ، يفيد أولا أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي . وثانياً : أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح .

فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكاليف والمسلمون والمسلمات هم المسلمون لذلك والإيمان هو عقد القلب على الدين ، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح والمؤمنون والمؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم ولا عكس .

وقوله : « والقانتين والقانتات » القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله : « والصادقين والصادقات » الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره ، للواقع . فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم .

وقوله : « والصابرين والصابرات » فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة والنائبة وبالصبر على الطاعة وبالصبر عن المعصية ، وقوله : « والخاشعين والخاشعات » الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهري بالجوارح .

وقوله : « والمتصدقين والمتصدقات » والصدقة إنفاق المال في سبيل الله ومنه الزكاة الواجبة ، وقوله : « والصائمين والصائمات » بالصوم الواجب والمندوب ، وقوله: « والحافظين فروجهم والحافظات » أي لفروجهن وذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم ، وقوله : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » أي الله كثيراً حذف لظهوره وهم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم وجنانهم ويشمل الصلاة والحج .

وقوله : « أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » التنكير للتعظيم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك » كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل

فغضبن من ذلك ، وقلن : لعلك ترى أنك إن طلّقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجونا ؟ .

فأنف الله عز وجل لرسوله فأمره أن يعزلهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله عز وجل هذه الآية وهي آية التخيير فقال : « يا أيها النبي قل لأزواجك — إلى قوله — أجراً عظيماً» فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت : قد اخترت الله ورسوله فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك الحديث .

أقول: وروي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة وفيها أن أول من اختارت الله ورسوله منهن عائشة .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه‌السلام أن زينب بنت جحش قالت : يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجاً غيره وقد كان اعتزل نساءه تسعة وعشرين ليلة فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرائيل إلى محمد ﷺ فقال : « قل لأزواجك » الآيتين كلتيهما فقلن : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة.

وفيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : سألته عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها بانت ؟ قال : لا . إنما هذا شيء كان لرسول الله ﷺ خاصة أمر بذلك ففعل ، ولو اخترن أنفسهن لطلقهن وهو قول الله عز وجل : « قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً » .

وفي المجمع روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها : هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً ؟ قالت : نعم .

فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها : تكلمي ، فقالت : يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها .

فقال له النبي ﷺ : كف فقال عمر : يا عدوة الله النبي لا يقول إلا حقاً والذي بعثه بالحق ، لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي فقام النبي ﷺ فصعد

إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتغدّى ويتعشّى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشر امرأة منهن، وقبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة وسنا . وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين ، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رملة بنت أبي سفيان ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويرية بنت الحارث ثم صفية بنت حيي بن أخطب والتي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمي .

وكان له سرّيتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وريحانة الخندفية .

والتسع اللاتي قبض عنهن عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث وأم حبيب بنت أبي سفيان وجويرية وسودة وصفية . وأفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة .

وفي المجمع في قوله : « يا نساء النبي من يأت منكن » الآيتين روى محمد بن أبي عمير عن ابراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبدالله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم . قال : فغضب وقال : نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب .

وفي تفسير القمي مسنداً عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام في هـذه الآية « ولا تبرّجن تبرُّج الجاهلية الاولى » قال : أي ستكون جاهلية اخرى .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة : ائتيني بزوجك وابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد ــ وفي لفظ آل محمد ــ فاجعل صلواتك

وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قالت ام سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال : إنك على خير .

أقول : ورواه في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن ام سلمة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ام سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً » وفي البيت سبعة جبريل وميكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنا على باب البيت . قلت : يا رسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال : إنك على خير إنك من أزواج النبي .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة زوج النبي أن رسول الله ﷺ كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببُرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ : ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

فأخذ النبي ﷺ بفضلة إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، قالها ثلاث مرات .

قالت ام سلمة : فأدخلت رأسي في الستر فقلت : يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرتين .

أقول : وروى الحديث في غاية المرام عن عبدالله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن ام سلمة وكذا عن تفسير الثعلبي .

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : كان يوم ام سلمة ام المؤمنين فنزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بهذه الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » قال : فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم اليه ونشر عليهم الثوب ، والحجاب على ام سلمة مضروب ، ثم

قـــال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، قالت ام سلمة : فأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وإنك على خير .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت هـذه الآية في خمسة فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

أقول : ورواه أيضاً في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره .

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت : في بيتي نزلت : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وفي غاية المرام عن الحميدي قال: الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري ومسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبـــة عن عائشة قالت : خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

أقول : والحديث مروي عنها بطرق مختلفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما دخل علي بفاطمة جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا».

أقول : ورواه أيضاً عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه رأيت رسول الله ﷺ

يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول : « إنما يريد الله » الآية ، وأيضاً عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ولفظه حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج الى صلاة الغداة إلا أتى الى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة « إنما يريد الله ليذهب » الآية .

ورواه أيضاً عن ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ولفظه أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

أقول : والروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنة كثيرة وكذا من طرق الشيعة ، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحراني والعبقات .

وفي غاية المرام عن الحمويني بإسناده عن يزيد بن حيان قال : دخلنا على زيد بن أرقم فقال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ألا إني تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عز وجل من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة ، ثم أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات .

قلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقة بعده آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل .

وفيه أيضاً عن مسلم في صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة ، فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أهلها وقومها . أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

أقول : فسّر البيت بالنسب كما يطلق عرفاً على هذا المعنى ، يقال : بيوتات العرب بمعنى الأنساب ، لكن الروايات السابقة عن أم سلمة وغيرها تدفع هذا المعنى وتفسر أهل البيت بعلي وفاطمة وابنيها عليهم السلام .

وفي المجمع قال مقاتل بن حيان : لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع

زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قلن : لا .

فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار ، فقال ﷺ : وممّ ذلك ؟ قالت : لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية « إن المسلمين والمسلمات » الخ .

أقول : وفي روايات أخر أن القائلة هي أم سلمة .

* * *

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ــ ٣٦ . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ــ ٣٧ . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ــ ٣٨ . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ــ ٣٩ . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ــ ٤٠ .

(بيان)

الآيات أعني قوله: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه - إلى قوله - وكان الله بكل شيء عليما » في قصة تزوج رسول الله ﷺ بزوج مولاه زيد الذي كان قد اتخذه ابناً ، ولا يبعد أن تكون الآية الاولى أعني قوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » الآية ، مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها .

قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الخ ، يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شؤنهم بواسطة رسول من رسله ، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شؤن الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

فقضاؤه ﷺ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره ، ويشهد سياق قوله : « إذا قضى الله ورسوله أمراً » حيث جعل الأمر الواحد متعلقاً لقضاء الله ورسوله معاً ، على أن المراد بالقضاء التصرف في شؤن الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله .

وقوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاؤا وقوله: « إذا قضى الله ورسوله أمراً » ظرف لنفي الاختيار .

وضميرا الجمع في قوله : « لهم الخيرة من أمرهم » للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيّز النفي ووضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل : « من أمرهم » ولم يقل : أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشأ توهّم الخيرة وهو انتساب الأمر اليهم .

والمعنى : ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في

أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه اليهم وكونه أمراً من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله .

والآية عامة لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » الآية ، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي ﷺ بزوج زيد وتعييره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبني وسيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام .

قوله تعالى : «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله» إلى آخر الآية المراد بهذا الذي أنعم الله عليه وأنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبداً للنبي ﷺ ثم حرّره واتخذه ابناً له وكان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبي ﷺ أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبي ﷺ عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي ﷺ ونزلت الآيات .

فقوله : « أنعم الله عليه » أي بالهداية إلى الإيمان وتحبيبه إلى النبي ﷺ وقوله : « وأنعمت عليه » أي بالإحسان اليه وتحريره وتخصيصه بنفسك ، وقوله : أمسك عليك زوجك واتق الله » كناية عن الكف عن تطليقها ، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها .

وقوله : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » أي مظهره « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ذيل الآيات أعني قوله : « الذين يبلّغون رسالات الله ولا يخشون أحداً إلا الله» دليل على أن خشيته ﷺ الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعاراً منه أنه لو أظهره عابه الناس وطعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثراً سيئاً في إيمان العامة ، وهذا الخوف – كما ترى – ليس خوفاً مذموماً بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه .

فقوله : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله وهي خشيته عن طريق الناس وهداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى وأنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه وهذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبناه

ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأدعياء وهو ﷺ كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى : « يا أيها النبي بلّغ مـا أنزل اليك من ربك ــ إلى قوله ــ والله يعصمك من الناس » الآية .

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله : «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» مسوق لانتصاره وتأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » التوبة : ٤٣ .

ومن الدليل على أنه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله بعد : « فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها » حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ﷺ واختياره ثم قوله : « وكان أمر الله مفعولا » .

فقوله : « فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها » متفرع على ما تقدم من قوله : وتخفي في نفسك ما الله مبديه » وقضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتع ، وقوله: «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم لما قضوا منهن وطراً» تعليل للتزويج ومصلحة للحكم ، وقوله: « وكان أمر الله مفعولا» مشير إلى تحقق الوقوع وتأكيد للحكم.

ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي ﷺ يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواهـا وحبه الشديد لها وهي بعـد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين واعتذروا عنه بأنها حالة جبليّة لا يكاد يسلم منها البشر ، فإن فيه أولاً : منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية ، وثانياً: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانه وإخفائه في نفسه فلا مجوّز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبب بهن .

قوله تعالى : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » الخ ، الفرض هو التعيين والإسهام يقال : فرض له كذا أي عيّنه له وأسهمه به ، وقيل : هو في المقـام بمعنى الإباحة والتجويز ، والحرج الكلفة والضيق ، والمراد بنفي الحرج نفي سببه وهو المنع عما فرض له .

والمعنى : مـا كان على النبي من منع فيما عيّن الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك .

وقوله: « سنّة الله في الذين خلوا من قبل » اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولاً مطلقاً والتقدير سنّ الله ذلك سنّة ، والمراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء والرسل الماضون بقرينة قوله بعد : « الذين يبلّغون رسالات الله » الخ .

وقوله : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » أي يقدّر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله ويناسبها ، والأنبياء لم يمنعوا ممـا قدّره الله وأباحه لغيرهم حتى يمنع النبي ﷺ من بعض ما قدّر وأبيح .

قوله تعالى : « الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » الخ ، الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله : « الذين خلوا من قبل » .

والخشية هي تأثر خاص للقلب عن المكروه وربما ينسب إلى السبب الذي يتوقع منه المكروه، يقال : خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلاناً أن يفعل بي كذا ، والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم إلا الله .

وهـذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملاً سواء كان معه تأثر قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم » الشعراء : ٢١ ، وقوله في النبي ﷺ : « وإما تخافنّ من قوم خيانة » الأنفال: ٥٨ ، وهذا هو الأصل في معنى الخوف والخشية وربما استعملا كالمترادفين .

ومما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وإن كان سياق قوله : « يبلّغون رسالات الله ويخشونه » الخ، يلوّح إلى أن المنفي هو الخشية في تبليغ الرسالة . على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم .

وقوله : « وكفى بالله حسيباً » أي محاسباً يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يخشى ولا يخشى غيره .

قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» الخ،لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي ﷺ بأنه تزوج زوج ابنه ومحصل الدفع أنه ليس أبا زيد ولا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون

تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب في قوله : « من رجالكم » للناس الموجودين في زمن نزول الآية ، والمراد بالرجال ما يقابل النساء والولدان ونفي الابوّة نفي تكويني لا تشريعي ولا تتضمن الجملة شيئاً من التشريع .

والمعنى : ليس محمد ﷺ أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجاً منه بزوج ابنه وزيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجاً بزوج الابن حقيقة وأما تبنيه زيداً فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوة والبنوة وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

وأما القاسم والطيب والطاهر[1] وإبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالاً حتى ينتقض الآية وكذا الحسن والحسين وهما ابنا رسول الله فإن النبي ﷺ قبض قبل أن يبلغا حدّ الرجال .

ومما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفي أبوّته ﷺ للقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذا للحسنين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية .

وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين» الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ﷺ فلا نبي بعده .

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب ، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة .

ومن هنا يظهر أن كونه ﷺ خاتم النبيين يستلزم كونه خاتماً للرسل .

وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه ﷺ وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه .

وقوله : « وكان الله بكل شيء عليماً » أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه .

---

(١) هذا على ما هو المعروف وقال بعضهم : ان الطيب والطاهر لقبان للقاسم .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » الآية كلها.

أقول: وفي معناها روايات أخر.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: والروايتان أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول.

وفي العيون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجيب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء:

قال: وأما محمد ﷺ وقول الله عز وجل: « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » فإن الله عز وجل عرّف نبيه ﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين وأحد من سمي له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى ﷺ اسمها في نفسه ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في امرأة في بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين وخشي قول المنافقين.

قال الله عز وجل: «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» يعني في نفسك الحديث.

أقول: وروى ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

وفي المجمع في قوله تعالى: « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » قيل: إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها فلما جاء زيد وقال له: أريد أن أطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك، فقال

سبحانه : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟ وروي ذلك عن علي بن الحسين عليه‌السلام .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فجعل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : اتق الله وامسك عليك زوجك فنزلت : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » .

قال أنس : فلو كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية ، فتزوجها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الحديث .

أقول : والروايات كثيرة في المقام وإن كان كثير منها لا يخلو من شيء وفي الروايات : ما أولم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم ، وفي الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبي بثلاث أن جدها وجدّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واحد فإنها كانت بنت أُميمة بنت عبد المطلب عمة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأن الذي زوّجها منه هو الله سبحانه وأن السفير جبريل .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » : وصح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها ونظر اليها فقال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة . قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء ، أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما .

أقول : وروى هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كنت أقرىء الحسن والحسين فمرّ بي علي بن أبي طالب وأنا أقرئهما فقال لي : أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ـــ ٤١ . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ـــ ٤٢ . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ـــ ٤٣ . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ـــ ٤٤ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ـــ ٤٥ . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ـــ ٤٦ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ـــ ٤٧ . وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ـــ ٤٨ .

(بيان)

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر والتسبيح وتبشرهم وتعدهم الوعد الجميل وتخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته الكريمة وتأمره أن يبشر المؤمنين ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ويمكن أن يكون القبيلان مختلفين في النزول زماناً .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » الذكر ما يقابل النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكور وأما التلفظ بما يدل عليه من أسمائه وصفاته فهو بعض مصاديق الذكر .

قوله تعالى : « وسبّحوه بكرة وأصيلا » التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ وإن كان التلفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح .

والبكرة أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكرة والأصيل

لما فيها من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معاً كنـــاية عن الدوام كالليل والنهار في قوله: « يسبحون له بالليل والنهار » حم السجدة : ٣٨ .

قوله تعالى : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب اليه ولذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي تترتب عليها سعادة العقبى والفلاح المؤبد ولذلك علّل تصليته عليهم بقوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً » .

وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال: « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، وقال : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ وتصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلاً صلى عليهم كثيراً وغشيهم بالنور وأبعدهم من الظلمات .

ومن هنا يظهر أن قوله: « هو الذي يصلي عليكم » الخ، في مقام التعليل لقوله: « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » وتفيـــد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيراً ذكركم برحمته كثيراً وبالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر .

وقوله : « وكان بالمؤمنين رحيماً » وضع الظاهر موضع المضمر ، أعني قوله : «بالمؤمنين» ولم يقل : وكان بكم رحيماً ، ليدل به على سبب الرحمة وهو وصف الإيمان.

قوله تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعـدّ لهم أجراً كريماً » ظاهر السياق أن « تحيتهم » مصدر مضاف إلى المفعول أي إنهم يحيّون – بالبنـــاء للمفعول – يوم يلقون ربهم من عند ربهم ومن ملائكته بالسلام أي إنهم يوم اللقـاء في أمن وسلام لا يصيبهم مكروه ولا يمسهم عذاب .

وقوله : « وأعدّ لهم أجراً كريماً » أي وهيأ الله لهم ثواباً جزيلاً .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » شهادته ﷺ

على الأعمال أن يتحملها في هذه النشأة ويؤديها يوم القيامة ،وقد تقدم في قوله: «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة: ١١٢ ، وغيره من آيات الشهادة أنه ﷺ شهيد الشهداء .

و كونه مبشراً ونذيراً تبشيره المؤمنين المطيعين لله ورسوله بثواب الله والجنة وإنذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار .

قوله تعالى : « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » دعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الايمان بالله وحده ، ولازمه الإيمان بدين الله وتقييد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة .

و كونه ﷺ سراجاً منيراً هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الإستعارة ، وقول بعضهم : إن المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب .

قوله تعالى : « وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » ، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه وقد وصف الله عطاءه فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ ، وقال : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، فبين أنه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة .

قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله » الخ ، تقدم معنى طاعة الكافرين والمنافقين في أول السورة .

وقوله : « ودع أذاهم » أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه وعدم الاشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله : « وتوكل على الله » أي لا تستقلّ بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلاً في ذلك وكفى بالله وكيلاً .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من شيء إلا

وله حد ينتهي اليه إلا الذكر فليس له حد ينتهى اليه فرض الله عز وجل الفرائض فمن أدّاهن فهو حدهن وشهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج فمن حج فهو حده إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي اليه ثم تلى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلا » فقال : لم يجعل الله له حداً ينتهي اليه .

قال : وكان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لساناً لازقاً بحنكه يقول : لا إله إلا الله .

وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر ، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه يكثر بركته ويحضره الملائكة ويهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله يقلّ بركته ويهجره الملائكة ويحضره الشياطين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم ؟ فقالوا : بلى . قال : ذكر الله عز وجل كثيراً .

ثم قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : من خير أهل المسجد ؟ فقال : أكثرهم لله ذكراً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أعطي لساناً ذاكراً فلقد اعطي خير الدنيا والآخرة .

وقال في قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » قال : لا تستكثر ما عملت من خير لله .

وفيه بإسناده عن أبي المعزا رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيراً إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السر فقال الله عز وجل : « يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

وفي الخصال عن زيد الشحّام قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ابتلي المؤمن

بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها. قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيراً. أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه ولكن ذكر الله عندما أحلّ له وذكر الله عندما حرّم عليه.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً. قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه.

وفي العلل بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علي عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأي شيء سُمّيت محمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً؟ فقال ﷺ: أما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي عز وجل، وأما النذير فإني أُنذر بالنار من عصاني، وأما البشير فإني أبشر بالجنة من أطاعني. الحديث.

وفي تفسير القمي في قوله: «يا أيها النبي إنا أرسلناك — إلى قوله — ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً — ٤٩. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

خالِصَةً لكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ
وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً
رَحِيماً ـــ ٥٠ . تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ
ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا
يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ
عَلِيماً حَلِيماً ـــ ٥١ . لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ
مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللهُ
عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ـــ ٥٢ . يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلٰكِنْ إِذا دُعِيتُمْ
فَٱدْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ
يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ
مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما
كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً ـــ ٥٣ . إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ
فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ـــ ٥٤ . لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ
وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا
نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيداً ـ ٥٥ . إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ـ ٥٦ . إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ
وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ـ ٥٧ .
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا
بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ـ ٥٨ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا
يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ـ ٥٩ . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ
فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ـ ٦٠ . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا
تَقْتِيلاً ـ ٦١ . سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ
تَبْدِيلاً ـ ٦٢ .

(بيان)

تتضمن الآيات أحكاماً متفرقة بعضها خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه وبعضها عامة.

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرّحوهن سراحاً جميلا » المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح ، وبالمس الدخول ، وبالتمتيع إعطاؤهن شيئاً من المال يناسب شأنهن وحالهن والتسريح بالجميل إطلاقهن من غير خصومة وخشونة .

والمعنى : إذا طلقتم النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب

تمتيعهن بشيء من المال والسراح الجميل .

والآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم» البقرة: ٢٣٧ ، وتبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » إلى آخر الآية ، يذكر سبحانه لنبيه ﷺ بالإحـــلال سبعة أصناف من النساء : الصنف الأول ما في قوله: « أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » والمراد بالاجور المهور ، والثاني ما في قوله : « وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك » أي من يملكه من الإماء الراجعة اليه من الغنائم والأنفال ، وتقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله : « اللاتي آتيت أجورهن » للتوضيح لا للاحتراز .

والثالث والرابع ما في قوله : « وبنات عمك وبنات عماتك » قيل : يعني نساء قريش ، والخامس والسادس ما في قوله: « وبنات خالك وبنات خالاتك » قيل: يعني نساء بني زهرة ، وقوله : « اللاتي هاجرن معك » قال في المجمع : هـذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل .

والسابع ما في قوله : « وامرأة مؤمنـة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق ومهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها ، وقوله : « خالصة لك من دون المؤمنين » إيذان بأن هذا الحكم – أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس – من خصائصه لا يجري في المؤمنين، وقوله بعده : « قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم » تقرير لحكم الاختصاص .

وقوله : « لكيلا يكون عليك حرج » تعليل لقوله في صدر الآية : « إنا أحللنا لك»أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص والأول أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة.

قوله تعالى : « ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء » الخ ، الإرجـاء التأخير والتبعيد، وهو كناية عن الرد ، والإيواء : الإسكان في المكان وهو كناية عن القبول والضم اليه .

والسياق يدل على أن المراد به أنه ﷺ على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو ردّه .

وقوله : « ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » ، الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لوم أي يجوز لك أن تضم اليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد .

ويمكن أن يكون إشارة إلى أن له ﷺ أن يقسم بين نسائه وأن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن ويقدم من يشاء ويعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده :«ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى – أي أقرب – أن تقر أعينهن – أي يسررن – ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم » وذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له ورجاء المتأخرة أن تتقدم بعد .

وقوله :« إن الله كان عليماً حليما » أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة.

وفي الآية أقوال مختلفة أخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقتها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما سيجيء .

قوله تعالى : «لا يحل لك النساء من بعده ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » الخ ، ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له ﷺ إلا من خيّرهن فاخترن الله ونفي جواز التبدل بهن يؤيد ذلك .

لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله : « إنا أحللنا لك » الخ ، كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت .

وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالآية محرمات النساء المعدودة في قوله : « حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » الآية النساء:٢٣.

فقوله : « لا يحل لك النساء من بعد » أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عددناه في قولنا : « إنا أحللنا لك » على المعنى الثاني أو من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث .

وقوله : « ولا أن تبدل بهن من أزواج » أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها

من غيرهن، وقوله : « إلا ما ملكت يمينك » يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية « لا يحل لك النساء » .

وقوله : « وكان الله على كل شيء رقيباً » معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم – إلى قوله – من الحق » بيان لأدب الدخول في بيوت النبي ﷺ ، وقوله : « إلا أن يؤذن لكم » استثناء من النهي ، وقوله : « إلى طعام » متعلق بالإذن ، وقوله : « غير ناظرين إناه » أي غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام ويبيّنه قوله : « ولكن إذا دعيتم فادخلوا وإذا طعمتم – أي أكلتم – فانتشروا »، وقوله : « ولا مستأنسين لحديث » عطف على قوله : « غير ناظرين إناه » وهو حال بعد حال ، أي غير ماكثين في حال انتظار الإناء قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام .

وقوله : « إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم » تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم الخروج وقوله : « والله لا يستحيي من الحق » أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تأذيه والتأديب بالأدب اللائق .

قوله تعالى : « وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » ، ضمير « هن » لأزواج النبي ﷺ وسؤالهن متاعاً كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مسّت الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبي ﷺ فكلموهن من وراء حجاب ، وقوله : « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » بيان لمصلحة الحكم .

قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » الخ، أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم في نسائه وفي غير ذلك وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيماً ، وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي .

قوله تعالى : « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً » معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي ﷺ أو يذكر نكاح أزواجه من بعـده .

قوله تعالى : « لا جناح عليهن في آبائهن » إلى آخر الآية ضمير « عليهن » لنساء النبي ﷺ ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم ، قيل : ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهن لأبنائهم .

واستثنى أيضاً نساءهن وإضافة النساء إلى ضميرهن يلوّح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مرّ في قوله تعالى : « أو نسائهن » النور : ٣١ ، واستثنى أيضاً ما ملكت أيمانهن من العبيد والإماء .

وقوله : « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً » فيه تأكيد الحكم وخاصة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في « اتقين الله » .

قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً لم يقيد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة .

وفي ذكر صلاته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن في صلاة المؤمنين له اتباعاً لله سبحانه وملائكته وتأكيداً للنهي الآتي .

وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله .

قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً » من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان فذكره مع الرسول وتشريكه في إيذائه تشريف للرسول وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضاً بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه .

وقد أوعدهم باللعن في الدنيـــا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان ، ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاءً لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال : « لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية » المائدة : ١٣ ، وقال : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » النساء : ٤٦ ، وقال : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » سورة محمد : ٢٣ .

وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها وقد قال تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ .

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم – أي في الآخرة – عذاباً مهيناً ووصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله فقوبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً» تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذاءهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحد والتعزير لا إثم فيه .

وأما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعدّه سبحانه احتمالاً للبهتان والإثم المبين ، والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به ، ووجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذي إنما يؤذيه لسبب عنده يعدّه جرماً له يقول : لِمَ قال كذا ؟ لِمَ فعل كذا ؟ وليس بجرم فيبهته عند الإيذاء بنسبة الجرم اليه مواجهة وليس بجرم .

وكونه إثماً مبيناً لأن الافتراء والبهتان ممـا يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجة إلى ورود النهي عنها شرعاً .

قوله تعالى : « يا أيهـا النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » الخ ، الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميـع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها .

وقوله : « يدنين عليهن من جلابيبهن » أي يتسترن بهـــا فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين .

وقوله : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن

يعرفن أنهن أهل الستر والصلاح فـلا يؤذين أي لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن . وقيل : المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن والأول أقرب .

قوله تعالى : «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينـّك بهم » الخ ، الانتهـاء عن الشيء الامتناع والكفّ عنه ، والإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به وإلقاء الاضطراب بسببه ، والإغراء بالفعل التحريض عليه .

والمعنى : أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقـاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنـّك عليهم ثم لا يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زماناً قليلاً وهو ما بين صدور الأمر وفعلية إجرائه .

قوله تعالى : « ملعونين أينما ثقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلاً » الثقف إدراك الشيء والظفر به ، والجمـلة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أُخذوا وبولغ في قتلهم فعمّهم القتل .

قوله تعالى : « سنـّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالباً أو دائماً .

يقول سبحانه هـذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين ومن يحذو حذوهم من النفي والقتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد وإلقـاء الاضطراب بين الناس وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك ولن تجد لسنة الله تبديلاً فتجري فيكم كما جرت في الامم من قبلكم .

(بحث روائي)

في الفقيه روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: « ثم طلـّقتموهن من قبل أن تمسوهن فمـا لكم عليهن من عدة تعتدّونها فمتـّعوهن وسرّحوهن سراحاً جميلاً » قال : متـّعوهن أي أجملوهن بمـا قدرتم عليه من معروف

فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة وهمّ عظيم وشماتة من أعدائهن فإن الله كريم يستحيي ويحب أهل الحياء إن أكرمكم أشدكم إكراماً لحلائلهم .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام في رجل طلّق امرأته قبل أن يدخل بها . قال : عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً وإن لم يكن فرض لها فليمتّعها على نحو ما يمتع به مثلها من النساء .

أقول : والروايات في هـذا المعنى كثيرة وهي مبنية على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدم في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال: جاء رجل إلى علي ابن الحسين فسأله عن رجل قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق قال : ليس بشيء بدء الله بالنكاح قبل الطلاق فقال: «يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن».

أقول : ورواه في المجمع عن حبيب بن ثابت عنه عليه‌السلام .

وفيه أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن المسوّر بن مخرمة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك .

أقول : وروى مثله عن جابر وعائشة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه‌السلام وبإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله عز وجل : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك » كم أحلّ له من النساء ؟ قال : ما شاء من شيء .

وفيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال: قلت : « لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » ؟ فقال : لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن ينكح ما شاء من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته وأزواجه اللاتي هاجرن معه .

وأحل له أن ينكح من عرض المؤمنين بغير مهر وهي الهبة ولا تحل الهبة إلا لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأما لغير رسول الله فلا يصلح نكاح إلا بمهر وذلك معنى قوله تعالى: « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين في قوله : « وامرأة مؤمنة » هي أم شريك الأزدية التي وهبت نفسها للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

أقول : وروي أنها خولة بنت الحكيم وأنها ليلى بنت الحطيم وأنها ميمونة ، والظاهر أن الواهبة نفسها عدة من النساء .

وفي الكافي مسنداً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله إن المرأة لا تخطب الزوج وأنا امرأة أيّم لا زوج لي منذ دهر ولا ولد فهل لك من حاجة ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني . فقال لها رسول الله خيراً ودعا لها .

ثم قال : يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً فقد نصرني رجالكم ورغبت فيّ نساؤكم . فقالت لها حفصة : ما أقل حياءك وأجرأك وأنهمك للرجال . فقال رسول الله: كفي عنها يا حفصة فإنها خير منك رغبت في رسول الله ولمتها وعبتها.

ثم قال للمرأة: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فيّ وتعرضك لمحبتي وسروري وسيأتيك أمري إن شاء الله ، فأنزل الله عز وجل « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين» قال: فأحلّ الله عز وجل هبة المرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وآله ولا يحلّ ذلك لغيره .

وفي المجمع وقيل: إنها لما وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله قالت عائشة : ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر ؟ فنزلت الآية، فقالت عائشة: ما أرى الله إلا يسارع في هواك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فإنك إن أطعت الله سارع في هواك .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء » قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام : من أرجى لم ينكح ومن آوى فقد نكح .

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : « لا يحل لك النساء من بعد » فقال: إنما عنى به لا يحل لك النساء التي حرّم الله عليك في هذه الآية « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم » إلى آخرها .

ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحل لكم ما لم يحل له لأن أحدكم يستبدل كلما أراد ولكن الأمر ليس كما يقولون إن الله عز وجل أحل لنبيه صلى الله عليه وآله أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرم في هذه الآية في سورة النساء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ابن زيد عن الحسن في قوله: « ولا أن تبدل بهن من أزواج » قال : قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن .

قال علي فأخبرت علي بن الحسين فقال : لو شاء تزوج غيرهن . ولفظ عبد بن حميد فقال : بل كان له أيضاً أن يتزوج غيرهن .

وفي تفسير القمي : وأما قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم » فإنه لما أن تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش وكان يحبها فأولم ودعا أصحابه فكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدثوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان يحب أن يخلو مع زينب فأنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم » وذلك أنهم كانوا يدخلون بلا إذن فقال عز وجل : « إلا أن يؤذن لكم – إلى قوله – من وراء حجاب » .

أقول : وروي تفصيل القصة عن أنس بطرق مختلفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : نزل حجاب رسول الله على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

أقول : ورواها أيضاً ابن سعد عن أنس وفيه أن السنة كانت مبتنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب .

وفيه في قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا » الآية » أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا ؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت الآية .

أقول : وقد وردت بذلك عدة من الروايات وفي بعضها أنه كان يريد عائشة وأم سلمة .

وفي ثواب الأعمال عن أبي المعزا عن أبي الحسن عليه السلام في حديث قال : قلت : ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن؟ قال: صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له ، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة قال : صلّوا على محمد

وآل محمد فإن الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد ودعاءكم وحفظكم إياه إذا قرأتم « إن الله وملائكته يصلون على النبي » فصلوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن كعب ابن عجرة قال : قال رجل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟قال: قل: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أقول: وقد أورد ثماني عشرة حديثاً غير هذه الرواية تدل على تشريك آل النبي معه في الصلاة روتها أصحاب السنن والجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس وطلحة وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وأبو مسعود الأنصاري وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وعلي عليه السلام وأما روايات الشيعة فهي فوق حد الإحصاء .

وفيه أخرج أحمد والترمذي عن الحسن بن علي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلين خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كان الليل وخرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذونهن ويتعرضون لهن فأنزل الله : « يا أيها النبي » الآية .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن على رؤسهن الغربان من أكسية سود يلبسنها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون » نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج في بعض غزواته يقولون : قُتل وأسر فيغتمّ المسلمون لذلك ويشكون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله عز وجل في ذلك « لئن لم ينته – إلى قوله – إلا قليلاً » أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلا قليلاً.

« ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ملعونين » فوجبت عليهم اللعنة بعد اللعنة بقول الله .

* * *

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ـ ٦٣ . إِنَّ اللهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ـ ٦٤ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ـ ٦٥ . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ـ ٦٦ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ـ ٦٧ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ـ ٦٨. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً ـ ٦٩ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ـ ٧٠ . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ـ ٧١ . إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ـ ٧٢ . لِيُعَذِّبَ اللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ـ ٧٣ .

(بيان)

آيات تذكر شأن الساعة وبعض ما يجري على الكفار من عذابها وتأمر المؤمنين بالقول السديد وتعدهم عليه وعداً جميلاً ثم تختتم السورة بذكر الأمانة .

قوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة وإنما كانوا يريدون أن يقدّر لهم زمن وقوعها وأنها قريبة أو بعيدة كما يومي اليه التعبير عنها بالساعة فامر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه وعلى ذلك جرت الحال كلما ذكرت في القرآن

وقوله : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » زيادة في الإبهام وليعلموا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل غيره في عدم العلم بها وليس من الستر الذي أسرّه اليه وستره من الناس.

قوله تعالى : « إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً » لعن الكفار إبعادهم من الرحمة ، والإعداد التهيئة ، والسعير النار التي أُشعلت فالتهبت ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً » الفرق بين الولي والنصير أن الولي يلي بنفسه تمام الأمر والمولى عليه بمعزل ، والنصير يعين المنصور على بعض الأمر وهو إتمامه فالولي يتولى الأمر كله والنصير يتصدى بعضه ، والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » تقلب وجوههم في النار تحولها لحال بعد حال فتصفرّ وتسودّ وتكون كالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مس العذاب كما يفعل باللحم المشوي .

وقولهم : «يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا» كلام منهم على وجه التحسر والتمني.

قوله تعالى : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » السادة جمع سيد وهو – على ما في المجمع – المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم وهو الجمع الأكثر ، والكبراء جمع كبير ولعل المراد به الكبير سناً فالعامة تطيع وتقلد أحد رجلين إما سيد القوم وإما أسنهم .

قوله تعالى : «ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» الضعفان المثلان

وإنما سألوا لهم ضعفي العذاب لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ولذلك أيضاً سألوا لهم اللعن الكبير .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء وليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منهياً عنه بل قوله : « فبرأه الله » يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء المحوج في رفعه إلى التبرئة والتنزيه .

ولعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه‌السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا : ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم وسيوافيك .

وأوجه ما قيل في إيذائهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه إشارة إلى قصة زيد وزينب ، وإن يكن كذلك فمن إيذائه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه .

وقوله : « وكان عند الله وجيهاً » أي ذا جاه ومنزلة والجملة مضافاً إلى اشتمالها على التبرئة إجمالاً تعلل تبرءته تعالى له وللآية وما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » ، السديد من السداد وهو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع وعدم كونه لغواً أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة وغير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به وأن لا يكون لغواً أو يفسد به إصلاح .

قوله تعالى : « يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول ولغو الحديث والكلام الذي يترتب عليه فساد ، وبرسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل وعند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيّعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشيء من ذلك وكفى بالندم توبة .

ويحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئاً من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء : ٣١ ، فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بإذن الله .

وقوله : «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله .

وبذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة ، من واجبات ومحرمات والآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية .

قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً — إلى قوله — غفوراً رحيما» الأمانة — أيا ما كانت — شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده إلى من أودعه ، فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته واستقامته ثم يرده اليه سبحانه كما أودعه .

ويستفاد من قوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات » الخ ، أنه أمر يترتب على حمله النفاق والشرك والإيمان ، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم الى منافق ومشرك ومؤمن .

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتلبس به وعدم التلبس به النفاق والشرك والإيمان .

فهل هو الاعتقاد الحق والشهادة على توحده تعالى ، أو مجموع الاعتقاد والعمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به ، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الامور .

وليست هي الأول أعني التوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما من شيء توحده تعالى وتسبّح بحمده ، وقد قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» أسرى : ٤٤ ، والآية تصرّح بإبائها عنه .

وليست هي الثاني أعني الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الانسان كائناً من كان من مؤمن وغيره له ومن البيّن أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله ولا علم له به، وبهذا يظهر أنها ليست بالثالث وهو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلاً .

وليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به .

وليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق والعلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق والعلم بالتكاليف الدينية نفاق ولا شرك ولا إيمان ولا يستعقب سعادة ولا شقاء وإنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق والتلبس بالعمل .

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح وسلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره وهو الولاية الإلهية .

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية وبعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة اليها والمراد بحملها والإباء عنه وجود استعدادها وصلاحية التلبس بها وعدمه، وهذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة والشدة والقوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها وهو المراد بإبائهن عن حملها وإشفاقهن منها .

لكن الانسان الظلوم الجهول لم يأب ولم يشفق من ثقلها وعظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل وعظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة وعدمه بالخيانة إلى منافق ومشرك ومؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلا مؤمن مطيع .

فان قلت : ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملاً لا يتحمله لثقله وعظم خطره السماوات والأرض والجبال على عظمتها وشدتها وقوتها وهو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله وإنما حمله على قبولها ظلمه وجهله وأجرأه عليه غروره وغفلته عن عواقب الامور فما تحميله الأمانة باستدعائه لها ظلماً وجهلاً إلا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها العقلاء ويشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله وعدم استقامة فكره .

قلت : الظلم والجهل في الإنسان وإن كانا بوجه ملاك اللوم والعتاب فهما بعينهما مصحح حمله الأمانة والولاية الإلهية فإن الظلم والجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل والعلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم والجهل فلا يقال : جبل ظالم أو جاهل لعدم صحة اتصافه بالعدل والعلم وكذلك السماوات والأرض لا يحمل عليها الظلم والجهل لعدم صحة اتصافها بالعدل والعلم بخلاف الانسان .

والأمانة المذكورة في الآية وهي الولاية الإلهية وكمال صفة العبودية إنما تتحصل بالعلم بالله والعمل الصالح الذي هو العدل وإنما يتصف بهذين الوصفين أعني العلم والعدل الموضوع القابل للجهل والظلم فكون الانسان في حد نفسه وبحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحح لحمل الأمانة الإلهية فافهم ذلك .

فمعنى الآيتين[١] يناظر بوجه معنى قوله تعالى: « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » التين : ٦ .

فقوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة » أي الولاية الإلهية والإستكمال بحقائق الدين الحق علماً وعملاً وعرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء .

وقوله :« على السماوات والأرض والجبال » أي هذه المخلوقات العظيمة التي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ ، وقوله : « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » إباؤها عن حملها وإشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحية التلبس وتجافيها عن قبولها وفي التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثقيلة ثقلاً لا يحتملها السماوات والأرض والجبال .

وقوله : « وحملها الإنسان » أي اشتمل على صلاحيتها والتهيؤ للتلبس بها على ضعفه وصغر حجمه « إنه كان ظلوماً جهولاً » أي ظالماً لنفسه جاهلاً بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والهلاك الدائم .

وبمعنى أدق لكون الإنسان خالياً بحسب نفسه عن العدل والعلم قابلاً للتلبس بما

---

(١) فالآية الاولى تحاذي الاولى والثانية تحاذي الثانية والثالثة .

يفاض عليه من ذلك والارتقاء من حضيض الظلم والجهل إلى أوج العدل والعلم .

والظلوم والجهول وصفان من الظلم والجهل معناهما من كان من شأنه الظلم والجهل نظير قولنا : فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازي أو معناهما المبالغة في الظلم والجهل كما ذكر غيره ، والمعنى مستقيم كيفما كانا .

وقوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليلاً ما يتظاهر بالخيانة لها ولعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين والمشركات .

وقوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً » عطف على « يعذب » أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، والتوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولى أمره وهو ولي المؤمنين فيهديه اليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنه غفور رحيم .

فإن قلت : ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف وهو الدين الحق وكون الحمل بمعنى الاستعداد والصلاحية والإباء هو فقده والعرض هو اعتبار القياس فيجري فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية .

قلت : نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية وتحقق صفة العبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة والمطلوبة لنفسها .

والالتفات في قوله : « ليعذب الله » من التكلم إلى الغيبة والإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الامور إلى الله سبحانه لأنه الله .

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات » للاشعار بكمال العناية في حقهم والاهتمام بأمرهم .

ولهم في تفسير الأمانة المذكورة في الآية أقوال مختلفة :

فقيل : المراد بها التكاليف الموجبة طاعتها دخول الجنة ومعصيتها دخول النار والمراد بعرضها على السماوات والأرض والجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها وإباؤهن

عن حملها وإشفاقهن منها عدم استعدادهن لها ، وحمل الإنسان لها استعداده ، والكلام جارٍ مجرى التمثيل .

وقيل : المراد بها العقل الذي هو ملاك التكليف ومناط الثواب والعقاب .

وقيل : هي قول لا إله إلا الله .

وقيل : هي الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها وعدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى ، وكذلك السمع واليد والرجل والفرج واللسان .

وقيل : المراد بها أمانات الناس والوفاء بالعهود .

وقيل: المراد بها معرفة الله بما فيها وهذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب مّا إلى ما قدمنا .

وكذلك اختلف في معنى عرض الأمانة عليها على أقوال :

منها : أن العرض بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالسماوات والأرض والجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة وبيّن لهم أن في خيانتها الإثم العظيم فأبوها وخافوا حملها وعرض على الإنسان فلم يمتنع .

ومنها : أنه بمعناه الحقيقي وذلك أن الله لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها وناراً لمن عصاني فيها فقلن: نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً ولا عقاباً ولما خلق آدم عرض عليه ذلك فاحتمله وكان ظلوماً لنفسه جهولاً بوخامة عاقبته .

ومنها : أن المراد بالعرض المعارضة والمقابلة، ومحصل الكلام أنا قابلنا بهذه الأمانة السماوات والأرض والجبال فكانت هذه أرجح وأثقل منها .

ومنها أن الكلام جار مجرى الفرض والتقدير والمعنى: أنا لو قدرنا أن السماوات والأرض والجبال فهماً ، وعرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها وأشفقن منها لكن الإنسان تحملها .

وبالمراجعة الى ما قدمناه يظهر ما في كل من هذه الأقوال من جهات الضعف والوهن فلا تغفل .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه‌السلام في حديث قال : ولا يلعن الله مؤمناً قال الله عز وجل : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً » .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه‌السلام أن بني إسرائيل كانوا يقولون : ليس لموسى ما للرجال، وكان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب الى موضع لا يراه فيه أحد فكان يوماً يغتسل على شط نهر وقد وضع ثيابه على صخرة فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل اليه فعلموا أن ليس كما قالوا فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى » الآية .

وفي المجمع : واختلفوا فيما أوذي به موسى على أقوال :

أحدها : أن موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته فأمر الله الملائكة فحملته حتى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قد مات وبرأه الله من ذلك عن علي وابن عباس .

وثانيها : أن موسى كان حيياً ستيراً يغتسل وحده فقالوا : ما يستتر منا إلا لعيب في جلده إما برص وإما أدرة فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فمر الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عرياناً كأحسن الرجال خلقاً فبرأه الله مما قالوا . رواه أبو هريرة مرفوعاً .

أقول : وروى الرواية الاولى في الدر المنثور أيضاً عن ابن مسعود والثانية أيضاً عن أنس وابن عباس .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : ما جلس رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على هذا المنبر قط إلا تلى هـذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » .

أقول : وروى ما يقرب منه أيضاً عن عائشة وأبي موسى الأشعري وعروة .

وفي نهج البلاغة : ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنها عرضت على السماوات المبنية والأرض المدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة ، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبدالله عليه‌السلام في قول الله عز وجل : « إنا عرضنا الأمانة » الآية ، قال : هي ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام .

أقول : المراد بولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام ما كان هو أول فاتح لبابه من هذه الامة وهو كون الإنسان ، بحيث يتولى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص العبودية له دون الولاية بمعنى المحبة أو بمعنى الإمامة وإن كان ظاهر بعض الروايات ذلك بنوع من الجري والانطباق .

(سورة سبأ مكية ، وهي أربع وخمسون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ
وَمٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ — ١ .
يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا
يَعْرُجُ فِيهٰا وَهُوَ الرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ — ٢ . وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَأْتِينَا
السّٰاعَةُ قُلْ بَلىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ
فِي السَّمٰوٰاتِ وَلاٰ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلاٰ أَكْبَرُ إِلاّٰ فِي
كِتٰابٍ مُبِينٍ — ٣ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ — ٤ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ
أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ — ٥ . وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ
الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ — ٦ . وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ
إِذٰا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ — ٧ . أَفْتَرىٰ عَلىَ اللهِ
كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذٰابِ وَالضَّلاٰلِ

ٱلْبَعِيدِ ــ ٨ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ
وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ــ ٩ .

(بيان)

تتكلم السورة حول الاصول الثلاثة أعني الوحدانية والنبوة والبعث فتذكرها وتذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها والشبه التي ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة وتهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثم تعود اليه عودة بعد عودة إلى مختتمه .

وهي مكية بشهادة مقاصد آياتها على ذلك .

قوله تعالى : « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » الخ ، المطلوب بيان البعث والجزاء بياناً لا يعتريه شك بالإشارة إلى الحجة التي ينقطع بها الخصم والأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالإعادة وجزاء ، وثانيهما كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علماً لا يطرأ عليه عزوب وزوال حتى يعيد كل من أراد ويجزيه على ما علم من أعماله خيراً أو شراً .

وقد أشير إلى أول الأمرين في الآية الاولى التي نحن فيها وإلى الثانية في الآية الثانية وبذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة والرابعة .

فقوله : « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء وأراد .

وقوله : « وله الحمد في الآخرة » تخصيص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الاولى تتضمن الحمد في الدنيا فإن النظام المشهود في السماوات والأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » ابراهيم : ٤٨ .

وقوله : « وهو الحكيم الخبير » ختم الآية بالإسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكمته عقّب الدنيا بالآخرة وإلا لغت الخلقة وبطلت ولم يتميز المحسن من المسيىء لما قال : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ــ إلى أن قال ــ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحداً ويجزي كل نفس بما كسبت .

والخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخصّ من العليم .

قوله تعالى: «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكأن العلم بالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك وفعله واختتام الآية بقوله : « وهو الرحيم الغفور » كأن فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة ومغفرة ستصيب قوماً بإيمانهم .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب » الخ ، يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكل شيء ولا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبي ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله : « قل بلى وربي لتأتينكم » أي الساعة .

ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء ومنها أبدان الأموات بعضها ببعض وتبدّل صورها تبدلاً بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله : « عالم الغيب لا يعزب » أي لا يفوت « عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » .

وقوله : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » تعميم لعلمه لكل شيء وفيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتاً في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل وإن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام وغيرها .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » اللام في « ليجزي » للتعليل وهو متعلق بقوله : «لتأتينكم» وفي قوله : « لهم مغفرة ورزق كريم » نوع محاذاة لقوله السابق : « وهو الرحيم الغفور » .

وفي الآية بيان أحد السببين لقيام الساعة وهو أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها والسبب الاخير ما يشير اليه قوله: « والذين سعوا في آياتنا معاجزين » الخ .

قوله تعالى : « والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » السعي الجد في المشي والمعاجزة المبالغة في الإعجاز وقيل : المسابقة والكلام مبني على الاستعارة بالكناية كأن الآيات مسافة يسيرون فيها سيراً حثيثاً ليعجزوا الله ويسبقوه والرجز كالرجس القذر ولعل المراد به العمل السيىء فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذاباً أليماً عليهم أو سبباً لعذابهم ، وقيل : الرجز هو سيىء العذاب .

وفي الآية تعريض للكفار الذين يصرّون على إنكار البعث .

قوله تعالى : « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق » الموصول الأول فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأول والحق مفعوله الثاني والمراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله وبآياته ، وبالذي أنزل اليه القرآن النازل اليه ﷺ .

وجملة « ويرى » الخ ، استئناف متعرض لقوله السابق : « وقال الذين كفروا » أو حال من فاعل كفروا ، والمعنى : أولئك يقولون : لا تأتينا الساعة وينكرونه جهلا ، والعلماء بالله وآياته يرون أن هذا القرآن النازل اليك المخبر بأن الساعة آتية هو الحق .

وقوله : «ويهدي إلى صراط العزيز الحميد» معطوف على الحق أي ويرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجميل وهو الله سبحانه ، وفي التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله : « الذين سعوا في آياتنا معاجزين » .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل

ممزق إنكم لفي خلق جديد » كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرّفون فيه النبي ﷺ بعضهم لبعض بالقول بالمعاد .

والتمزيق التقطيع والتفريق ، وكونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانياً بعد عدمهم ، وقوله : « إذا مزقتم » ظرف لقوله : « إنكم لفي خلق جديد » .

والمعنى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي ﷺ لإنذاره إياهم بالبعث والجزاء : هل ندلكم على رجل والمراد بـه النبي ﷺ ينبئكم ويخبركم أنكم ستستقرون في خلق جديد ويتجدد لكم الوجود إذا فرّقت أبدانكم كل التفريق وقطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء .

قوله تعالى : « أفترى على الله كذباً أم به جنة » الخ ، الاستفهام للتعجيب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا لتلبيس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلا فكيف يلتبس فيه الأمر على عاقل ، ولهذا رددوا الأمر بين الافتراء والجنة في الاستفهام والمعنى : أهو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم .

وقوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » رد لقولهم وإضراب عن الترديد الذي أتوا به مستفهمين ، ومحصله أن ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون في عذاب سيظهر لهم وقـد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق ويذعنوا به .

ووضع الموصول موضع الضمير في قوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة » للدلالة على أن علة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة .

قوله تعالى : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » الخ ، وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله : « مـا بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم ومن خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلهم وأرضاً تقلهم لا مفر لهم منهما .

وقوله : « إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » أي إذ أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فمالهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل ؟

وقوله : « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » ، أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونهما مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب ، راجع إلى ربه بالطاعة ، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الامور ولا يجترؤن على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة الى ربهم ورجوعاً الى طاعته .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ـــ ١٠ . أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ـــ ١١ . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ـــ ١٢ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ـــ ١٣ . فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ

ٱلْمُهِينِ ــ ١٤ . لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ــ ١٥ .
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ
أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ــ ١٦ . ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا
كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ ــ ١٧ . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى
ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ
وَأَيَّاماً آمِنِينَ ــ ١٨ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ــ ١٩ . وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٢٠ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَنْ يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيظٌ ــ ٢١ .

(بيان)

تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود وسليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على داود بتسخير الجبال والطير معه وتليين الحديد له ، وسخّر لسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر وسخّر الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وغيرها وأمرهما بالعمل الصالح شكراً وكانا عبدين شكورين .

ثم إلى قصة سبأ حيث أنعم عليهم بجنتين عن اليمين والشمال ليعيشوا فيها عيشاً

رغداً فكفروا بالنعمة وأعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم وبدّل جنتيهم جنتين دون ذلك وقد كان عمّر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث ومزّقهم كل ممزق، كل ذلك لكفرهم النعمة وإعراضهم عن الشكر ولا يجازي إلا الكفور .

وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث أن الله هو المدبّر لامور عباده وهم مغمورون في أنواع نعمه وللمنعم على المنعم عليه الشكر على نعمته وعليه ان يميز بين الشاكر لنعمته والكافر بها وإذ لا ميز في هذه النشأة فهناك نشأة اخرى يتميز فيها الفريقان فالبعث لا مفر عنه .

قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد » الفضل العطية والتأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب » ص : ١٩ . والطير معطوف على محل الجبال ومنه يظهر فساد قول بعضهم : أن الأوب بمعنى السير وأن الجبال كانت تسير معه حيثما سار .

وقوله : « يا جبال أوبي معه والطير » بيان للفضل الذي أُوتي داود وقد وضع فيه الخطاب الذي خوطبت به الجبال والطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذي هو العطية وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبّب والمعنى : سخّرنا الجبال له تؤوب معه والطير ، وهذا هو المتحصل من تسخير الجبال والطير له كما يشير اليه قوله : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب » ص: ١٩.

وقوله : « وألنّا له الحديد » أي وجعلناه ليناً له على ما به من الصلابة .

قوله تعالى : « أن أعمل سابغات وقدر في السرد » الخ ، السابغات جمع سابغة وهي الدرع الواسعة ، والسرد نسج الدرع ، وتقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أي اعمل دروعاً واسعة واجعلها متناسبة الحلق ، وجملة « أن اعمل » الخ ، نوع تفسير لإلانة الحديد له .

وقوله : « واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل وعدّ النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل :

وقلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح .

قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » الخ ، أي وسخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح — وهو أول النهار إلى الظهر — مسير شهر ورواح تلك الريح — وهو من الظهر إلى آخر النهار — مسير شهر أي إنها تسير في يوم مسير شهرين .

وقوله : « وأسلنا له عين القطر » الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان والقطر النحاس أي وأذبنا له القطر فسالت كالعين الجارية .

قوله : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » ، أي وجمع من الجن — بدليل قوله بعد : « يعملون له » — يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له « ومن يزغ » أي ينحرف « عن أمرنا » ولم يطع سليمان « نذقه من عذاب السعير » ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة ، وفي لفظ الآية دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم .

قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » الخ ، المحاريب جمع محراب وهو مكان إقامة الصلاة والعبادة ، والتماثيل جمع تمثال وهي الصورة المجسمة من الشيء والجفان جمع جفنة وهي صحفة الطعام ، والجوابي جمع جابية الحوض الذي يجبى أي يجمع فيه الماء ، والقدور جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام ، والراسيات الثابتات والمراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها لعظمها .

وقوله : « اعملوا آل داود شكراً » خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن يعملوا ويعبدوا الله شكراً له ، وقوله : « وقليل من عبادي الشكور » أي الشاكر لله شكراً بعد شكر والجملة إما في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا المقام قليلون وهم الأوحديون من الناس ، وإما في مقام التعليل كأنه قيل : إنهم قليل فكثروا عدتهم .

قوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » المراد بدابة الأرض الأرضة على ما وردت به الروايات والمنسأة العصا وقوله :

« فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مـا لبثوا في العذاب المهين » الخرور السقوط على الأرض .

ويستفاد من السياق أنه عليه السلام لما قبض كان متكئاً على عصاه فبقي على تلك الحال قائماً متكئاً على عصاه زماناً لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عز وجل أرضه فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموتـه وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان – وهو من حين قبضه الى خروره – في العذاب المهين المذلّ لهم .

قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال » الخ ، سبأ العرب العاربة باليمن سمّوا – كما قيل – باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقوله : « عن يمين وشمال » أي عن يمين مسكنهم وشماله .

وقوله : « كلوا من رزق ربكم » أمر بالأكل من جنتين وهو كناية عن رزقهم منهما ، ثم بالشكر له على نعمته ورزقه ، وقوله : « بلدة طيبة ورب غفور » أي بلدة ملائمة صالحة للمقام ورب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم .

قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل » العرم المسنّاة التي تحبس الماء ، وقيل : المطر الشديد وقيل غير ذلك ، والاكل بضمتين كل ثمرة مأكولة ، والخمط – على ما قيل – كل نبت أخـذ طعماً من المرارة ، والأثل الطرفاء وقيل : شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له ، والسدر معروف، والأثل وشيء معطوفان على « أُكل » لا على خمط.

والمعنى : فأعرضوا أي قوم سبأ عن الشكر الذي أُمروا به فجازيناهم وأرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنتيهم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ثمرة مرة وذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر .

قوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » « ذلك » إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل وتبديل الجنتين ومحله النصب مفعولا ثانياً لجزيناهم والفرق بين الجزاء والمجازاة –كما قيل أن المجازاة لا تستعمل إلا في الشر والجزاء أعم.

والمعنى : جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر – أو في مقابلة ذلك – ولا نجازي بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله .

قوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة » الخ ، ضمير « بينهم » لسبأ والكلام مسوق لبيان تتمة قصتهم المطلوب ذكرها وهو عطف على قوله : « كان لسبأ » والمراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية ، والمراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض .

وقوله : « وقدّرنا فيها السير » أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدّرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليها كالنسبة بين ما يليها وما يليه ، وقوله : « سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين » على تقدير القول أي وقلنا : سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي وإن شئتم أياماً ، والمراد قرّرنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاؤا من غير خوف وقلق .

قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الخ ، أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق وسهولة السير ورغد العيش فملوا ذلك وسئموه وقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل ونقطع المفاوز والبوادي وهذا بغي منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى .

وبالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر ، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم وفرّق جمعهم وشتّت شملهم .

فقوله : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » اقتراح ضمني لتخريب بلادهم ، وقوله : « وظلموا أنفسهم » أي بالمعاصي .

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » أي أزلنا أعيانهم وآثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا في وهم المتوهم وخيال المتخيل وفرّقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن

مجتمعان إلا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوة وشوكة حتى ضرب بهم المثل « تفرقوا أيادي سبأ » .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أي في هذا الذي ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره في جنب الله وكثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه وأن وراءه يوماً يبعث فيه ويجزى بعمله .

قوله تعالى : « ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه : « لاغوينهم ولاضلنّهم » « ولا تجد أكثرهم شاكرين » ، وقوله : « فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » بيان لتصديقه ظنه .

ومنه يظهر أن ضمير الجمع في « عليهم » ههنا وكذا في الآية التالية لعامة الناس لا لسبأ خاصة وإن كانت الآية منطبقة عليهم .

قوله تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه ، قال تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، وقال حاكياً عن إبليس يوم القيامة : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ .

ومنشأ اتباعهم له ريب وشك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لإبليس ، فإذنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به ولا يرفع ذلك مسؤليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم .

فقوله : « وما كان له عليهم من سلطان » نفي لكل سلطان، وقوله: « إلا لنعلم» أي لنميز « من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » استثناء لسلطانه عليهم من طريق

اتباعهم له عن اختيار منهم، وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختياري .

وتقييد الإيمان والشك بالآخرة في الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية والداعي إلى الطاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى: «إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» ص: ٢٦.

وقوله : « وربك على كل شيء حفيظ » أي عالم علماً لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر والمعصية .

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام قال : إنه خرج يقرء الزبور وكان إذا قرء الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه .

وفي تفسير القمي قوله عز وجل : « أن اعمل سابغات » قال : الدروع « وقدّر في السرد » قال : المسامير التي في الحلقة ، وقوله عز وجل : « ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر » قال : كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر وبالعشيّ مسيرة شهر .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن الحصين وعن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العباس قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » قال : ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنها تماثيل الشجر وشبهه .

وفيه عن بعض أصحابنا مرفوعاً عن هشام بن الحكم قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام ثم مدح الله القلة فقال : « وقليل من عبادي الشكور » .

أقول : وقد وقع هذا المعنى في عدة روايات وهو ينطبق على أحد المعنيين المتقدمين في ذيل الآية .

وفي العلل بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمر سليمان بن داود الجن فصنعوا له قبة من قوارير فبينا هو متكيء على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف ينظرون

اليه إذ حانت منه التفاتة فإذا رجل معه في القبة قال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت. فقبضه وهو قائم متكىء على عصاه في القبة والجن ينظرون اليه .

قال : فمكثوا سنة يدأبون له حتى بعث الله عز وجل الأرضة فأكلت منسأته وهي العصا ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مـــا لبثوا في العذاب المهين الحديث .

أقول : وبقاؤه عليه‌السلام على حال القيام متكئاً على عصاه سنة وارد في عدة من روايات الشيعة وأهل السنة .

وفي المجمع في الحديث عن فروة بن مُسيك قال : سألت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن سبأ أرجل هو أم امرأة ؟ فقـــال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاؤم أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأنمار وحمير فقال رجل من القوم : ما أنمار ؟ قال : الذين منهم خثعم وبجيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع والسنن عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمراد بالتيامن والتشاؤم السكونة باليمن والشام .

وفي الكافي بإسناده عن سدير قال : سأل رجل أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل :« قالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الآية فقال : هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا نعم الله عز وجل وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمه والله لا يغير مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنانهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ثم قال : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » .

أقول : وورد في عدة من الروايات أن القرى التي بارك الله فيها هم أهل بيت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم وغيرهم ، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء .

* * *

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ـ ٢٢. وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ـ ٢٣. قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ـ ٢٤. قُلْ لاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ـ ٢٥. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ـ ٢٦. قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ـ ٢٧. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ـ ٢٨. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ـ ٢٩. قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ـ ٣٠.

(بيان)

آيات مقررة للتوحيد واحتجاجات حوله.

قوله تعالى: « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة » الى

آخر الآية ،أمر النبي ﷺ أن يحتج على إبطال ألوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء ، فقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله » أي ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من دون الله – فمفعولا «زعمتم» محذوفان لدلالة السياق عليهما – ودعاؤهم هو مسألتهم شيئاً من الحوائج .

وقوله : « لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » واقـــع موقع الجواب كأنه قيل: فماذا يكون إذا دعوهم ؟ فقيل : لا يستجيبون لهم بشي لأنهم « لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » ولو ملكوا لاستجابوا ، ولا تتم الربوبية والالوهية إلا بأن يملك الرب والإله شيئاً ممـــا يحتاج اليه الانسان فيملكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكراً له فيعبد،أما إذا لم يملك شيئاً فلا يكون رباً ولا إلهاً .

وقوله: «وما لهم فيهما من شرك» كان الملك المنفي في الجملة السابقة «لا يملكون» الخ ، الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعاً أو مفروزاً ، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعاً بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها ، وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة .

وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وألوهيتهم .

وقوله : « وما له منهم من ظهير » أي ليس لله سبحانه منهم كلا أو بعضاً من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكاً فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة اليه وإذ ليس فليس .

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات وما في الأرض مطلقاً وملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيراً لله سبحانه .

قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله : «**هؤلاء شفعاؤنا عند الله**» يونس: ١٨،

وليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم وإصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم .

وإذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك وهو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه .

وقوله : « إلا لمن أذن له » يحتمل أن يكون اللام في « لمن » لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة ، والمعنى : لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له ، والمعنى : لا تنفع الشفاعة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم ، قال في الكشاف : وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه . انتهى .

وهو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي وإجرائه ، قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧، وقال : « جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة » فاطر : ١ ، والوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

فالملائكة جميعاً شفعاء لكن لا في كل أمر ولكل أحد بل في أمر أذن الله فيه ولمن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء ، فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ ، لا في معنى قوله : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

قوله تعالى : « حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » التفزيع إزالة الفزع وكشفه وضمائر الجمع – على ما يعطيه السياق – للشفعاء وهم الملائكة .

ولازم قوله : « حتى إذا فزّع عن قلوبهم » – وهو غاية – أن يكون هناك أمر مغيّى بها وهو كون قلوبهم في فزع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه ، فالآية في معنى قوله تعالى : « ولله يسجد – إلى أن قال – والملائكة وهم

لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » النحل: ٥٠ ، فالفزع هو التأثر والإنقباض من الخوف وهو المراد بسجدتهم تذللا من خوف ربهم من فوقهم .

وبذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزّع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث أنهم أسباب وشفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية ووقوعه على ما صدر وكما أريد ، وكشف هذا التذلل هو تلقّيهم الأمر الإلهي واشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم وطاعتهم لله فيما أمرهم به وأنـه لا واسطة بين الله سبحانه وبين الفعل إلا أمره فافهم ذلك .

وإنمـا نسب الفزع والتفزيـع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم وعن كل شيء إلا ربهم وهم على هـذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفزع عنقلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل ولا تخلّف فليس الأمر بحيث يعطّل أو يتأخر عن الوقوع ، قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، فالمستفاد من الآية نظراً إلى هـذا المعنى أنهم في فزع حتى إذا أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهي .

وقوله: « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضاً عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفزع عن قلوب السائلين .

ويتبين منه أن كشف الفزع ونزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسؤل عالماً بما سئل عنه قبل السائل .

فلهم مراتب مختلفة ومقامات متفاوتة بعضها فوقبعض تتلقى الدانية منها الامر الإلهي من العاليـة من غير تخلّف ولا مهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي ، كما يستفاد ذلك أيضاً بالتدبر في قوله تعالى : « وما منّا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ ، وقوله في وصف الروح الأمين : « ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوير : ٢١ .

فبينهم مطاع ومطيع ولا طاعة مع ذلك إلا لله سبحانه لأن المطاع منهم لا شأن له إلا إيصال ما وصل اليه من الأمر الإلهي إلى مطيعه الذي دونه ، ويمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق في قوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » أي قـال

القول الثابت الذي لا سبيل للبطلان والتبدل اليه .

وما ألطف ختم الآية بقوله تعالى : « وهو العلي الكبير » أي هو العلي الذي دونه كل شيء والكبير الذي يصغر عنده كل شيء فليس للملائكة المكرمين إلا تلقي قوله الحق وامتثاله وطاعته كما يريد .

فقد تحصّل من الآية الكريمة أن الملائكة فزعون في أنفسهم متذللون في ذواتهم ذاهلون عن كل شيء إلا عن ربهم محدقون إلى ساحة العظمة والكبرياء في انتظار صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع ، بصدور الأمر ونزوله وهم مع ذلك طوائف مختلفة ذووا مقامات متفاوتة علواً ودنواً يتوسط كل عال في إيصال الأمر النازل إلى من هو دونه .

فهم مع كونهم شفعاء وأسباباً متوسطة لا يشفعون ولا يتوسطون في حدوث حادث من حوادث الخلق والتدبير إلا بإذن خاص من ربهم في حدوثه فيتحملون الأمر النازل اليهم حتى يحققوه في الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم في شيء أو يستبدوا برأي ، ومن كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون رباً مستقلاً في أمره مفوضاً اليه التدبير يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ؟

وفي الآية أقوال مختلفة أُخر :

منها : أن ضمير « قلوبهم » و « قالوا » الثاني للمشركين دون الملائكة وضمير « قالوا » الأول للملائكة والمعنى : حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم : ماذا قال ربكم ؟ قالت المشركون لهم : الحق فيعترفون بما أنكروه في الدنيا .

ومنها : أن ضمير « قلوبهم » للملائكة والمراد أن الملائكة الموكلين بالأعمال إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء ولهم زجل وصوت عظيم خشيت الملائكة أنها الساعة فيفزعون ويخرون سجداً لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع وعلموا أنه ليس الأمر كذلك فسألوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق .

ومنها : أن الله لما بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد فترة بينه وبين عيسى عليهما السلام لم ينزل فيها شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلما نزل ظنت الملائكة أنه

نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبريل يمر بكل سماء ويكشف الفزع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رؤسهم وقال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الحق أي الوحي .

ومنها: أن الضمير للملائكة والمراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي ويصعقون ويخرّون سجداً للآية العظيمة فإذا فزع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أُوحي اليه ماذا قال ربك؟أو سأل بعضهم بعضاً ماذا قال ربكم ؟ فيعلمون أن الأمرفي غيرهم .

وأنت بعد التدبر في الآية الكريمة والتأمل فيما قدمناه تعلم وجه الضعف في هـذه الأقوال وأن شيئاً منها على تقدير صحته في نفسه لا يصلح تفسيراً لها .

قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » الخ ، احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملاك العمدة في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك .

فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم من يرزقهم من السماوات والأرض ؟ والجواب عنـه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه ولا خالق ــ حتى عند المشركين ــ إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم وإن أذعنت به قلوبهم ولذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال : « قل الله » .

وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، تتمة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة ووضوح الحق في مسألة الالوهية مبني على سلوك طريق الإنصاف ، ومفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفياً وإثباتاً ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإما أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى مـــا أُلقي اليكم من الحجة وميزوا المهدي من الضال والحق من المبطل .

واختلاف التعبير في قوليه : « على هدى » و « في ضلال » بلفظة على وفي ــ كما قيل ــ للإشارة إلى أن المهتدي كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل وغايتهـا التي فيها سعادته ، والضالّ منغمر في ظلمة لا يدري أين يضع قدمه وإلى أين يسير

وماذا يراد به ؟

قوله تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » أي إن العمل وخاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله ولا يلحق وباله إلا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسؤلون عنه ولا نسأل عما تعملون بل أنتم المسؤلون .

وهذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع والفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيراً وشراً كان من الواجب أن يفتح بينهما ويتميز كل من الاخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادةأو شقاء والذي يفتح ويميز هو الرب تعالى.

وفي التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام وفي ناحية المشركين بقوله : « تعملون » ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة .

قوله تعالى : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتّاح العليم » لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر وهو الرب أمر نبيه ﷺ أن يذكرهم أن الذي يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله ، فهو رب هؤلاء وأولئك فإنه هو الفتّاح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق والتدبير فيتميز بذلك الشيء من الشيء كما قال : « أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ ، وهو العليم بكل شيء .

فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أولاً ثم انحصار التمييز والجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه ويبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب .

والفتاح من أسماء الله الحسنى والفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيئين ليتميّز كل منهما عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله .

قوله تعالى : « قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم » أمر آخر للنبي ﷺ أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ؟ وهذا معنى قوله : « أروني الذين ألحقتم به شركاء » أي ألحقتموهم به شركاء له .

ثم ردع بنفسه وقال : كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة والعلم والقدرة وإما أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم بجعل الأصنام تماثيل مشيرة اليهم وهم وإن لم يخلوا عن حياة وعلم وقدرة إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض اليهم ؟ فالوجود الواجبي بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله .

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ما له من الشؤون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية وهذا ينافي حكمته تعالى .

وقد أشير الى هذه الحجة بقوله : « بل هو الله العزيز الحكيم » فإن عزته تعالى — وهو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عاد لكونه لا يحد بحد — تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبية والالوهية المنتهيتين الى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك .

وقد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها .

قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » قال الراغب في المفردات : الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفه ، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره ، وقوله: وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي والهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية وعلامة ونسابة . انتهى .

ويؤيد هذا المعنى توصيفه ﷺ بالبشير والنذير ، فقوله : « بشيراً ونذيراً » حالان يبينان صفته لقوله : « كافة للناس » .

وربما قيل : إن التقدير وما أرسلناك إلا إرسالة كافة للناس ولا يخلو من تكلف وبعد .

وأما كون كافة بمعنى جميعاً وحالاً من الناس، والمعنى : وما أرسلناك إلا للناس جميعاً فهم يمنعون عن تقدم الحال على صاحبه المجرور .

واعلم أن منطوق الآية وإن كان راجعاً إلى النبوة وفيها انتقال من الكلام في التوحيد الى الكلام في النبوة على حد الآيات التالية ، لكن في مدلولها حجة أخرى على التوحيد وذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم الى غايات وجودهم فعموم رسالته ﷺ وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاءهم رسوله ولم يعم رسالة النبي ﷺ أو عمتهم واحتاجوا معه الى غيره ، وهذا معنى قول علي عليه السلام – على ما روي – لو كان لربك شريك لأتتك رسله .

ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه أمس بجهل الناس من كونه ﷺ رسولا كافاً لهم عن المعاصي بشيراً ونذيراً .

فمفاد الآية على هذا : لا يمكنهم أن يروك شريكاً له والحال أنا لم نرسلك إلا كافاً لجميع الناس بشيراً ونذيراً ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم وهم عباد لإله آخر والله أعلم .

قوله تعالى: « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » سؤال عن وقت الجمع والفتح وهو البعث فالآية متصلة بقوله السابق : « قل يجمع بيننا ربنا » الآية ، وهذا أيضاً من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله : « وما أرسلناك إلا كافة » وإلا كانت هذه الآية والتي بعدها متخللتين بين قوله : « وما أرسلناك » الآية ، والآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة .

قوله تعالى : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضي محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعاً ولا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعد به وعداً لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه .

وما قيل : إن المراد به يوم الموت غير سديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده وهو يوم الجمع والفتح والجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: « حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » وذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحياً فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بعث الله جبرئيل الى محمد سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات .

فلما فرغ عن الوحي انحدر جبرئيل كلما مرّ بأهل سماء فزّع عن قلوبهم يقول : كشف عن قلوبهم ، فقال بعض لبعض: ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير.

أقول : وروي مثله من طرق أهل السنة موصولا وموقوفاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومدلول الرواية على أي حال مصداق من مصاديق الآية ولا تصلح لتفسيرها البتة .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس وفي المجمع عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي : بعثت الى الناس كافة الأحمر والأسود وإنما كان النبي يبعث الى قومه ، ونصرت بالرعب يرعب مني عدوي على مسيرة شهر ، وأطعمت المغنم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فادّخرتها لامتي الى يوم القيامة وهي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئاً .

أقول : وروى أيضاً هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

والرواية معارضة لما ورد مستفيضاً أن نوحاً كان مبعوثاً الى الناس كافة وذكر في بعضها إبراهيم عليه السلام وفي بعضها أن أولي العزم كلهم مبعوثون الى الدنيا كافة ، وتخالف أيضاً عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات وقد قال تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ ، وقد شهد القرآن بأن المسيح عليه السلام من الشهداء قال تعالى : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » النساء : ١٥٩ .

والروايات من طرق العامة والخاصة كثيرة في عموم رسالته للناس كافة وظاهر كثير منها أخذ « كافة » في قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » حالاً من « للناس » قدم عليه ويمنعه البصريون من النحاة ويجوّزه الكوفيون .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ـ ٣١ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ـ ٣٢ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ـ ٣٣ . وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ـ ٣٤ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ـ ٣٥ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٣٦ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ

لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ــ ٣٧ . وَالَّذِينَ
يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ــ ٣٨ . قُلْ
إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ــ ٣٩ . وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً
ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ــ ٤٠ . قَالُوا
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ
مُؤْمِنُونَ ــ ٤١ . فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا
وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ــ ٤٢.
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ــ ٤٣ . وَمَا
آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ــ ٤٤.
وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ــ ٤٥ . قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ
مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ــ ٤٦ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ
لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ــ ٤٧ . قُلْ إِنَّ

رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ – ٤٨ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ
الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ – ٤٩ . قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ
اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ – ٥٠ . وَلَوْ تَرَى إِذْ
فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ – ٥١ . وَقَالُوا آمَنَّا
بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ – ٥٢ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ – ٥٣ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ
مُرِيبٍ – ٥٤ .

(بيان)

فصل آخر من آيات السورة تتكلم في أمر النبوة وما يرجع اليها وما يقول المشركون فيها وتتخلص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة ، وقد اتصلت بقوله في الفصل السابق : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » الآية ، وقد عرفت أن الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة وتجعلها دليلاً على التوحيد .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه » المراد بالذين كفروا المشركون والمراد بالذي بين يديه الكتب السماوية من التوراة والإنجيل وذلك أن المشركين وهم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة ويتبعها الكتاب السماوي .

وقول بعضهم : إن المراد بالذي بين يديه هو أمر الآخرة مما لا دليل يساعده ، وقد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة والإنجيل بالذي بين يديه ، ومن الخطأ قول بعضهم : إن المراد بالذين كفروا هم اليهود .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ ، الظاهر أن اللام في « الظالمون » للعهد ، وهـــذه الآية والآيتان بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر — وأساسه ضلال أئمة الكفر وإضلالهم تابعيهم - سيلحق بهم وسيندمون عليه ولن ينفعهم الندم .

فقوله : « ولو ترى » خطاب للنبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب « إذ الظالمون » وهم الكافرون بكتب الله ورسله ، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر « موقوفون عند ربهم » للحساب والجزاء يوم القيامة « يرجع بعضهم إلى بعض القول » أي يتحاورون ويتراجعون في الكلام متخاصمين « يقول الذين استضعفوا » بيان لرجوع بعضهم إلى بعض في القول والمستضعفون الأتبـاع الذين استضعفتهم المتبوعون « للذين استكبروا » وهم الأئمة القـادة « لولا أنتم لكنا مؤمنين » يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان .

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا » جواباً عن قولهم ورداً لما اتهموهم به من الإجبار والإكراه « أنحن صددناكم » الاستفهام للانكار أي أنحن صرفنـاكم « عن الهدى بعـــد إذ جاءكم » فبلوغه اليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أننا لم نحل بينه وبينكم وكنتم مختـــارين في الإيمان به والكفر « بل كنتم مجرمين » متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غـــير أن نجبركم عليه فكفركم منكم ونحن برءآء منه .

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا » رداً لقولهم ودعواهم البراءة « بل مكر الليل والنهار » أي مكركم بالليل والنهار حملنا على الكفر « إذ كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً » وأمثـالاً من الآلهة أي إنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل والنهار وتخطّـون الخطط لتستضعفونا وتتأمّروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا ونحن مضطرّون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر والشرك.

« وأسرّوا » وأخفوا « الندامة لما رأوا العـــذاب » وشاهدوا أن لا مناص ، وإخفاؤهم الندامة يوم القيـامة — وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء — نظير كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور

ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامة في الدنيا خوفاً من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسرّوا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم .

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: « وجعلنا الأغلال » السلاسل « في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» فصارت أعمالهم أغلالاً في أعناقهم تحبسهم في العذاب .

قوله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التنعيم ، وفيه إشعار بأن الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحق كما تفيده الآية اللاحقة .

قوله تعالى : « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ضمير الجمع للمترفين ، ومن شأن الإتراف والترفّه والتقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة وينسى ما وراءه .

ولذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً» فلا سعادة إلا فيها ولا شقوة معها « وما نحن بمعذبين » في آخرة ، ولم ينفوا العذاب إلا للغفلة والانصراف عما وراء كثرة الأموال والأولاد فإذ كانت هي السعادة والفلاح فحسب فالعذاب في فقدها ولا عذاب معها .

وها هنا وجه آخر وهو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال والولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليهم ما داموا ، والمعنى : أنّا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذّبين لو كان هناك عذاب .

فتكون الآية في معنى قوله : « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لي وما أظنُّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس

لا يعلمون » الآية وما يتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: «نحن أكثر أموالا» الخ، وقد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقاً بيد الله على مـــا تستدعيه الحكمة والمصلحة وهيأ من الأسباب لا بمشية الإنسان ولا لكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل، وربما بسط على واحد ثم قـدر له. فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة.

وهذا معنى قوله: « قل إن ربي » نسبة إلى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله رباً لأنفسهم والرزق من شؤن الربوبية « يبسط » أي يوسع « الرزق لمن يشاء » من عباده بحسب الحكمة والمصلحة « ويقدر » أي يضيق « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فينسبونه ما لم يؤتوه الى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أوتوه نسبوه الى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلاً على الحمق.

قوله تعالى: « ومـا أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى » الى آخر الآيتين هذا هو الجواب الثاني عن قولهم: « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» ومحصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قرباً وزلفى من الله حتى ينتفي معهـا العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

وهذا معنى قوله: « وما أموالكم ولا أولادكم » التي تعتمدون عليها في السعادة وانتفاء عذاب الله « بالتي » أي بالجماعة التي « تقربكم عندنا زلفى » أي تقريباً.

« إلا من آمن وعمل صالحاً » في ماله وولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبثّ الإيمان والعمل الصالح في أولاده بتربية دينية « فاولئك لهم جزاء الضعف » لعله من إضافة الموصوف الى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا وهدوا وأيضاً من جهة تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها وزيادة « وهم في الغرفات » أي في القباب العالية « آمنون » من العذاب فما هم بمعذبين.

« والذين يسعون في آياتنـــا معاجزين » أي يجدون في آياتنا وهم يريدون أن يعجزونا – أو ان يسبقونا – أولئك في العذاب محضرون» وإن كثرت أموالهم وأولادهم.

وفي قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم » الخ، انتقال الى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيهما وإلا فلا يزيدان إلا وبالاً .

قوله تعالى : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » قال في مجمع البيان : يقال : أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه . انتهى .

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البر والمراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله .

فقوله في صدر الآية : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » للإشارة إلى ان أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال : « ومـا أنفقتم من شيء » قليلاً كان أو كثيراً وأياً ما كان من المال « فهو يخلفه » ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة « وهو خير الرازقين » فإنه يرزق جوداً ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة ، ولأنه الرازق في الحقيقة وغيره ممن يسمّى رازقاً واسطة لوصول الرزق .

قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون» المراد بهم جميعاً بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعاً .

وقوله : « ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم ولو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم في الدنيا وقـد أنكروها كما في الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى ابن مريم : « ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

والغرض من السؤال تبكيت المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا لذلك .

قوله تعالى : « قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولاً تنزيهاً مطلقاً فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوّه بعبادتهم صوناً لساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك ، ولو تصوراً لا تصديقاً بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاة بينهم ، والموالاة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاة وإذا لم تكن موالاة لم يكن رضا .

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه : « بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدهم الوثنيون وهم الملائكة والجن والقديسون من البشر ، والأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الاوليان والطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال وإن كانوا أفضل منهما .

والإضراب في قولهم : « بل كانوا يعبدون الجن » يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم .

وهؤلاء من الجن هم الذين يعدّهم الوثنيون مبادىء الشرور في العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعاً في خيراتهم لما أنهم مباد للخيرات لا كما قيل : إن المراد بالجن إبليس وذريته وقبيله ومعنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعوهم اليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي ، ويرده ما وقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولا ما قيل : إنهم كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ولا ما قيل : إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها .

ولعل الوجه في نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم ، ومبادىء الشر عندهم مطلقاً الجن لا كما قيل : إن المراد بالأكثر الكلّ ، وهو مبني على تفسير العبادة بمعنى الطاعة وقد عرفت ما فيه .

قوله تعالى : « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا

ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » نوع تفريع على تبري الملائكة منهم وقد بين تبري عامة المتبوعين من تابعيهم والتابعين من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى : «ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ ، وقوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » العنكبوت : ٢٥ . ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » الخ ، خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم وتحريض لهم عليه ﷺ ، وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبى كأنه قيل : إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بينة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم الى اتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرضوهم عليه – وفي إضافة الآباء الى ضمير « كم » مبالغة في التحريض والإثارة .

وقوله : « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى » معطوف على « قالوا » أي وقالوا مشيراً إلى الآيات البينات إشارة تحقير : ليس هذا الا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوباً به على الله ، بدلاً من أن يقولوا : إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى – وقد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شيء ما لا أزيد من ذلك .

ثم غيّر سبحانه السياق وقال : « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » ومجيء الحق لهم بلوغه وظهوره لهم ، والأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل والمعنى : والذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته وبطلانه .

وأكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير » والجملة حالية أي وعدّ الذين كفروا – أي كفار قريش – الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً والحال انا لم نعطهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل ولم نرسل اليهم قبلك من رسول ينذرهم ويبين لهم ذلك فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول النذير : إنه حق أو باطل .

قوله تعالى : « وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير » ضميرا الجمع الأول والثاني لكفار قريش ومن يتلوهم والثالث والرابع للذين من قبلهم ، والمعشار العُشر والنكير الإنكار ، والمراد به في الآية لازمه وهو الأخذ بالعذاب .

والمعنى : وكذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الامم الماضية ولم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب وما أهون أمر قريش . والالتفات في الآية إلى التكلم لاستعظام الجرم وتهويل المؤاخذة .

قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة » المراد بالموعظة الوصية كناية أو تضميناً ، وقوله : « أن تقوموا لله » أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم ، وقوله : « مثنى وفرادى » أي اثنين اثنين وواحداً واحداً كناية عن التفرق وتجنب التجمع والغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها ولا فكر وكثيراً ما تميت الحق وتحيي الباطل .

وقوله : « ما بصاحبكم من جنة » استئناف « ما » نافية ويشهد بذلك قوله بعد : « إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ويمكن أن يكون « ما » استفهامية أو موصولة و « من جنة » بياناً له .

والمراد بصاحبكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه والوجه في التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالاً في فكر أو خفة في رأي أو أي شيء يوهم أن به جنوناً .

والمعنى : قل لهم : إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا وتنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين وواحداً واحداً وتتفكروا في أمري فقد صاحبتكم طول عمري على سداد من الرأي وصدق وأمانة ليس فيّ من جنة . ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن .

قوله تعالى : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » الخ ، كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا وهبهم كل ما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسؤل

ولازمه أن لا يسألهم وهذا تطييب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه .

ثم تمم القول بقوله : « إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد » لئلا يرد عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملاً بغير غاية فدفعه بأن لعملي أجراً لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد .

قوله تعالى : « قل إن ربي يقذف بالحق علاّم الغيوب » القذف الرمي ، وقوله : « علاّم الغيوب » خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع اليه تعالى .

ومقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل اليه بالوحي من عنده تعالى الذي هو قول فصل يحق الحق ويبطل الباطل فهو الحق المقذوف اليه ﷺ من عند علاّم الغيوب فيدمغ الباطل ويزهقه ، قال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » الأنبياء : ١٨ ، وقال : « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أسرى : ٨١ .

قوله تعالى : « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » المراد بمجيء الحق على ما تهدي اليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة لكل باطل من أصله .

وقوله : « وما يبدىء الباطل وما يعيد» أي ما يظهر أمراً ابتدائياً جديداً بعد مجيء الحق وما يعيد أمراً كان قد أظهره من قبل إظهاراً ثانياً بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذي هو القرآن .

قوله تعالى : « قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب » بيان لأثر الحق الذي هو الوحي فإنه عرفه حقاً مطلقاً فالحق إذا كان حقاً من كل جهة لم يخطىء في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلا كان باطلاً من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطىء البتة .

ولذا قال تأكيداً لما تقدم : « قل إن ضللت » وفرض مني ضلال « فإنما أضل » مستقراً ذلك الضلال « على نفسي » فإن للإنسان من نفسه أن يضل « وإن اهتديت فبما يوحي الى ربي » فوحيه حق لا يحتمل ضلالاً ولا يؤثر إلا الهدى .

وقد علل الكلام بقوله : « إنه سميع قريب » للدلالة على أنه يسمع الدعوة ولا يحجبه عنها حاجب البعد وقد مهد له قبلاً وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علاّم الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره ويمنع نفوذ مشيته هداية الناس بالوحي قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » الجن : ٢٨ .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب » ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل » أن الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش ومن يلحق بهم حال الموت .

فقوله : « ولو ترى إذ فزعوا » أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت « فلا فوت » أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أي حائل آخر .

وقوله : « وأُخذوا من مكان قريب » كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم وقد عبر بقوله : « أُخذوا » مبنياً للمفعول ليستند الأخذ اليه سبحانه ، وقد وصف نفسه بأنه قريب ، وكشف عن معنى قربه بقوله : « ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون » الواقعة : ٨٥ ، وأزيد منه في قوله: « من حبل الوريد » ق : ١٦ ، وأزيد منه في قوله: «إن الله يحول بين المرء وقلبه» الأنفال : ٢٤ ، فبين أنه أقرب الى الانسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله: « إن ربك لبالمرصاد » الفجر: ١٤ ،فكيف يتصور فوت الإنسان منه وهو أقرب اليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

فقوله : « وأُخذوا من مكان قريب » نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأُنسنا بالامور المادية وإلا فالأمر أعظم من ذلك .

قوله تعالى : « وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد » التناوش التناول وضمير « به » للقرآن على ما يعطيه السياق .

والمراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعين الجزاء وهي

أبعد مـا يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدل الغيب شهادة لهم والشهادة غيباً كما تشير اليه الآية التالية .

قوله تعالى : « وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » حال من الضمير في «وأنى لهم التناوش» والمراد بقوله: « ويقذفون بالغيب من مكان بعيد» رميهم عالم الآخرة وهم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائباً عن حواسهم إذ كانوا يقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار ، وقيل : المراد به رميهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر والكذب والإفتراء والشعر .

والعناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيرة إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا وقد تقدمت الإشارة اليه .

ومعنى الآيتين : وقال المشركون حينما أُخذوا آمنـّا بالحق الذي هو القرآن وأنـّى لهم تناول الإيمان به – إيماناً يفيد النجاة – من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم يرمون أُمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهو الدنيا .

قوله تعالى : « وحيل بينهم وبين مـا يشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب » ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم وبينهـا بالموت ، والمراد بأشياعهم من قبل أشباههم من الامم الماضية أو موافقوهم في المذهب ، وقوله : « إنهم كانوا في شك مريب » تعليـــل لقوله : « كما فعل » الخ .

والمعنى : ووقعت الحيـلولة بين المشركين المأخوذين وبين ما يشتهون من ملاذّ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الامم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب .

واعلم أن ما قدمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق وقـد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفياني بالبيداء، وهو من علائم ظهور المهدي عليه السلام المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب » قال : يسرّون الندامة في النار إذا رأوا وليّ الله فقيل: يا ابن رسول الله وما يغنيهم إسرارهم الندامة وهم في العذاب ؟ قال : يكرهون شماتة الأعداء .

أقول : ورواه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه وذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال أبو عبد الله عليه السلام : اسكت فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمه باراً بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يقول فيه : حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل: « جزاء من ربك عطاء حساباً » وقال : « أُولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » .

وفي الكافي بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من صدّق بالخلف جاد بالعطية .

وفيه بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن لكل يوم نحساً فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ، ثم قال : اقرؤا مواضع الخلف فإني سمعت الله يقول: «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه» إذا لم ينفقوا كيف يخلف؟

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأل قومه أن يودّوا أقاربه ولا يؤذوهم . وأما قوله : « فهو لكم » يقول : ثوابه لكم .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا » الآية ، أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة ويخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفياني فيبعث اليه جنداً من جنده فيهزمهم فيسير اليه السفياني بمن معه حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا المخبر منهم .

أقول : والرواية مستفيضة من طرق أهل السنة مختصرة أو مفصّلة وقد رووها من طرق مختلفة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وجدّ عمرو بن شعيب وأم سلمة وصفيّة وعائشة وحفصة أزواج النبي صلى الله عليه وآله ونفيرة امرأة القعقاع وعن سعيد ابن جبير موقوفاً .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوْت » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال : قال أبو جعفر عليه السلام : والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول : يا أيها الناس من يحاجّني في الله فأنا أولى بالله. أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم. أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح. أيها الناس من يحاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم . أيها النـاس من يحاجني بموسى فأنا أولى بموسى . أيها الناس من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى . أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد . أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله .

ثم ينتهي إلى المقام فيصلي ركعتين وينشد الله حقه . ثم قال أبو جعفر عليه السلام : هو والله المضطر في كتاب الله في قوله : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » .

فيكون أول من يبايعه جبرئيل ثم الثلاثمائة والثلاثة عشر فمن كان ابتلي بالمسير وافى ومن لم يبتلِ بالمسير فقد عن فراشه وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام : هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله : « فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم جميعاً » قال: الخيرات الولاية ، وقال في موضع آخر: « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة »

وهم أصحاب القائم عليه السلام يجتمعون والله اليه في ساعة واحدة .

فإذا جاء إلى البيداء يخرج اليه جيش السفياني فيأمر الله عز وجل الأرض فيأخذ بأقدامهم وهو قوله عز وجل : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب وقالوا آمنا به » يعني بالقائم من آل محمد عليه السلام « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون » يعني أن لا يعذبوا « كما فعل بأشياعهم » يعني من كان قبلهم من المكذبين هلكوا « من قبل إنهم كانوا في شك مريب » .

– تمّ والحمد لله –

بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	رقم الصحيفة
سورة القصص ٢٩ – ٤٢	كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام في فصول :	قرآني وتاريخي	٤٠
	١ – منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي		٤٠
	٢ – قصص موسى في القرآن		٤١
	٣ – منزلة هارون عند الله وموقفه العبودي		٤٤
	٤ – قصة موسى في التوراة الحاضرة		٤٤
سورة الروم ٢٧ – ٣٩	كلام في معنى كون الدين فطرياً في أربعة فصول		١٨٩
سورة لقمان ١٢ – ١٩	كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه في فصلين	قرآني وروائي	٢٢١
سورة السجدة ١ – ١٤	كلام في كينونة الإنسان الاولى	مختلط	٢٥٥